[سنة] ٢ — عدد ٦ مارس ١٩٤٦



الكاتب المصرى

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرس



تصدرها دار الكاتب المصرى

شركة مساهمة مصرية

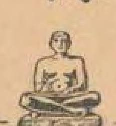
القاهرة

الكاتب المصري

شركة مساهمة مصرية



الكاتب المصرى



ربيع الثانى ١٣٦٥ — مارس ١٩٤٦

مجلد ٢ — عدد ٦

المعذبون فى الأرض

[إلى الذين يجدون ما لا ينفقون ، وإلى الذين لا يجدون ما ينفقون ، يساق هذا الحديث] .

كان يسعى فى ظلمة الليل القاتمة ، قد هدأ من حوله كل شىء ، وجثم على الكون سكون رهيب مرهق . ولو قد رفع رأسه إلى السماء لرأى فيها نقطاً من النور ضئيلة منتثرة ، ولكنه لم يكن يرفع رأسه إلى السماء ، ولم يكن يطرق برأسه إلى الأرض ، وإنما كان يمضى أمامه يمد بصره كأنما يريد أن يخترق به هذه الحجب الكثيفة من الظلام ، بل لم يكن يلتفت عن يمين ولا عن شمال ، وإنما كان أشبه شىء بقطعة من الجماد قد صورت فى صورة إنسان ، ولو قد عدا أو أسرع الخطو لجاز أن يشبه بسهم حى يشق هذه الظلمات المتكاثفة أمامه ، ولكنه لم يكن يسرع الخطو وإنما كان يسعى هادئاً مطمئناً ، لا يتردد فى سعيه كأنما تدفعه إلى أمام قوة خفية رفيقة ؛ فهو يسعى سعياً مستأنياً رفيقاً ، لا يتعجل شيئاً ولا يقف عند شىء ، وإنما يمضى إلى غايته كما يمضى الزمان إلى غايته ، فى أناة ومهل وحزم . ولو كان شاعراً أو راوية للشعر أو على حظ من ثقافة ، لذكر تلك الأصبع الوردية التى تشير إلى ظلمة الليل بأن تنجلى ، أو لتصور سهماً ضئيلا من الفضة النقية يمضى فى هذه الظلمات المتكاثفة ، فتنهزم أمامه هذه الظلمات متهالكة ، وتتساقط أمامه نجوم السماء فى الأفق الغربى كأنما يدعو بعضها بعضاً إلى الفرار .

ولكنه رأى نور الفجر يمد لسانه الدقيق من وراء النهر ، وسمع صوتاً قد أقبل من ورائه فى الجو ضئيلا نحيلا ماضياً أمامه إلى الشرق ، كأنما يريد أن يلقى بالتحية والترحيب ذلك الضوء الضئيل . ثم رأى النور يمتد طولا وينبسط عرضاً حتى أحس كأن الجو كله قد أخذ يمتلىء نوراً وغناء . فأما النور فكان يوقظ الأشياء وينبئها بمطلع الفجر . وأما الصوت فكان يوقظ الأحياء وينبئهم بأن الصلاة خير من النوم . ولم يذكره شيء من هذا كله بشعر ولا بنثر ولم يخرج من أعماق ذاكرته أدباً قديماً أو حديثاً ، لأنه لم يكن من هذا كله فى شيء ، ولم يكن يقدر أن شيئاً من هذا كله يمكن أن يوجد أو يخطر لأحد على بال . وكل ما فى الأمر أن أخاه الشيخ الضرير قد قال له ذات يوم : إنك تسعى فى ظلمة الليل فتطيل السعى ، وتمتد بك الطريق مخوفة غير آمنة ، فاحفظ هذه الآية من القرآن ورددها فى قلبك أو بلسانك ، فإنها تؤمنك من خوف ، وتؤنسك من وحشة . ثم اقرأ الآية الكريمة : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب » . فكان لا يخرج من بيته الحقير المتضائل ساعياً إلى النهر فى ظلمة الليل ، إلا ترددت هذه الآية فى صدره تردداً متصلا ، فملأت ضميره أمناً وراحة وهدوءاً . فإذا أحس نبأة من قريب أو من بعيد ، تجاوزت هذه الآية الكريمة قلبه إلى لسانه واندفع بها صوته إلى الفضاء ، فأمن كل كيد وجُنِّب كل مكروه .

وكان فى تلك الليلة يمضى أمامه ، تؤنس قلبه هذه الآية التى تتردد فيه . فلما رأى ما رأى ، وسمع ما سمع ، لم يخف شيئاً ، ولم يذكر شيئاً ، وإنما كف عن التلاوة ، وسأل نفسه مسرعاً : أيمضى إلى النهر أمامه ، أم يرجع إلى المسجد وراءه حتى إذا أدى الصلاة مضى إلى النهر ، فاستخرج منه ما ساقه الله إليه من رزق ؟ ولم يشك طويلا حين ألقى على نفسه هذا السؤال ، وإنما استدار إلى المسجد فأدى صلاته لم يكلم أحداً ولم يكلمه أحد ، ثم استأنف سعيه إلى النهر هادئاً مطمئنا وحيداً ، لا يذكر شيئاً ولا يكاد يفكر فى شيء ، وإنما هو قطعة جامدة قد صورت فى صورة إنسان تمضى أمامها فى أناة ومهل ، لا تنظر فى السماء ولا تنظر فى الأرض ، ولا تلتفت إلى يمين ولا إلى شمال ، ولا تحس جلال الليل المنهزم ، ولا جمال الصبح المنتصر ، وإنما خرجت من ذلك البيت الحقير وسعت إلى ذلك النهر العظيم ، تلتمس فيه ما ساقه الله لها من رزق . فلم

يكن قاسم شاعراً ولا راوية للشعر ، ولا محباً لجلال الليل وجمال النهار ، بل لم يخطر له قط أن لليل جلالا . وأن للنهار جمالا ، فلم يكن قاسم إلا رجلا جاهلا بائساً مريضاً ، يلتمس فى النهر ما يستعين به على أن يقيم أوده ويقوت امرأته أمونة ، وابنته سكينة ، فى بيته ذلك الحقير . ولولا أن قاسما كان يردد فى صدره هذه الآية ، ويؤدى صلاة الفجر إن أدركته فى طريقه إلى النهر ، ويفكر أيسر التفكير وأهونه فى بيع ما يخرج له من سمك النهر ليقوت نفسه وأهله ، لولا ذلك لكان سعيه بين بيته وبين النهر شيئا غريزيًّا خالصاً يشبه سعى النمل والنحل إلى أرزاقها .

وقد كان قاسم عليلا قد نهكه المرض ، وكاد يسلّ جسمه سلاً ، ومن أجل ذلك لم يكن يجدّ ولا يكد ، ولا يضطرب فى شؤون الحياة كما يضطرب غيره من الناس ، وإنما كان ينفق أيسر الجهد ليمسك الحياة على نفسه وعلى أسرته الصغيرة . يسعى إلى النهر بين حين وحين ، فإن ساق الله إلى شبكته شيئاً من السمك باعه فى غير مشقة ولا مساومة ، ثم عاد بما يغل ذلك عليه من نقد فاشترى فى كثير من الفتور والسأم ما يصلح أمره وأمر زوجه وابنته ، ثم يعود بذلك كله إلى البيت فيلقيه بين يدى أمونة إلقاء ، ويسعى متخاذلا متهالكا إلى حصير بال رث قد ألقى فى ناحية من نواحى البيت ، فيمتد عليه ضئيلاً نحيلاً يكاد السقم يمنيه إفناء . وما يزال على حصيره ذاك لا ينطق كلمة ولا يفكر فى شىء حتى تهيىء امرأته ما يمكن أن تهيىء من الطعام فتضعه بين يديه ويصيب ثلاثتهم منه ما يصيبون . وما أكثر الليالى التى لم يكن قاسم ينهض فيها للصيد ! يقعد به الداء ، وتثقل عليه العلة فيستقر فى مكانه مثبتاً لا يأتى حركة ولا ينطق بكلمة ، وفى نفسه مافيها من حسرة وألم إن استطاعت نفسه أن تحس حسرة أو ألما . وربما كلف نفسه فوق ماتطيق ، وحمّل جسمه أكثر مما يحتمل ، ونهض وهو لا يقدر على النهوض ، وسعى وهو لا يقدر على السعى ، وبلغ النهر فوجده كريماً بالقياس إلى غيره من الناس ، بخيلا بالقياس إليه ، فعاد إلى بيته مكدوداً محزوناً ، صفر اليدين ، وألقى إلى امرأته نظرة حزينة مريضة ، ومضى إلى حصيره فامتد عليه لا يقول شيئاً ولا يصنع شيئا .

هنالك كانت أمونة تخرج متباطئة ، فتلم بهذه الدار أو تلك تعين أهلها من أمرهم على بعض ما يصنعون ، وتعود حين ينتصف النهار ،

وقد حملت ما يمسك عليها وعلى زوجها وابنتها الحياة ويرد عنهم الجوع .

فى ذلك الصباح خرج قاسم من المسجد بعد أن أدى الصلاة فسعى إلى النهر مطمئن القلب هادئ النفس على ثغره ابتسامة ضئيلة شاحبة تريد أن تصور الراحة والرضا فلا تستطيع أن تصور إلا حزناً هادئاً فيه شئ من أمل يسير . وقد صادف النهر كريماً فى ذلك اليوم ، وساق الله إليه رزقاً حسناً ، فخرجت له شبكته بسمكة عظيمة لم يكد يحس ثقلها ولم يكد يرى طولها وعرضها حتى اضطرب فى قلبه فرح ضئيل ، اتسعت له الابتسامة التى كانت مرتسمة على ثغره ، وذهب عنها ما كان يظهر فيها من شحوب ، ولمع فى عينيه الصغيرتين نور منهالك ضئيل . ثم أحس أنه لن يستطيع أن يحمل صيده إلى أمد بعيد ، فأقام أمامه ينظر إليه حيناً وإلى النهر حيناً ، ويتلفت من حوله حيناً ، ويرفع رأسه إلى السماء بالشكر حيناً ، وينتظر أن يمر به بعض الأصحاء من شباب المدينة فيحمل له هذا الصيد إلى بيت العمدة . فقد استقر فى نفسه منذ رأى هذا الصيد الرائع الجميل أنه لا ينبغى أن يباع فى السوق ، وإنما ينبغى أن يحمل إلى بيت العمدة هذا الرجل الموسر الذى يرفق به ويعطف عليه ويوصيه بين حين وحين بأن يحمل إلى داره ما قد يتاح له من صيد حسن .

وكانت فتاة من فتيات الدار قد نهضت مع الصبح قبل أن تستيقظ الأسرة من نومها ، فبدأت بما تعودت أن تبدأ به مع الصباح من كل يوم ، وأخذت تكنس فناء الدار وترده إلى هيئته التى ينبغى أن يكون عليها ، فتصفف الكراسى فى أماكنها ، وتنفض التراب عن تلك الدكة الطويلة التى كانت تمتد فى صدر الفناء ، وتهيئها لمجلس سيدنا حين يقبل مطلع الشمس ليقرأ السورة ويشرب القهوة ويتحدث إليها حديثاً يطوّله حيناً ويقصره حيناً حسب ما يكون عليه من عجلة أو ريث . وإن الفتاة لفى ذلك وإذا بالباب يطرق طرقاً خفيفاً ، فاذا فتحته رأت قاسماً حزيناً تظهر على وجهه الشاحب آية الرضا والأمل ومن ورائه غلام يحمل عنه عبئه . فحيا قاسم وحيا معه الغلام ، ثم دخل الرجلان صامتين ووضعا صيدهما العظيم على هذه الدكة فى صدر الفناء . وقال قاسم فى صوته الخافت المريض : ما أشك فى أن السيدة ستسرّ بهذا الصيد . وهمّ صاحبه أن ينصرف ولكن الفتاة ألقت فى يده شيئاً فقبله راضياً وولى مجبوراً . وهمّ قاسم أن ينصرف

ولكن الفتاة أشارت إليه أن أقم ، ثم غابت عنه لحظة وعادت إليه بقليل مما يؤكل وبقدح من القهوة فأكل وشرب ودعا . وهو فى ذلك وإذا سيدنا الضرير يقبل كما تعود أن يقبل فى كل صباح متكلفاً شيئاً من العنف فى دفع الباب أمامه رافعاً صوته بدعاء ربه الستار ، يريد أن ينبئ الأسرة بمقدمه . حتى إذا أغلق الباب وراءه فى غير رفق سعى إلى دكته فى صدر الفناء ولكنه لم يكد يجلس حتى وثب مرتاعاً وجلاً ، قد ملكه ذعر ضرير مثله لم يعرف كيف يظهر ولا فى أى عضو من أعضائه يظهر ، فوجهه يضطرب ، وجسمه يرتعد ، ويداه تذهبان وتجيئان فى الهواء ، وفمه مفتوح عن أسنان متحطمة ، وصوته يتردد فى حشرجة بين جوفه وشفتيه . ويرى قاسم وترى الفتاة معه هذا المنظر ويشهدان هذا الذعر فيدفعان إلى ضحك طال متصل . ويثوب سيدنا إلى نفسه وقد أمن بعد خوف وظن أن فتيان الدار وفتياتها قد كادوا له بعض الكيد . حتى إذا علم آخر الأمر أن أحداً من أهل الدار لم يهيئ له كيداً ، وإنما أخطأ قاسم فوضع هذه السمكة فى غير موضعها ، وشغلت الفتاة بالصيد والصائد عن مقدم سيدنا فلم تهيئ له مجلسه . تضاحك الشيخ الضرير من نفسه ومن قاسم ومن الفتاة ، ثم جلس على كرسى وأبى أن يقرأ السورة حتى يشرب قهوة قبل القراءة لا تغنى عن قهوته تلك التى تعوّد أن يشربها متى فرغ من الترتيل . وقد شرب القهوتين ، ولكنه قال وهو ينهض للانصراف : إن حكمة الله بالغة ، لقد ضحكتما منى وأضحكتمانى من نفسى ، ولكن الله قد أراد بى خيراً ؛ فلن أتكلف لأهلي طعاماً منذ اليوم انبئ السيدة يا ابنتى بأن هذه السمكة قد ملأت قلبي رعباً وبأنى أنتظر منها نصيبى حين يتقدم النهار ، وما أشك فى أنكم ستتخذون منها ألواناً مختلفة ، وما أرضى أن ترسلوا لى لوناً واحداً وإنما يجب أن أصيب من هذه الألوان جميعاً . وانصرف الشيخ الضرير راضياً عن نفسه مستبشراً بهذا اليوم الذى يسر الله فيه رزقه حسناً دون أن يسعى إليه . والله يرزق من يشاء بغير حساب .

وقد استيقظت الأسرة كلها على ذعر الشيخ الضرير وعلى تضاحك الصائد والفتاة وعلى قراءة القرآن ، فأخذت تستقبل النهار كما تعودت أن تستقبله يعمل بعضها ، ويكسل بعضها ، والصائد فى مكانه لا يبرحه لعله نسى نفسه ، أو لعله ينتظر عن صيده ، أو لعله قد أنس إلى الدار لما أكل فيها وما شرب ، وما وجد من تسلية عن همه وسقمه . ومهما يكن من شىء فقد رآه صاحب الدار ، فقال له قولا حسناً

ووضع فى يده قروشاً ، وخرج الصائد راضياً مغتبطاً ، ولكنه لم يمض إلى داره وإنما استدار وذهب إلى السوق .

والقارئ يستطيع أن يلاحظ أننا قد انتهينا إلى مفرق من مفارق الطرق فى هذا الحديث ، فأنا أستطيع أن أذهب معه إلى السوق التى ذهب إليها قاسم الصياد . وأنا أستطيع أن أذهب إلى هذه الدور ، التى يلم بها سيدنا كل صباح ليقرأ القرآن ، ويشرب فيها القهوة ، ويجاذب أهلها أطراف الحديث ، لا يضعف صوته ، ولا يضيق جوفه بما يلقى فيه من أقداح القهوة المرة . ثم أذهب معه إلى الكُتَّاب الذى سينتهى إليه سيدنا حين يرتفع الضحى وتوشك الشمس أن تزول . وأنا أستطيع أن أترك قاسماً يشترى فى السوق ما يشاء ، وأن أترك سيدنا يطوف بالدور وينتهى إلى الكتاب ، وأن أقيم فى الدار لا أبرحها ، وإنما أتبع السمكة إلى حيث نقلت من الفناء واستقرت فى مكانها من المطبخ بين الفرن وهذا الصف الطويل من الكوانين التى تختلف سعة وضيقاً ، وارتفاعاً وانخفاضاً ، وأشهد إقبال النساء على هذه السمكة العظيمة ، ينظفنها ويقطفنها ويهيئنها لما يراد أن يتخذ منها من ألوان الطعام . ولكنى لن أقيم فى الدار ، ولن أتبع قاسماً ، ولن أتبع سيدنا ، وإنما سأخرج من الدار وسأنحرف إلى الشمال فأسعى حيناً ، ثم أنحرف إلى الشمال مرة أخرى ، فأسعى قليلا ، ثم أنحرف إلى يمين فأمضى أمامى خطوات ، ثم أجدنى أقصى هذه الحارة الحقيرة حجرة حقيرة قد اتخذت من الطين ، لا من الحجارة ولا من الطوب الأحمر ولا من اللبن ، وإنما اتخذت من الطين الذى سويت قطع منه تسوية ما ، وخلط بها شىء من القش والتبن ، ورص بعضها إلى بعض ، حتى ارتفعت فى الجو ارتفاعا ما ، وأحاطت بقطعة متضائلة من الأرض ثم ألقى عليها شىء من سعف النخل فأصبح لها سقفاً ، ثم نصب فى فرجتها لوح ضيق قليل الطول من خشب رقيق فأصبح لها بابا . فهذا البيت هو الذى أوثره على السوق ، وما يعرض فيها من السلع وما يدار فيها من التجارة ، وعلى الدور وما يكون فيها من حدث ، وعلى الكتاب وما يكون فيه من جد ولعب ومن سذاجة ومكر .

أوثر هذا البيت الحقير لأنى أحب أن أجد فيه أمونة وابنتها سكينة وقد استقبلتا النهار بائستين كما استقبلتا الليل بائستين . أحستا قاسماً وهو ينهض

متثاقلا فى جوف الليل ، ويخرج متثاقلا يجر قدميه ، ويغلق الباب الضئيل من ورائه ، وينغمس انغماساً رفيقاً مستأنياً فى ظلمة الليل يرجو أن يبلغ النهر وأن يجد فيـه رزقه ورزقهما . أحستا نهوضه فى جوف الليل ، فلم تنهضا معه ولم تقولا له شيئا . ولم تنهضان؟ وماعسى أن تفعلا؟ ولم تقولان ؟وماعسى أن تقولا؟ مضى قاسم وأقامتا واشتملهما الليل سا كنتين نائمتين كما اشتمله يقظان ساعياً . وأسفر الصبح لهما ساكنتين نائمتين كما أسفر له ساعياً إلى الرزق . فأما هما فقد نهضتا من نومهما حين أشرقت الشمس فجلست كل واحدة منهما فى مكانها واجمة لاتدرى ما تصنع ولاتعرف ماتقول . وظلتا تنتظران قاسماً لعله يعود إليهما بشىء من خير . وقد جرت العادة إذا طال عليهما الانتظار أن تصيبا شيئاً من خبز جاف تبعدان به الجوع عن نفسيهما أو تبعدان به نفسيهما عن الجوع ، وربما خرجتا من البيت فتحدثتا إلى الجارات .

وسكينة فتاة فى السابعة عشرة من عمرها ، فيها دعة ولين ، وفيها سذاجة تشبه الغفلة ، وعلى وجهها مسحة من جمال توشك أن تروق الناظرين ، لولا ما يبدو على الفتاة من الضر ، وفى جسمها تناسق وفى قدها اعتدال يظهران للناظر دون أن يتكلف التماسهما . فالفتاة عارية أو كالعارية ، لا تستر جسمها إلا أسمال تتكشف هنا وهناك عن حسن أليم .

على أن وجومهما فى ذلك الصبـاح لم يتصل إلا قليلا . وقد قالت أمونة لابنتها فجاءة فى صوت فاتر منكسر : ألم تنهضى وتتركى البيت بعـد أن خرج أبوك إلى النهر بساعة قصيرة ؟ قالت الفتاة : بلى قد نهضت وخرجت من البيت ، ولـكنى عدت بعد لحظة . قالت أمونة : فإنى قدرت ذلك وانتظرت أن تعودى بعد لحظة ، ولـكن هذه اللحظة طالت واشتد طولها حتى أشفقت عليك من بعض الشر ، وحتى هممت أن أخرج فى التماسك ولـكنى أكرهت نفسى على البقاء مخافة أن يفطن إلينا الجيران . ومازلت انتظرك وانتظرك حتى أسفر الصبح وإذا أنت تقبلين مترفقة وتدخلين متلصصة وتندسين فى مضجعك حريصة على ألا أحس مقدمك كما كنت حريصة على ألا أحس انسلالك من البيت . فإلى أين ذهبت ؟ وماذا كنت تصنعين ؟ وقد سمعت سكينة حديث أمها مرفوعة الرأس أول الأمر ولـكنها لم تلبث أن انخفض رأسها فجأة ، كأنما عجزت الأعصاب والعضـلات أن تمسكه فانكب نحو الأرض انـكباباً . ولبثت الفتاة صامتة لا تقول شيئاً

جامدة لاتأتى حركة . وقد أعادت أمها عليها المسألة مرة ومرة ، فلم تظفر منها برجع الحديث . هنالك تنمرت أمونة ، وظهر فى وجهها شىء من الجد ، لم يلبث أن استحال إلى غضب منكر عنيف . وقالت لابنتها فى صوت مكظوم : ستنبئيننى إلى أين ذهبت وماذا كنت تصنعين ؟ ثم انحرفت بنصفها الأعلى إلى يمين وتناولت عوداً يابساً من سعف النخل كانت تصنعه فى تقليب الخبز وإنضاجه ، ثم استقبلت الفتاة ملوحة بهذا العود اليابس ، وهى تقول لها فى صوتها المكظوم : ستنبئيننى أين ذهبت وماذا كنت تصنعين ؟

ولم تقل الفتاة شيئاً ، ولكن العود أخذ يقع بين كتفيها فى عنف شديد وثبت له الفتاة كأنما دفعها إلى الوثوب لولب فى الأرض ، أوجذبها إلى الوقوف سبب فى السقف . على أن وقوفها لم يطل ، فقد أخذ العود يصيب من جسمها ما شاءت الألم ، وإذ الفتاة تجثو وقد جمعت يديها إلى وجهها وهى تتلوى من الألم ، تدافع شهيقاً يريد أن ينطلق ويكاد أن ينفجر عنه حلقها . ثم يستأثر الغضب بأمونة ، فإذا هى لم تبق امرأة ، وإنما استحالت إلى جنية ثائرة ، وقد ألقت العود من يدها ووثبت فى سرعة وخفة ، فكبت الفتاة على وجهها وجمعت شعر البائسة بين يديها ، وجعلت تجذب الفتاة من شعرها فى غير رفق وتدفع بقدميها وجهها فى غير نظام . وقد انفجر صوت الفتاة عن صيحة منكرة ، فتلقى أمونة نفسها على ابنتها وتضغط بيدها على فم الفتاة وتنبئها فى صوتها المكظوم دائماً بأنه الموت إذا لم تكظم صوتها ، ولم تضبط نفسها ، ولم تنبئها فى هدوء وصدق إلى أين ذهبت ، وماذا صنعت ، حين انسلت من البيت فى ظلمة الليل .

وقد ضاق صدر الفتاة لثقل ما حملت من جسم أمها ، ولهذا الضغط المتصل على فمها ، فاستيقنت أو كادت تستيقن أنه الموت ، ولكنها جاهدت جهاداً عنيفاً حتى تخلصت من ثقل أمها واستوت جالسة ، وظهر فى وجهها هدوء حازم عنيد ودفعت يد أمها عن فمها وقالت فى صوت مكظوم كصوت أمها ولكنه ينم عن التحدى والعناد : تريدين أن تعلمى إلى أين ذهبت وماذا كنت أصنع حين انسللت من البيت فى ظلمة الليل ؟ فاعلمى إذن أنى لقيت زوج عمتى غير بعيد من مزرعته ، وأقمت معه ما أقمت ثم رجعت حين كاد الصبح أن يسفر . أعلمت الآن ما كنت تجهلين ؟ أراضية أنت بما عملت !

وجمت أمونة شيئاً ثم قالت مستخزية : ومتى لقى الفتيات أزواج عماتهن فى

جنح الليل ! إنك لتلقينه متى شئت فى وضح النهار . قالت الفتاة ألقاه فى وضح النهار وألقاه فى ظلمة الليل ، ذلك شأنه وشأنى ، وما أنت وذاك ! فانه لايعنيك من قريب ولا بعيد . هنالك استأنف العود تمزيقه لجسم الفتاة ، ولكن الفتاة قالت لأمها فى صوت تكلّفت كظمه : ستكفين يدك عنى أو أستغيث بالجيران ؟ قالت أمونة وقد سقط العود من يدها : الجيران ! ياللفضيحة ! ياللعار ! ثم انحنى أعلاها على أسفلها وجعلت تنتحب غير جاهرة بالنحيب . وظلت الفتاة فى مكانها واجمة ساهمة كأنها قطعة من المرمر، على أنها لم تلبث أن فرقت بين أجفانها فانهل على وجهها دمع غزير .

وفى القارئ حب للاستطلاع أقل ما يوصف به أنه يضايق الكاتب ويأخذ عليه الطريق ، ويضطره إلى الوقوف حين كان يؤثر المضى فى كتابته ، أو يضطره إلى الاستطراد حين كان يفضل ألا يتجاوز الموضوع الذى يعرضه أو يقول فيه . والقارئ لا يكفيه ما أنبأته به من أن هذه الفتاه قد تغفلت أمها وانتهزت غيبة أبيها وانسلت من بيتها فى ظلمة الليل ، واعترفت لأمها آخر الأمر وبعد ماذاقت من عذاب بأنها خرجت لغى لا لرشد ، وبأن قد كان بينها وبين زوج عمتها إثم بغيض .

القارئ لا يكتفى بهذا ، وإنما يحب أن يعرف كيف نشأت هذه الصلة المنكرة بين فتاة فى السابعة عشرة من عمرها، ورجل قد جاوز الشباب ، وهو زوج عمتها . ولولا أنى أرفق بالقارئ ولا أحب أن أشق عليه ولا أن أرده خائباً حين يحب الاستطلاع ، لمضيت فى الحديث كما بدأته، ولأبيت الانحراف إلى نشأة هذه الصلة البغيضة لأن الحديث عنها بغيض. ولكن لابد مما ليس منه بدٌّ ؛ فمن حق الكاتب أن يذهب ما شاء من المذاهب فى كتابته ، ولكن من حق القارئ أيضاً أن يفهم فى وضوح وجلاء ما يقدم إليه الكتّاب من المقالات والفصول . وقد عرف القارئ أن قد كان لقاسم أخ شيخ ضرير أقرأه آية كريمة من القرآن تؤمنه من خوف وتؤنسه من وحشة ، فقد ينبغى أن يعرف القارئ الآن أن قد كانت لقاسم أخت فاتنة لعوب ، خلبت عقول كثير من الشباب حين واتاها الحظ ، وابتسمت لها الدنيا ، واستقامت لها الأمور ، ثم تولت عنها الدنيا كما تتولى عن كثير من الناس ، وأصاب حسنها ذبول ، وألمّ بجمالها ذواء حين دخلت فى الكهولة ودنت من الشيخوخة . وقد كانت خليقة أن تضطر إلى بؤس كبؤس أخيها الصياد أو أخيها الضرير لولا أنها صادفت الحاج محمود وكان

رجلا يقيم فى طرف من أطراف المدينة ، فيه بقية من قوة وفضل من شباب ويملك قراريط من الأرض يستغلها فى استنبات البقول . وقد لعبت الأيام بالحاج محمود كما لعبت بتلك المرأة ، ثم أحس حاجة إلى شىء من الاستقامة ، فاصطنع الهدوء وتكلف التقوى وحافظ على الصلوات ، ثم سعى إلى الحج وعاد وعليه زى من وقار ومسحة من نقاء ، فاتخذ هذه المرأة له زوجاً واستقر فى حياة مطمئنة لا يظهر أحد منها على بأس . وكأن غريزته كانت أقوى من إرادته ، وكأن ميله إلى اللهو كان أقوى من طموحه إلى التقوى ، وكأن دنو امرأته من الشيخوخة أو دنو الشيخوخة من امرأته قد حول نفسه عن القناعة والرضا إلى المجانة والطمع ، فكان يمشى فى المدينـة زائغ الطرف ، يدير عينه يميناً وشمالا ، ويقصر بصره إلى هنا ويمد بصره إلى هناك ، وكان كل شىء فى تقلب وجهه واضطراب بصره يدل على أن فى نفسه طموحاً إلى الشر ونزوعاً إلى ما لا يستحب من الأمر . وكان قاسياً على أخى امرأته يرمقه فى ازدراء ويتحدث عنه فى استخفاف ، ولا يمد إليه يداً بالمعونة ولا يظهر إشفاقاً عليه مما كان يبهظه من الفقر والبؤس والداء . ولـكنه رأى ابنة هذا الرجل فتاة كاعباً تستقبل الحياة فى قوة وجمال وفى بؤس وشقاء أيضاً ، فلم يرق لبؤسها ولم يرحم شقاءها ، وإنما اشتهى جمالها وطمع فى محاسنها ، وابتغى إليها الوسائل . وما أكثر وسائل الإغراء للذين يبهظهم الشقاء ! وقد رأى هذه الفتاة الجميلة البائسة تنظر ذات يوم نظرة فيهـا كثير جداً من الأمل إلى رجل من هؤلاء الباعة الذين كانوا يطوفون فى المدن والقرى يحملون هـذه السخافات التى تطمح إليها نفوس البائسين من أهل المدن والقرى : يحملون حقيبة فيها هذا الصمغ الذى يعضع فى الأفواه ويسميه أهل القرى « لباناً » ، ويسميه المترفون من أهل المدن «لادناً» . ويحملون حقيبة أخرى فيها صنوف من الخرز وضروب من الخواتم والأساور قد اتخذت من المعدن الرخيص . ونساء الريف يكلفن بهذه السخافات ، يتخذن من الخرز عقوداً ، ويزين أيديهن ومرافقهن بهذه الخواتم والأساور ، ويتجملن بمضغ اللبان يدرنه فى أفواههن ويحدثن فى مضغه بين حين وحين صوتاً يفتن به الرجال المكتملين والشباب الناشئين . وقد رأى الحاج محمود تلك الفتاة البائسة ذات الجمال البارع وقد تعلقت نفسها بشىء من هذه السخافات بين يدى رجل من هؤلاء الباعة ، قد أطاف به النساء والفتيات من أهل المدينة يأخذن منه سخفه الرخيص ويدفعن إليـه نقدهن القليل .

وسكينة تنظر وتشتهى ولكنها لا تستطيع أن تأخذ شيئا ؛ لأنها لا تستطيع أن تدفع شيئا . فرقّ الحاج محمود لهذه الفتاة أو مال قلبه إلى هذه الفتاة ، فاشترى من سقط المتاع هذا شيئا قليلا أدى له ثمنا ضئيلا وملأ قلب الفتاة به فرحاً وأفعم به نفسها سروراً ، وأفاض على وجهها بهجة زادته حسناً إلى حسن وروعة إلى روعة . ومنذ ذلك اليوم وقع فى قلب الحاج محمود لهذه الفتاة الغافلة حب أثيم . ومنذ ذلك اليوم جعل الحاج محمود يسعى بالخير بين حين وحين إلى هذه الأسرة البائسة : بدأ بالحديث الرفيق ، وثنّى بالمعونة اليسيرة ، واختص الفتاة بعطف كاد يتصل لولا أن الحاج محمود كان يحتاط ويتحفظ ويخشى الريبة . وكان قاسم وامرأته يتلقيان هذا الود الجديد فى تردد بين ما يحمل إليهما من خير وما يثير فى نفسهما من بعض الشك ، ولكن الحاجة كانت أقوى من الحيطة . والشىء الذى ليس فيه شك هو أن الفتاة قد اطمأنت إلى هذا الرجل ووثقت به ، وتعلقت نفسها بما كان يطرفها به بين حين وحين من هذه الطيبات المتواضعة . فأكثرت التردد على دار عمتها ، ثم اتصلت المودة بينها وبين هذا الرجل الذى كانت تسميه عمها .

وهنا يحتاج القارىء فيما أظن إلى أن أمضى به فى هذا الحديث البغيض إلى غايته ؛ فهو يستطيع أن يبلغها وحده ، وأحسبه قد أطال الانتظار لقاسم هذا الذى ذهب إلى السوق وفى يده أو فى جيبه قروش العمدة . فلينظر إليه إن شاء عائداً من السوق قد امتلأت يداه بالخير وظهر على وجهه الشاحب حبور كئيب ، وأقبل يسعى إلى بيته الحقير متباطئاً كثير الخطو ، وفى نفسه شىء من رضا ؛ فسيطعم امرأته وابنته ما لم تتعودا أن تصيبا منه إلا نادراً حين يكرم النهر أو حين يتصدق الموسرون . ومهما يبلغ الفقر بالناس ، ومهما يثقل عليهم البؤس ، ومهما يسىء إليهم الضيق ، فان فى فطرتهم شيئاً من كرامة تحملهم على أن يجدوا حين يأكلون مما كسبت أيديهم لذة لا يجدونها حين يأكلون مما يساق إليهم دون أن يكسبوه أو يحتالوا فيه . فقد كان قاسم فى تلك الساعة يشعر بشىء من هذه الكرامة ، ويريد أن يعتد بنفسه ، لولا أنه كان أشد بؤساً وتضاؤلا وإذعانا لعله من هذا الاعتداد . وهو على ذلك كان يسعى متباطئاً كثير الخطو ، ولم يكن يسوءه أن يلحظه الجيران كلما دنا من بيته ، وأن يروا ما يحمل من طيبات السوق ، وأن يقولوا فى أنفسهم : لقد حسن صيد قاسم منذ اليوم ، وسينعم مع

امرأته وابنته بطعام لذيذ . يقول بعضهم ذلك لنفسه مع كثير من الرفق والإشفاق ، ويقول بعضهم ذلك لنفسه مع كثير من الحسد والغيظ . ويرى قاسم هذا كله فى لحظ العيون واضطراب الوجوه . ويكاد قاسم يجد فى نفسه الرضا عن رفق الرفيق وحسد الحسود . ولكنه يبلغ البيت ويدفع الباب الدقيق الضئيل ويخطو وقد جعل الدم يَصَّاعد إلى وجهه ، وجعلت عيناه تبرقان وشفتاه تنفرجان ، وهمّ صوته الخافت أن يصبّح أهله بالخير ، وهمّت يداه المتهالكتان أن تضعا بين يدى زوجه ما حمل إليها من طعام ، وهمّ أن يداعبها فى بعض الحزن . ولكنه يخطو وينظر ، فإذا امرأة تسّاقط دموعها غزاراً وهى جامدة هامدة ، وإذا فتاة تنتحب ، وتدافع شهيقاً لا تحب أن يسمع . وإذا قاسم واجم أول الأمر ، ثم سائل بعد ذلك ، ثم مكرر للمسألة ، وإذا امرأته تردّ عليه فى صوت مختنق متقطع بكلمات تقع من قلبه البائس موقع الجمر ، وإذا يداه تسترخيان ، وإذا هذا الخير الذى كان يحمله حفيا به ، حريصاً عليه ، يسقط إلى الأرض فى غير نظام ، وإذا عيناه تنطفئان ، وإذا شفتاه تلتقيان ثم تمتدان ، وإذا هو يسعى إلى حصيره ذاك البالى فيجلس عليه متهالكا ، ثم يمتد وقد نهكه ما أصاب جسمه النحيل وقلبه العليل الضئيل من جهد ، وإذا امرأته تسمع صوتا خافتاً يأتى من بعيد ، من بعيد جداً ، وهو يقول : لو رزقنا الله مكانها غلاما لم نتعرض لهذا الخزى ، ثم يعيد : لهذا الخزى . ثم ينقطع الصوت حينا ثم يعود أشد خفوتا ، وأعظم بعداً ، وهو يقول : ما ينبغى للفقراء أن يلدوا البنات . ثم ينقطع صوته فلا تسمعه امرأته سائر النهار ليس نائما وليس يقظان ، وإنما هو شىء بين ذلك . وقد همّت حين تقدم النهار أن تنظر إلى هذا الطعام وتحاول تهيئته ، ولكنها تنظر إليه ثم تعرض عنه ، وتظل فى مكانها هامدة جامدة ، تنهلّ دموعها حين تجود عيناها بالدموع ، وتنقطع دموعها حين تجمد عيناها عن البكاء . والفتاة ملقاة فى مكانها لا هى بالحية ولا بالميتة ، وإنما تأخذها رعدة بين حين وحين ثم يشتمل عليها الخمول والجمود .

ولم ير الجيران فى ذلك اليوم أمونة تخرج لالتماس الحطب ، ولم ير الجيران فى ذلك اليوم دخاناً يخرج من ذلك البيت ، ولم يشم الجيران فى ذلك اليوم رائحة الطعام الذى تنضجه النار ، وقد كانوا مع ذلك يتوقعون هذا كله حين رأوا قاسماً يروح إلى داره وقد امتلأت يداه بالخير .

وسعت الشمس إلى مغربها متباطئة ، وأقبلت ظلمة الليل فنشرت أرديتها السود على كل شىء ، وجثم الليل على المدينة ثقيلا مرهقاً ، فاضطر الناس إلى مضاجعهم وفرض الهدوء والصمت على كل شىء ، وانتثرت فى السماء نقط ضئيلة من النور ، ونهض من فراش قاسم شخص ضئيل يوشك أن يكون شبحاً ، فانسل من البيت لم يلتفت إلى أحد ولم يلتفت إليه أحد ، وغمس نفسه فى ظلمة الليل وجعل يمضى فيها متباطئاً وإن أراد الاسراع ، متثاقلا وإن كان فى نفسه خفيفاً . مضى أمامه لا يرفع رأسه إلى السماء ، ولا يلتفت إلى يمين ولا إلى شمال ، قد نفذت ظلمة الليل إلى نفسه فأصبح ضميره تخمة قاتمة ليس لها حظ من صفاء ، وقد نفذ سكون الليل إلى قلبه فلم يتردد فيه صدى ، ولم تخطر له الآية الكريمة : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب » ، ولم يشعر فى الوقت نفسه بشىء من خوف لأنه قد استحال كله خوفاً .

وقد تجاوز المسجد فى طريقه إلى النهر ، وأقبل أمامه من الشرق ضوء الفجر ضئيلا يمتد طولا وينبسط عرضاً ، وأقبل وراءه من المسجد صوت المؤذن ضئيلا يمتد طولا وينبسط عرضاً ، وامتلأ الجو من حوله ضياء يوقظ الأشياء وغناء يوقظ الأحياء ويدعو الناس إلى الصلاة . ولكن قاسما لم ير ضياء ولم يسمع غناء ، قد أظلمت عيناه وسُدّتْ أذناه ، ومضى أمامه كأنه السهم الكليل الفاتر تدفعه قوة كليلة فاترة ، وجعل يمضى أمامه ويمضى مترفقاً ، حتى أحس أنه يخطو فى فراغ ، ثم أحس برداً يأخذه من جميع أقطاره ، ثم لم يحس شيئاً ، ولم يحسه شىء ، وإنما مضى إلى الغيب كما تمضى فى كل لحظة أشياء كثيرة إلى الغيب .

وما من شك فى أن الشمس قد أشرقت بعد ذلك بنور ربها ، وفى أن المدينة امتلأت حياة ونشاطاً ، وفى أن الناس اضطربوا فى أعمالهم بما يضطرب فى قلوبهم من نزعات الخير والشر ، وفى أن أمونة وابنتها قد انتظرتا أن يعود إليهما قاسم كما تعودتا أن تنتظرا كلما سعى إلى النهر من آخر الليل . ولكنهما أطالتا الانتظار ، ولم تظفرا منه بشىء .

وقد يحب القارىء أن يعرف كيف عبث بهما الأمل ، وكيف بطش بهما اليأس ، وكيف لعبت بهما صروف الأيام . ولكن القارىء ليس فى حاجة إلى أن أقص عليه هذه الخطوب ؛ فأيسر شىء عليه أن ينظر إلى هذه الحياة الصاخبة من حوله فسيرى فيها « أمونات » و « سكينات » كثيرات لا يحصين بالمئات

ولا بالألوف ، وإنما يحصين بمئات الألوف وقد يحصين بالملايين ، تطلع الشمس عليهن فى كل يوم مشرقة بنور ربها ، ولكنها لاتحمل إليهن رضا ولا غبطة ولا أملا فى الرضا أو الغبطة ، ويقبل الليل عليهن مظلماً قاتم الظلمة يزدان بهذا القمر فى أطواره المختلفة ، ويزدان بنقط النور هذه التى تنتثر فى السماء ولكنه لايحمل إليهن راحة ، ولا أملا فى الراحة وإنما يدفعهم إلى نوم ثقيل بغيض كريه يشقين فيه بأحلام بغيضة تصور ما يشقين به فى النهار من حياة بغيضة لا تحفل الشمس بهن حين تطلع ولا يحفل الليل بهن حين يقبل . ومتى حفل الليل والنهار ببؤس البائسين ونعيم الناعمين ! ولكن الغريب أن الأحياء من الناس الذين أتيحت لهم قلوب تشعر ، وعقول تفكر ، ونفوس تميز بين الخير والشر ، ونعيم كان خليقاً أن يلفتهم إلى جحيم البؤس ، هؤلاء الناس يمضون حياتهم كما يمضى الليل والنهار إلى غايتهما ، لايحفلون بأمونة ولا بسكينة ولا بقاسم ، شغلتهم أنفسهم عن كل شىء وعن كل إنسان .

طه حسين

الانتداب والوصاية والاستعمار

لعل الحركة الاستعمارية الحديثة ، التى أثرت فى النظام السياسى للعالم الذى نعيش فيه اليوم ، أبلغ التأثير ، هى أحق الظاهرات السياسية بأن تنعم النظر فيها ، وأن ندرسها دراسة عميقة . فليس فى ميدان السياسة العالمية اليوم حقيقة أظهر أو أبرز من ظاهرة الاستعمار ، التى بات من نتائجها أن قسمت الأرض إلى ثلاثة أقسام : بلاد مالكة ، وبلاد مملوكة ، وبلاد « مستقلة » ليست بمالكة ولا مملوكة . وربما أضيف إليها نوع رابع ، ليس بمالك ولا مملوك ولكنه فى حالة وسط . وهو على الأرجح من الأمثلة القليلة التى يمكن أن يقال فيها : « شر الأمور الوسط » .

معنى الاستعمار

وجدير بنا — ونحن فى سبيل دراسة هذه الظاهرة دراسة دقيقة — أن نبدأ بتعريفها ، وتحديد معناها . ولقد يخطر لأحدنا أن يبدأ دراسته لمعنى الاستعمار بمراجعة المعاجم أو كتب اللغة أو دوائر المعارف . ولكن الباحث فى هذه الأسفار لن يؤوب حتى بخفى حنين . فإن فى لسان العرب مثلا عشر صفحات فى مادة « عمر » ، ولم يرد فيها حتى كلمة الاستعمار . ودائرة المعارف البريطانية خالية من مادة إمپريالزم ، كمادة مستقلة ومن أية مادة أخرى فى هذا المعنى . وقد اشتقت الكلمة العربية فى شىء من التفاؤل من مادة « العمر » و « العمران » . ولم يدر بخلد الواضعين لهذه الكلمة أن سيجر هذا العمران المزعوم إلى شر أنواع التخريب والتدمير .

وبديهى أن من العبث أن نرجع إلى أسفار اللغة فى تعريف معنى الاستعمار ؛ لأن هذا لفظ اصطلاحى بحت ، وإن لم يكن من الألفاظ التى أصبح معناها مقررا محددا لدى جميع الكتاب . وقد استخدم هذا اللفظ بعض الكتاب فى

معنى يختلف عما أراده الآخر . وعلى سبيل المثال أسوق هنا مثلا مقتبسا من أحد الكتّاب المتعصبين للاستعمار والمستعمرين . ولا بد لى أن أورد هذا النص باللغة الأصلية — لفائدة الذين يعرفون الانجليزية من القراء — قبل أن أحاول ترجمته للعربية :

« Imperialism is Nationalism transfigured by a light from the aspirations of universal humanity ». (1)

ومن الممكن أن نحاول ترجمته إلى العربية فيما يلى :

« الحركة الاستعمارية هى الحركة الوطنية تحولت صورتها بتأثير ضياء من أمانى البشرية العالمية . . . »

وعلى الرغم من أن هذه العبارة ليست واضحة المعنى تماما ، فإن من الممكن أن يستخلص منها القارئ بعض المعانى التى تدور بخلد فلاسفة الاستعمار ، الذين أخذوا على عاتقهم تفسير مظاهره وتبرير سياسته أمام الناس .

وإذا أراد القارئ أن يطالع اشارة أخرى إلى الاستعمار من كاتب فرنسى لبق رشيق فانى أسوق إليه العبارة الآتية المقتبسة من كتاب منتسكيو المشهور « روح القوانين » :

« Si j'avais à soutenir le droit que nous avons eu de rendre les nègres esclaves, voici ce que je dirais:

Les peuples d'Europe ayant exterminé ceux de l'Amérique, ils ont dû mettre en esclavage ceux de l'Afrique, pour s'en servir à défricher tant de terres.

...Ceux dont il s'agit sont noirs depuis les pieds jusqu'à la tête; et ils ont le nez si écrasé qu'il est presque impossible de les plaindre.

On ne peut se mettre dans l'idée que Dieu, qui est un être très sage, ait mis une âme, surtout une âme bonne, dans un corps tout noir ».

De l'Esprit des Lois, Livre XV, Chap. V.

---

(1) ص ١٣ من كتاب الأستاذ كرامب Cramb ، وعنوانه : *Origin and Destiny of Imperial Britain.*

« إذا طلب منى أن أدافع عن حقنا المكتسب لاتخاذ الزنوج عبيداً ، فإنى أقول : إن شعوب أوربا ، بعد أن أفنت سكان أمريكا الأصليين ، لم تر بدًّا من أن تستعبد شعوب إفريقية لكى تستخدمها فى استغلال كل هذه الأقطار الفسيحة . والشعوب المذكورة ما هى إلا جماعات سوداء البشرة من أخمص القدم إلى قمة الرأس . وأنفها أفطس فطساً شنيعاً ، بحيث يكاد أن يكون من المستحيل أن نرثى لها . ولا يمكن للمرء أن يتصور أن الله سبحانه وتعالى ، وهو ذو الحكمة السامية ، قد وضع روحاً — وعلى الأخص روحاً طيبة — فى داخل جسم حالك السواد ... »

وفى وسعنا أن نذكر أمثلة أخرى لتعريف الاستعمار . ولكن القارئ سيجد هذه الأمثلة مختلفة اختلاف نزعات الكتاب ، وميلهم إلى تمجيده وتعظيمه ، أو للسخرية منه . وهى لذلك قليلة الفائدة من الوجهة العلمية الخالصة . ومن المفيد ألا نمر بعبارة منتسكيو هذه دون أن نشير إلى أنها ليست مبنية على مجرد السخرية . فإن الإشارة إلى أن الشعوب السوداء أو الحمراء لا روح لها قد كانت مظهراً من مظاهر الاستعمار الأوربى الحديث فى أوائل عهده . ورجال الدين أنفسهم لم يتورعوا عن مثل هذه النزعات . وقد كان قادة الدين فى مراحل الاستعمار الأولى بأمريكا الشمالية ، يشيرون إلى الهنود الحمر بأنهم من سلالة الشيطان . وكانوا يأمرون بالقضاء عليهم بمختلف الوسائل . وكان من هذه الوسائل أن تنشر بينهم الأمراض الجديدة التى ليس للأمريكيين الأصليين تلك المنعة منها التى اكتسبتها شعوب العالم القديم . ومن أهمها مرض الحصباء ، فكانوا يوصون بأن يمكَّنَ الهنود الأمريكيون من الاستيلاء على الأغطية (البطاطين) التى كان يتغطى بها المرضى المصابون بالحصباء . وكانوا يرون أن هذا الإجراء مما يتفق تماماً مع الدين .

وصفوة القول أننا فى حاجة لأن نعرِّف لفظ الاستعمار تعريفاً سهلاً واضحاً ، تيسيراً لدراستنا هذه ؛ فالاستعمار المقصود هنا هو العمل — أو مجموعة الأعمال — التى من شأنها السيطرة أو بسط النفوذ بواسطة دولة — أو جماعة منظمة من الناس — على مساحة من الأرض لم تكن تابعة لهم ، أو على سكان تلك الأرض ، أو على الأرض والسكان فى آن واحد . وهذا التعريف كاف — فيما يخيل لى —

لأن يشمل جميع أنواع الاستعمار ، قديمه وحديثه . وهو تعريف طويل ، ولكن ليس من السهل أن نأتى بتعريف واضح وموجز لظاهرة بعيدة عن البساطة والسهولة . . ولا بد لنا ، لكى نظهر ما اشتمل عليه هـذا التعريف من المعانى ، أن نتبعه ببعض ملاحظات تفسره وتبرز منه بعض النواحى التى لا تبدو واضحة لأول وهلة وضوحاً كافياً .

١ — فالأعمال المشار إليها قد يكون منها استخدام القوة الحربية ، وهذا هو ما يحدث غالباً . وقد تحدث السيطرة على أرض بشرائها ، كما اشترت الولايات المتحدة ألسكا من روسيا ، أو تحدث بمزيج من استخدام القوة والشراء ، كما اشتريت جزر الفلبين من أسبانيا . أو قد تحدث السيطرة برضا الدولة المختصة ، كما حصلت بريطانيا على جزيرة قبرص من الدولة العثمانية ، فى مقابل خدمات خاصة .

٢ — وعبارة السيطرة أو بسط النفوذ ، تفيد أنه ليس من الضرورى ان يكون الاستعمار سافراً بحيث تتسلط الدولة على جميع مرافق البلاد ، بل يكفى أن يكون لها نفوذ سياسى ، تنفرد به دون سائر الدول ، وتقيد به حرية البلاد التى يبسط عليها ذلك النفوذ . وعلى سبيل المثال نذكر أن إيطاليا كان لها نفوذ سياسى على ألبانيا لغاية شهر أبريل سنة ١٩٣٩ ثم تسلطت عليها بعد ذلك تسلطاً تاما ، فانقلبت الحال من استعمار خفيف إلى استعمار ثقيل .

٣ — والنص على الدولة أو جماعة منظمة من الناس ، أريد به ان يشمل الاستعمار تلك الشركات التى تألفت فى العصور الحديثة ، مثـل شركة الهند الشرقية ، وشركة إفريقية الشرقية ، وقامت بأعمال استعمارية عنيفة وتسلطت على مرافق البلاد الأجنبية دون أن يكون للدولة شأن فى ذلك سوى الإذن بتأليف الشركة .

٤ — والإشارة إلى أن التسلط قد يقع على الأرض فقط ، فهذا هو ما يحدث فى بلاد خاليـة من السكان ، أو فى حكم الخالية من السكان ، والمستعمرات اليونانية القديمة خير مثال لهـذا النوع . ومن الأمثلة الحديثة استيلاء البريطانيين على جزيرة سانت هيلانه مثلا . وربما أمكننا بشىء من التجاوز أن نعد استيلاء الأوربيين على أمريكا الشمالية من هذا النوع ، على الرغم من وجود عدد قليل من السكان الأصليين .

أما أن السيطرة قد تقع على السكان دون الأرض ، فذلك يكون بترك الأرض ومرافقها لسكانها الأصليين ، فلا تغتصب منهم ولا يكلفون الجلاء عنها . ولإيضاح هذه الناحية نذكر مثالا وهو شرق إفريقية (مستعمرة كينيا مثلا) حيث يتسلط المستعمرون على الأرض والسكان . وأما غرب أفريقية ، فقد سمح للسكان الأصليين بالاحتفاظ بأرضهم . والسبب فى ذلك أن أرض شرق إفريقية المرتفعة تصلح لسكنى الأوربيين ، وأرض إفريقية الغربية منخفضة شديدة الحرارة لا تلائم سكنى المستعمرين .

٥ — وقد يبدو للقارئ أن يتساءل : هل يدخل فى هذا التعريف النفوذ الاقتصادى أو الثقافى ؟ وهل من الاستعمار مثلا أن تنشئ دولة أو رعاياها المعاهد العلمية ، أو أن ينشئوا شركات اقتصادية ؟ وهذا أمر قد تختلف فيه الآراء . وقد تبلغ النعرة الوطنية ببعض الناس حد التطرف ، فيتوهمون أن قيام بلجيكا مثلا بانشاء شركة الترام أو شركة هليوبوليس ، أو دخول رأس المال الأجنبى فى أية صورة من الصور ، هو ضرب من الاستعمار ، حتى لو أدى إلى استخدام آلاف من الأيدى العاملة الوطنية . والصواب فى هذا وفى أمثاله أن المشروعات الثقافية والاقتصادية ليست من الاستعمار فى شيء ، ما لم تكن سبباً أو نتيجة لنفوذ سياسى . وقد استخدم رأس المال الأجنبى فى إنشاء السكك الحديدية فى الولايات المتحدة وفى غيرها من الأقطار الأمريكية ، ومع ذلك لم يترتب عليه أى نفوذ سياسى ، كما أنه لم يكن نتيجة لأى تسلط سياسى أجنبى . وفرنسا كثيراً ما تنشئ المعاهد الثقافية فى بعض البلاد الأمريكية دون أن يكون لهذا أى مظهر من مظاهر الاستعمار . أما إذا أرادت فرنسا أن تجعل من وجود بعثات علمية أو دينية ذريعة تتذرع بها لبسط سلطانها السياسى فى قطر من الأقطار ، أو لاحتلاله احتلالا عسكريا ، فهذا بالطبع عمل استعمارى ، ومثله كمثل الخير الذى يراد به شر . فالبعثات العلمية والمشروعات الاقتصادية ليست فى ذاتها عملا استعماريا ، ولكن التدخل فى شئون القطر والتسلط على حكومته ، هو العمل الاستعمارى . ومن الواجب أن نفرق بين ظاهرة الاستعمار ، وبين الذرائع التى يتذرع بها للقيام بعمل استعمارى . وسيرى القارئ فيما يلى أن دول الاستعمار لن تعوزها الذرائع ، للقيام بأعمالها الاستعمارية . بل إنها كثيراً ما تخلق هذه الذرائع وتوجدها من العدم .

الاستعمار القديم والحديث

من الواضح أن الاستعمار فى حدود التعريف الذى شرحناه، ليس بالشىء الجديد. وسواء أكان الغرض من الاستعمار احتلال أقطار جديدة خالية أو شبه خالية من السكان، أو كان الغرض منه توسيع رقعة الدولة بالاستيلاء على أقطار عامرة بالسكان، فاننا نجد أمثلة لهذين النوعين فى العهود البشرية القديمة. فقد أسس الفونيقيون مستعمرات مختلفة فى البحر الأبيض المتوسط، وأنشأ اليونان مستعمرات عدة فى سواحل الأناضول والبحر الأسود ومضيق البسفور، وفى صقلية وعلى سواحل فرنسا وأسبانيا. وهى تشبه فى كثير من الوجوه استعمار البريطانيين لأمريكا الشمالية: الولايات المتحدة وكندا ولأستراليا وزيلندة الجديدة.

وقد شهد العالم القديم إنشاء دول ضخمة مثل إمبراطورية بابل وإيران وآشور، ومثل الدولة الرومانية العظيمة. وفى العصور الوسطى قامت الدولة العربية واتسعت رقعتها حتى شملت شطراً كبيراً من العالم القديم. كما أنشأ المغول دولا عدة فى شرق آسيا وغربها، بل لقد بلغ نفوذهم قلب القارة الأوربية نفسها.

وهنالك فروق جوهرية بين ضروب الاستعمار القديم والحديث. وسنرى فيما يلى أن الطراز القديم ليس مقصوراً على العصور التاريخية القديمة والوسطى، بل إن هذا الطراز ينطبق أيضاً فى العصور الحديثة على الدولة الضخمة القصيرة العمر التى أسسها نابليون بونابرت. وسنحاول فيما يلى إظهار تلك الفروق الأساسية بين الطرازين القديم والحديث.

١ — لم يكن الاستعمار فى العهود القديمة عملا تقوم به الدول ذات الحضارة المتقدمة وحدها، بل كثيراً ما كان المستعمرون قبائل أو جماعات أقرب إلى الوحشية، ولكن لهم من القوة الحربية والنظام ما مكنهم من السيطرة على أقاليم سكانها ذوو حضارة ممتازة. أما الدول الاستعمارية اليوم فإنها بوجه عام دول قد ضربت فى الحضارة بسهم، وقد وجهت أعمالها الاستعمارية نحو بلاد فى حالة ضعف سياسى، أو تأخر اقتصادى وثقافى. وليس فى العالم اليوم شعوب

وحشية يخشى من غاراتها الاستعمارية كما حدث من إغارات المغول على دولة الصين والدولة الرومانية ، وعلى الدولة العربية . والعدوان الاستعمارى اليوم مقصود على الأقطار المتمدنة ، التى بلغت الشأو الأعلى فى التطور السياسى والمالى والحربى .

٢ — إن التوسع الاستعمارى الحديث قد شمل العالم كله ، ولم تعد المسافات الشاسعة ، ولا المحيطات الواسعة عائقاً يحول دون امتداد مخالب الاستعمار إلى قلب القارات ، وإلى الأقطار الواقعة وراء البحار . ولم يبق ركن من سطح الأرض فى مأمن من أن تناله يد الاستعمار . والفضل فى هذا يرجع إلى الكشف عن جميع الأقطار المجهولة ، وإلى سهولة الانتقال وسرعته بواسطة المخترعات الحديثة .

٣ — هذا وقد ترتب على هذا التوسع فى الميدان الاستعمارى ، أن أصبحت الدول الحديثة عبارة عن أقطار مبعثرة فى أركان الأرض ، لا كتلة مندمجة ، كما كانت الدول القديمة ؛ فأصبحنا نرى أن دولة مثل البرتغال تسيطر على مساحات واسعة فى إفريقية الشرقية والغربية ، وعلى مساحات أقل منها فى الهند وفى جزر الهند الشرقية . ومثل هذا يقال عن هولندة ، التى تسيطر على مساحات عظيمة فى آسيا وأمريكا . وهذه الظاهرة أكثر وضوحاً بالطبع فى الدول الاستعمارية الكبرى مثل بريطانيا وفرنسا .

أما الإمبراطوريات القديمة فكانت تسيطر على مساحة كبيرة من سطح الأرض ، ولكنها تشتمل على أجزاء متجاورة متلاصقة . والدولة الرومانية نفسها ، على الرغم من اشتمالها على أقاليم موزعة فى ثلاث قارات ، فانها كانت كلها مركزة حول البحر الأبيض المتوسط . والدولة الوحيدة فى عصرنا هذا التى تشبه الإمبراطوريات القديمة هى الدولة الروسية ، التى كان انتشارها دائماً بواسطة التوسع البرى .

٤ — ويلحق بهذه الظاهرة — تقارب وتجاور الأقطار — أن العناصر الجنسية التى كانت تتألف منها الدول القديمة كانت أكثر تجانساً وتشابها . ولذلك أمكن على مدى الزمن أن يحدث بينها نوع من الاتحاد والاندماج . فالدولة الرومانية على الرغم من اشتمالها على عناصر من الاسبان والجول (أجداد الفرنسيين) واليونان والعرب والبربر ، فانها كانت أكثر انسجاماً فى تكوينها

من أية دولة استعمارية نعرفها اليوم . وهذه الشعوب كلها فى نظر علم الأجناس تنتمى إلى سلالات بشرية ليس بينها اختلاف كبير . أما الإمبراطورية الحديثة فإنها تشتمل على جميع الأجناس والألوان فى جميع مراتب الحضارة المختلفة .

٥ — ولعل أهم الفروق بين الاستعمار القديم والحديث ، هو أن التوسع القديم كان من عمل الحاكم الأعلى للدولة ، سواء أكان ملكا أم سلطاناً أم عاهلا أم قيصراً . وذلك من أجل زيادة مملكته ورعيته وتوسيع نطاق دولته ، فيعلو بذلك شأنه وشأن أسرته ، وشأن الطبقة الحاكمة التى تؤازره وتؤيده .

وكانت الشعوب التى تدخل تحت حكم العاهل الجديد تنضم بهذه الطريقة إلى مجموعة شعوب الإمبراطورية ، وتشاطرها حظها من الشقاء أو السعادة والنظام أو الفوضى ؛ فتغتبط إذا كان الحكم صالحاً ، وتتألم من مفاسده وشروره . ولم تكن هنالك تلك الروح القومية التى تجعل الناس يحسون أنهم تابعون لسلطان أجنبى .

فالدولة الرومانية أسستها روما . ولكنها لم تلبث أن اشترك فى أعمالها شعوب كثيرة غير سكان روما وإيطاليا . ولقد تولى حكم الدولة الرومانية قياصرة من أصل أسبانى فى بعض العهود ، دون أن يبدو للناس أن فى هذا الإجراء شذوذاً .

وكذلك الدولة العربية قد بسطت سلطانها على المشرق والمغرب . فكان للعرب فى بداية عهدها بعض المزايا على سائر الشعوب ، ولكن لم تلبث سائر العناصر أن اشتركت فى الحكم ، وفى نشر الثقافة العربية ، وفى جميع نواحى النشاط المختلفة .

أما الاستعمار الحديث فانه ليس من صنع ملك يريد أن يستكثر من الرعية ، بل الاستعمار اليوم من عمل الشعوب نفسها . فصاحب الشأن هو الشعب البريطانى أو الشعب الفرنسى أو الشعب الهولندى ؛ ولذلك كثيراً ما نسمع الواحد من أبناء تلك الشعوب يتحدث عن مستعمراته وممتلكاته فى شىء من الزهو والخيلاء .

ومن الظاهرات الغريبة فى الاستعمار الحديث أنه ليس من الضرورى أن تقوم به الدولة بنفسها ، بل كثيراً ما تولى الأفراد — فى صورة شركة — جميع أعمال الاستعمار ، كما ذكرنا من قبل ؛ فهم يعدون البعثات العسكرية والسفن والأسلحة اللازمة . ومع أن الغرض الاسمى لتأليف الشركة هو التجارة ، فإن أعمالها لا تقتصر على التجارة ، بل تتناول الفتح والغزو والحكم ، وانتزاع

الأراضى من سكانها ، وتوزيعها على الجنود والأنصار ، وجباية الضرائب ، والفصل فى القضايا . أى إن الشركة كانت دولة حاكمة مستعمرة بكل معانى الحكم وكل مظاهر الاستعمار .

وقد تناول الاستعمار بواسطة الشركات أقطاراً عظيمة الأهمية فى القرن السابع عشر ، منها الهند ، وجنوب إفريقية وجزر الهند الشرقية . وفى القرن التاسع عشر ألفت شركات عدة لاستعمار القارة الإفريقية ، وقد تم فعلا تسلط جماعات أوربية على مساحات واسعة من تلك القارة فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر . ونضرب على سبيل المثال الشركة التى ألفها سسل رودس ، واستولت على مساحة تزيد على ألف كيلومتر مربع . وشركة إفريقية الشرقية البريطانية ، التى لها « الفضل » فى الاستيلاء على شرق إفريقية وأوغنده . وحتى الملك ليوبولد نفسه لم يرد أن تتولى بلجيكا استعمار الكنجو ، بل أنشأ لذلك هيئة مستقلة سماها « الاتحاد الدولى للاستكشاف ونشر الحضارة فى الكنجو »

« Alliance Internationale pour l'exploration et la civilisation du Congo ».

كان قيام الشركات بهذه المشاريع الاستعمارية ، بدلا من أن تضطلع به به الدولة نفسها ، عملا ملائماً للحكومات كل الملاءمة . فقد استطاعت أن تترك الأفراد يرتكبون ما يشاءون من الفظائع من أجل الفتح والاستيلاء ، ومهما اقترفوا من الإثم والوحشية ، فهم على كل حال أشخاص غير مسئولين . وتستطيع الحكومة فى النهاية أن تقضى بحل الشركة — بعد تمام الفتح والاستيلاء على المستعمرة — وتتولى إدارتها بنفسها بعد أن تمنح الشركة تعويضاً كريماً فى مقابل ما أنفقت من الجهد والمال . وهكذا تجىء الدولة فى صورة المنقذ المخلص للشعب الإفريقى من مخالب الشركة التى سمحت هى بإنشائها ، وبذلت لها غير قليل من المعونة والإرشاد .

وهكذا نرى أن من أهم ما تمتاز به الحركة الاستعمارية الجديدة أن الدولة لا تنهض بأعمال الاستعمار وحدها ، بل قد يسبقها أو يشاركها أفراد من الرعية والنظام الديمقراطى يجعل الشعب هو المرجع الأول فى سياسة الدولة ، ولذلك لابد للدول أن تحصل على تأييد شعبها فى سياستها الاستعمارية . ولابد لها من تربية العقلية الاستعمارية لدى جميع أفراد الشعب بقدر الإمكان .

أسباب الاستعمار

من أهم مزايا الاستعمار الحديث أن له كتاباً وفلاسفة يدافعون عنه ويشرحون أغراضه ومراميه. أما الغزاة الفاتحون من القدماء، فقلما رأوا ما يدعو لتبرير سياستهم وشرح الأسباب التى تدعوهم إلى التوسع والتسلط على أقطار جديدة، اللهم إلا إذا استثنينا أحوالا قليلة كان فيها بعض الالتجاء إلى ذكر مبررات للغزو، مثل الحروب الصليبية والدينية، أما فيما عدا ذلك، فقد كان العاهل العظيم يرى من حقه أن يغزو ويستولى، استجابة لباعث لاحاجة به إلى تفسيره أو تبريره؛ أما دعاة الاستعمار اليوم فلهم مذاهب وأقوال كثيرة:

١ — من الجائز أننا إذا فتشنا ضمائر الاستعماريين اليوم، لم نجد أسبابا أو دوافع حقيقية تدعوهم إلى انتهاج الخطط الاستعمارية؛ وإنما هو مجرد غريزة الاستيلاء وشهوة السيطرة، تحرك الدول اليوم كما كانت تحرك الملوك القدماء. وهنالك عدد من الكتاب قد ذكروا مبررات للاستعمار لاتختلف كثيراً عما يذكره عاهل قديم مثل جنكيزخان، لو أنه أتيح له أن يفسر أو يبرر سياسته الاستعمارية. فيقول اللورد كرزن مثلا: « إن الهند هى محور عظمتنا، ومقياس مجدنا أو إخفاقنا. ولئن فقدنا الهند ليكونن هذا إيذاناً بغروب شمسنا ». ويقول الكاتب الفرنسى لروابوليو: « إن فرنسا لابد لها من أن تكون دولة إفريقية عظيمة، وإلا فسرعان ماتغدو دولة أوربية من الدرجة الثانية. ولن يكون لها فى العالم شأن أعظم كثيراً مما لدولة مثل اليونان ورومانيا. »

فأصحاب هذا المذهب يرون أن الدولة لن يكون لها شأن أخطر إلا بالتوسع والاستعمار. ومثل هذا المذهب هو الذى اعتنقه النازيون بعد ذلك وابتكروا له كلمة جديدة فقالوا إن شعبهم لابد له من شىء اسمه Lebensraum أى مجال حيوى، يشتمل على بلاده وبلاد غيره. وذهب الغلاة منهم إلى أن هذا المجال الحيوى ذو مرونة عظيمة بحيث يجوز أن يشمل العالم كله. « اليوم لنا ألمانيا. وغدا العالم كله! ».

٢ — المذهب الاستعمارى الثانى — وله بعض الارتباط بهذا المذهب الأول — ينادى بأن الدولة صاحبة الشأن لها «رسالة عالمية مقدسة» لابد لها أن

تنشرها وتبثها بين الشعوب ، ألا وهى رسالة المدنية والحضارة ، رسالة تقضى عليها بأن تبذل وتضحى لرفع مستوى الشعوب والأمم . وليس الفتح والغزو غاية بل وسيلة لإعلاء البشرية والسمو بها إلى آفاق العزة والكرامة والحرية .

وقد وصف أصحاب هذا المذهب تلك الرسالة التى تؤديها الشعوب الأوربية بأنها « عبء الجنس الأبيض » *The White Man's Burden* . وهو عبء ثقيل فادح ، ولكنه محبب إلى تلك النفوس الاستعمارية ، التى جعلت هدفها رفع شأن بنى الانسان فى كل مكان . . .

ونحن الذين نشاهد أعمال الاستعماريين عن كثب ، قد نسخر من هذه الأقوال أو نراها ضرباً من الهذيان أو من النفاق ؛ ولكن هنالك من غير شك أشخاص يدلون بهذه الأقوال عن عقيدة وإيمان ، ويتبعهم عدد غير قليل من الناس فى كل دولة استعمارية . وقد يكون عدد هؤلاء الناس كبيراً فى بعض البلاد صاحبة المستعمرات ، فتضطر إلى أن تلطف من حدة سياستها الاستعمارية .

٣ — بعد هذا الطراز الاستعمارى ، الذى ينشد ما يتوهمه المثل الأعلى ، يجىء طراز آخر من نوع لا شك أنه شرير ، وهو المذهب الذى ينادى بضرورة الاستيلاء على أقطار جديدة لسكنى رعاياه وإقامتهم ، مع أن فى تلك الأقطار سكانها الأصليين الذين استوطنوها منذ قرون عدة . إن الحكومات الاستعمارية التى من هذا الطراز تنادى بأن شعبها آخذ فى الازدياد ، وأنه لابد له من أراض جديدة يعيش فيها ، وأن جميع اعتبارات العدل والإنسانية لا قيمة لها أمام هذه الحاجة الملحة فى نظرهم .

ومن الغريب أن كثيراً من البسطاء القليلى العلم والتفكير ، فى بلاد عدة ، قد انخدعوا بهذه الدعاية وتوهموا أن مثل هذا التوسع أمر لا مفر منه ، وأن الدول التى تنشده لها العذر كله أو بعضه . وقد كثر التضليل فى هذا الموضوع حتى بات من الصعب على الناس أن يدركوا ما انطوت عليه تلك السياسة من الكذب والرياء .

وحينما نسمع الدعاة الفاشستيين يتصايحون بأن الشعب الإيطالى لا بد له من المستعمرات لفسح المجال لسكانه المتزايدين ، يتوهم بعضنا — بل كثير منا — أنهم على صواب فيما يزعمون . ولكى يظهر بهتان هذه الدعاية يجب علينا أن نذكر :

أولا — أن هنالك شعوبا أخرى قد ضاقت بها بلادها ، فوجدوا فى العالم الجديد ميداناً للمهاجرة والاستقرار . ذلك ما فعله الشعب الايرلندى ، والشعوب الاسكندناوية ، وشعوب البلقان ، وسوريا ، بل الشعب الايطالى نفسه . فقد استطاعت الملايين من أبناء هذه الشعوب النزوح إلى القارة الأمريكية وغيرها حيث يعيشون اليوم فى الجمهوريات الجديدة ويعملون فيها كعنصر نافع من رعاياها .

ثانياً — أن الدعاية الفاشية قد اشتدت فى طلب المستعمرات فى الوقت الذى أخذ فيه نمو السكان يتناقص فى إيطاليا نفسها بدرجة واضحة ملموسة .

فليس طلب المستعمرات إذن نتيجة لازدحام السكان فى إيطاليا ، لأن الهجرة إلى أمريكا قد خففت من ذلك الازدحام تخفيفاً واضحاً . ولكن الذى تبغيه الحكومة الاستعمارية هو أن يهاجر رعاياها إلى أقطار تملكها وتسيطر عليها ، مع أنها قد لا تتسع إلا لعدد محدود جداً من المهاجرين ، كما حدث فعلا فى ليبيا وبلاد الحبشة وأرتريا . فان العنصر الإيطالى المهاجر إلى مختلف المستعمرات الإفريقية تافه جداً إذا قورن بالجاليات الإيطالية الهائلة فى الولايات المتحدة والبرازيل والأرجنتين وغيرها من بلاد العالم الجديد .

فالمطالبة بمستعمرات للسكان المتزايدين لم يكن فى أى وقت من الأوقات سوى ضرب من النفاق السياسى وستار زائف للمطامع الاستعمارية ، التى تلتمس المبررات من أى نوع كانت .

٤ — الطراز الرابع من الاستعمار هو الذى نعرفه نحن سكان مصر خير المعرفة ؛ لأننا قد اضطررنا لأن نسمع صوته يتردد من حين لحين ، ذلك هو الطراز الحربى أو الدفاعى . وأصحاب هذا المذهب يرون أنه لابد لهم من التسلط على قطر أو عدد من الأقطار لضرورات عسكرية ، أو لأن الموقع الحربى لهذا الاقليم أو ذاك هو من الخطر ، بحيث لا بد لهم أن يضمنوا سلامته من كل عدوان .

وهذه الأقاليم ذات الأهمية العسكرية تنقسم إلى أنواع : فمنها الأقطار المتاخمة لحدود الدولة والتى ترى أنها لازمة للدفاع عن أرضها ، مثل التيرول الجنوبى الذى اقتطعته إيطاليا من بلاد النمسا لكى تحمى أرضها وتدافع عنها من الناحية الشمالية . والأراضى الفنلندية التى استولت عليها روسيا لتحسين دفاعها عن الأقاليم الشمالية الغربية .

ومنها الجهات التى تعترض خطوط المواصلات الإمبراطورية ، مثل جبل طارق ومالطة وقناة السويس وعدن وسنغافورة ، وپنما بالنسبة للولايات المتحدة . فهذه الجهات كلها فى نظر الدول الاستعمارية لا بد من بسط النفوذ عليها لضمان سلامة المواصلات فى وقت الحرب . وعلى الرغم من أن هذه المواصلات قد تعطلت تماما فى أثناء الحرب العالمية الأولى والثانية ، فان هؤلاء الاستعماريين لا يزالون متمسكين بهذه الحجة .

وأخيراً هنالك أقطار لا علاقة لها بطرق المواصلات ، ولكنها يخشى عليها إذا وقعت فى أيد معادية أن تهدد تلك المواصلات ، مثل جزيرة قبرص وبعض البلاد الواقعة على الخليج الفارسى . فهذه كلها بعيدة عن الطرق البحرية ، ولكن التسلط عليها ضرورى لكى لاتقع فى أيد أخرى معادية .

٥ — الطراز الخامس والأخير من الاستعمار هو الذى أطلق عليه الاستعمار الاقتصادى ، أى طلب المستعمرات وحيازتها ، لكى تكون ميداناً لكسب المال وجمعه بمختلف الطرق بواسطة شركات رأسمالية . وكثير من الكتّاب يرى أن هذه الصبغة النفعية هى الغالبة على الحركة الاستعمارية الحديثة ، وأن رجال المال هم بوجه خاص الذين دفعوا الدول نحو التوسع الحديث ، وهم السبب الأول فى ذلك التسابق والتكالب على الاستعمار الذى شهدناه فى السبعين عاماً الماضية . إن هؤلاء الرجال لهم بالطبع نفوذ كبير فى الدولة ، وهم لا يتورعون عن استخدام هذا النفوذ لجمع الثروة وجنى الأرباح الطائلة . والمشروعات التى يمارسونها ، إما تجارية ، أى إنهم يجعلون من المستعمرات ميداناً لتصريف البضائع والسلع ، أو زراعية بانشاء مزارع واسعة لغلات الأقاليم الحارة مثل المطاط والقطن ، أومعدنية للبحث عن الثروة المعدنية واستغلالها .

هذه هى المذاهب الاستعمارية الرئيسية ، التى حاول دعاة الاستعمار أن يعبروا عنها ويشرحوها ويدعوا لها ويدافعوا عنها .

تكاليف الاستعمار

حاول الكاتب الشهير نورمان إنجل أن يثبت فى غير واحد من كتبه أن الاستعمار يكلف الدولة نفقات باهظة ، ولا تجنى من ورائه نفعاً يستحق الذكر ،

وأن الشعب يمون الاستعمار عما يدفعه من الضرائب ، وبما يفقده من أرواح أبنائه دون أن يكون للمستعمرات أقل أثر حقيقى فى تحسين حالة الشعب المادية والأدبية . وقد أورد أرقاماً عدة عما تتكلفه الدولة من الأساطيل الحربية ومن وسائل الدفاع المختلفة ، وأثبت أن ما تجنيه من ربح مستعمراتها لا يتكافأ مع تلك النفقات . وقد تبع نورمان إنجل كتّاب كثيرون فى رأيه هذا . والراجح أن القائمين بحكم الدول الاستعمارية لا يحاولون أن يجعلوا من الاستعمار مشروعا اقتصاديًّا يجب أن تفى إيراداته بنفقاته ؛ لأن هنالك مطامع استعمارية أخرى ، غير مجرد الربح المادى . وهـذا هو ما يدعونا إلى أن نظن أن الاستعمار شهوة فى النفوس تدفع الحكومات إلى اتباع السياسة الاستعمارية سواء أكانت تلك السياسة مؤدية إلى مكسب أو خسارة مادية أو أدبية .

الاستعمار يفسد الحياة الدولية

كان لبعض الدول فى الميدان الاستعمارى مزية السبق ، لأنها دخلت الميدان قبل سواها ، ومن أجل ذلك نرى دولة مثل البرتغال لها مستعمرات عظيمة . ونرى هولندة تمتلك جزر الهند الشرقية كلها تقريبا . ونرى بريطانيا قد استطاعت أن تتسلط على الهند وأقطار أخرى ، قبل أن يتم تكوين ألمانيا وإيطاليا . ثم جاءت الحركة الاستعمارية الحديثة فى القرن التاسع عشر ، فاستولت بريطانيا وفرنسا على نصيب الأسد من القارة الإفريقية ، ودخلت ألمانيا وإيطاليا الميدان متأخرتين فلم تفوزا إلا بنصيب قليل نوعا بالنسبة لألمانيا ونصيب تافه بالنسبة لإيطاليا .

واشتد التنافس الاستعمارى فى العصور الحديثة اشتداداً هائلا ، وأخذت الدول يكيد بعضها لبعض ، وتتنافس فى بناء الأساطيل واتخاذ الأهبة للحرب . ولئن حاول المؤرخون أن يجدوا أسباباً مختلفة للحرب العالمية الأولى والثانية ، فإن من المستحيل أن ننسى أن من أهم تلك الأسباب التنافس الشديد فى الميدان الاستعمارى ، وحرص كل دولة كبيرة على أن تنال ما تدعوه « نصيبها » من التوسع والتملك . فقد جعلت السياسة الاستعمارية شهوة التملك أمراً مألوفا ، كأنه حق من الحقوق المقررة . واستباحت الدول الاستعمارية فى سبيل تحقيق

شهوتها أن ترتكب الزور والإثم ، وتحنث بالأيمان ، وتخون العهود ؛ حتى انحطت الأخلاق الدولية إلى الدرك الأسفل ، وسرى السم فى العلاقات الدولية . فلم تعد الدول تتورع عن ارتكاب العدوان وعن التفنن فى الكذب والرياء .

وصفوة القول أن التكالب على الاستعمار والمستعمرات ، إن لم يكن السبب المباشر فى الحربين ، فانه على الأقل هو السبب فى إفساد العلاقات الدولية ، وفقدان الشعور الإنسانى ؛ وبذلك كان على الأقل سبباً غير مباشر فى هذه الحروب العالمية وفى النكبات الهائلة التى أنزلتها بجميع الشعوب .

وقد أخذت الدول الكبيرة صاحبة المستعمرات بعدذلك تدافع عن قضيتها ، وتزعم أنها ليس لها مطامع استعمارية ولا تسعى وراء مغنم . وعند ما انهزم الأعداء فى الحرب العالمية الأولى والثانية ، تاركين أرضاً وديارا كانت فى حوزتهم ، رأت الدول المنتصرة ألا تضم تلك الأقطار والديار « ضمًا » على الطريقة الاستعمارية القديمة ، وقررت أن تجعل منها بلاداً تحت الانتداب فى المرة الأولى ، وتحت الوصاية فى المرة الثانية .

وسنحاول فى المقال التالى ان نوضح الخصائص الرئيسية لهذين النظامين .

محمد عوض محمد

فى أفق السياسة العالمية

بين تركيا وروسيا

ما فتئت روسيا طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تتحرش بتركيا وتنقم عليها وقوفها عند المضايق وعلى منفذ البحر الأسود تسد فى وجهها طريق الوصول إلى مياه البحر المتوسط الدافئة ، وما زالت تستعدى عليها الشعوب السلافية التى كانت خاضعة لسلطان تركيا وتناصرها سرًّا وعلانية ، حتى توالت على تركيا الثورات والحروب وتعاقبت عليها الهزائم ، وأخذت الولايات المسيحية تنفصل عنها واحدة تلو الأخرى ، وتداعى البنيان حتى أوشك أن ينهار كله وتصبح تركيا أثراً بعد عين ، لولا بقية من حيوية الجندى التركى الباسل ، ولولا دبيب الخلاف بين الدول الكبرى بسبب التنافس على أملاك الدولة . ولقد نشأ من ضعف تركيا وبقائها على هذه الحال اليائسة زماناً ما عُرِف فى التاريخ بالمسألة الشرقية و « الرجل المريض » .

ولو قدِّر للطامعين فى ميراث الرجل المريض أن يتفقوا فيما بينهم على توزيع ذلك الميراث وتحديد مصير المضايق والقسطنطينية ما توانوا لحظة واحدة فى الإجهاز على ذلك المريض ليقتسموا فيما بينهم تركته . وقد سبق فى نهاية القرن الثامن عشر أن آنست روسيا ضعفاً حربياً من بولندة وهى جارتها من الناحية الغربية ورأت فيها تخاذلا شبيهاً بما كان فى تركيا ، فلم تتردد فى الاتفاق مع حليفتيها بروسيا والنمسا على تقطيع أوصال بولندة وتجزئتها مرة وأخرى وثالثة حتى أتين عليها جميعاً ، وانمحت بولندة من خريطة أوربا السياسية .

ولم يكن هناك ما يمنع من أن يكون هذا مصير تركيا أيضاً فى القرن التاسع عشر لولا رحمة من الله أدركت الرجل المريض ؛ فقد ظل الورثة مختلفين بشأنه حتى قامت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ ودخلتها تركيا إلى جانب ألمانيا ، فأيقن الورثة أن تركيا قد حان حينها ، وأن آخرة الرجل المريض قد دنت ، وأنه لاحرج

من تقسيم التركة واعتبار المريض كأنه لا محالة قد مات . ولم يطل اختلاف الورثة بشأن التركة ؛ فقد كانت رحى الحرب تدور طحوناً ، وكان عشرات الآلاف من المحاربين يموتون فى كل يوم ، حتى لقد بدا أن الحرب قد لا تبقى على شئ يستحق أن يورث بعد الحرب ، وأن من صالح الحلفاء أن يتناسوا أحقادهم وأن يتساهلوا فى تقسيم التركة حتى يفرغوا لأنفسهم ويثبتوا جميعاً لقتال العدو المشترك حتى يتغلبوا عليه . ولما كان إعلان معاهدات التقسيم ، والحرب لم تزل قائمة والرجل المريض لم يزل حيًّا يرزق ، مما يجافى أبسط قواعد الحياء ، فقد أحاط الحلفاء مفاوضاتهم بالكتمان وجعلوا اتفاقاتهم سرية حتى لا يظهر عليها أحد إلا بعد كسب الحرب .

وكانت روسيا أولى الدول التى خشى الحلفاء أن ينالها السلم قبل غيرها ، فأرادوا أن يقدموا لها طعماً شهيًّا يستهويها ويجذبها نحو الحلفاء إلى نهاية الحرب ، فعقدوا معها أولى معاهدات التقسيم السرية فى لندن سنة ١٩١٥ وبمقتضاها اتفقت كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا على أن تكون القسطنطينية والمضايق وما يجاورها من أراض من نصيب روسيا بعد الحرب ، وبذلك تتحقق



لروسيا أعز أمانيها السياسية . وفى سبيل كسب الحرب ضحت كل من بريطانيا وفرنسا بما بذلتا من الجهود الدائبة فى أثناء القرن التاسع عشر لمنع الدب الروسى من التوغل جنوباً نحو البحر المتوسط .

وجاءت المعـاهدة الثانية فى مايو سنة ١٩١٦ حين التفت الحلفاء إلى الجانب الشرقى من التركة ، فاتفقوا بمقتضى المعاهدة التى عرفت باسمى المندوبين الانجليزى والفرنسى على التوالى سيكس بيكو Sykes-Picot على أن تأخذ روسيا معظم بلاد أرمينية ، وأن تكون بلاد المشرق تحت نفوذ فرنسا ، وفلسطين والعراق تحت نفوذ بريطانيا . وكملت اتفاقات التقسيم بمعاهدة مع إيطاليا نالت بها جزر الدوديكانيز وأزمير وجزءاً كبيراً من الساحل الغربى للأناضول ، وباتفاق مع الشريف حسين أمير مكة على إعلان الثورة ضد الأتراك وتكوين دولة عربية تضم بلاد العرب وأجزاء أخرى داخلة فى نطاق معاهدة سيكس بيكو .

وبذلك لم يبق للرجل المريض مجال حيوى يعيش فيه حتى يلفظ نفسه الأخير سوى رقعة محدودة فوق هضاب الأناضول أبى كرم الحلفـاء إلا أن يحفظوها له لتكون فيه مقبرة جنسه ومثواه الأخير .

ولـكن عناية الله كانت تلحظ الرجل ، فأدركته الرحمة الإلـهية على يد أقرب الوارثين إليه داراً وألد أعدائه خصومة فى الوقت نفسه وهى روسيا . فى مارس سنة ١٩١٧ والحرب لا تزال فى عنفوانها قامت الثورة البلشفية ، فانسحبت القوات الروسية من الحرب ، وأعلن الثوار أنهم يؤمنون بالتعاون والمساواة بين الشعوب ، ويستنـكرون اغتصاب الأراضى التى ليست لهم ، وفرض الغرامات الحربية ، ولا يقرون المعاهدات السرية ويتبرءون منها ومن شروطها . وكانت نتيجة ذلك أنهم نزلوا عما وُعدوا به بمقتضى معاهدة لندن السرية سنة ١٩١٥ . فلما كسب الحلفاء الحرب فى سنة ١٩١٨ وسارت مواكب النصر فى طريقها إلى القسطنطينية لم تكن روسيا فى الموكب ولم يسمح لها القدر أن ترفع رايتها على معقل الأتراك وحصن الإسلام فى ذلك الوقت ، فقد تألفت لجنة دولية لحراسة المضايق واحتلال القسطنطينية . وتلفت الحلفاء يمينا وشمالا يبحثون عن دولة تصلح للانتداب على هذه المنطقة العظيمة الخطر . فأبت فرنسا أن يكون الانتداب لانجلترا ، وتوجست انجلترا الشر من نيات فرنسا ، وكاد الأمر يستقر على الولايات المتحدة لو لم تجنح أمريكا فى ذلك الوقت إلى سياسة

العزلة الدولية ونبذت سياسة ولسون ومعه ميثاق العصبة والانتدابات . وعلى ذلك لم يكن هناك مفر من بقاء الاحتلال العسكرى والإشراف الدولى على القسطنطينية والمضايق .

وكانت معاهدة « سيفر » المشئومة فى أغسطس سنة ١٩٢٠ وفيها أقر الرجل المريض الوصية التى أعدوها له ، فقداستقل الحجاز وانفصلت الولايات العربية ، وأخذ الإغريق تراقيا وجزر الأرخبيل ، وأخذت إيطاليا جزر الدوديكانيز وجزءاً من آسيا الصغرى ، واستقلت أرمينية وكردستان ، وتسابقت إيطاليا واليونان على أزمير وغربى الأناضول فاحتلتها اليونان بمساعدة الحلفاء ، وظلت اللجنة الدولية التى تمثل الحلفاء تتحكم فى القسطنطينية والمضايق كما تألفت لجنة دولية أخرى للتصرف فى الشؤون المالية .

وبينما الرجل المريض يعالج سكرات الموت وشهادة الوفاة التى سجلت فى سيفر تتناقلها أيدى الحكومات للموافقة عليها ، إذا بروح جديدة تنبعث من جسم الرجل المريض الميت فتتقمص قائداً فذًّا من صباط الجيش التركى فينسل من غرفة الموت ماضياً فى طريقه إلى هضاب الأناضول حيث قرر الحلفاء أن تكون مقبرة الجنس التركى . ومن هذه الهضاب دوّى صوت الثورة الكمالية فى يوم من صيف سنة ١٩١٩ فكأنما نفخ فى الصور ، وكأنه يوم النشور ، فإذا الحياة تدب فى أجسام الموتى وإذا الهزيمة والجوع والعوز تتلاشى أشباحها أمام إرادة أمة قد صممت أن تحيا مستقلة عزيزة الجانب لاسلطان لأجنبى عليها وإن تألبت عليها جميع القوى الغاشمة .

عند ذلك تلاقت الثورة الكمالية فى تركيا والثورة البلشفية فى روسيا ، وإن لم يُقر الترك مبادىء الشيوعية . فكلتا النهضتين كانت بعثاً جديداً لأمة مغلوبة خلقتها خلقاً جديداً ، وكلتاهما قضت على عناصر الرجعية والاستبداد واستعدت لكفاح الأجنبى الذى كان يتمنى جاهداً لو استطاع القضاء على الثورتين . وكان نزول روسيا عن معاهدة لندن السرية فى سنة ١٩١٥ قد بعث الطمأنينة فى نفوس الأتراك الكماليين فتقاربت مساعى الدولتين ، وسرعان ما اعترفت روسيا بحكومة أنقرة الجديدة ، وحل محل العداوة القديمة بين الدولتين عهد صداقة وإخاء توطدت أركانه بعقد معاهدة الصداقة بينهما فى سنة ١٩٢١ إذ اتفق الحليفان على تسوية مسائل الحدود الشرقية بينهما ليفرغا لمواجهة

القوات الأجنبية التى كانت تناوئهما من الغرب ، فاحتفظت تركيا بقارص وأردهان وارتيفان على الحدود الشمالية الشرقية ، كما استردت روسيا باطوم ، وضمت جورجيا وأرمينية إلى جمهوريات السوفيت .

ولما أمن الكماليون على حدودهم من ناحية الشرق سددوا ضرباتهم نحو الأجنبى ، فانجلى الفرنسيون من شرق الأناضول ، وآثر الطليان ألا يزجوا بأنفسهم فى حرب جديدة ، وبقى الإغريق ولا نصير لهم سوى بريطانيا . وكانت الدول المتحالفة قد سرحت جيوشها بعد عقد الصلح ، وكانت الشعوب قد سئمت الحرب واستنكرت محاربة الأتراك وهم فى عقر دارهم . لذلك لم يلق الإغريق من بريطانيا إلا معاونة بحرية لا تكاد تذكر إلى جانب الروح القوية المتدفقة التى كانت تسيطر على الكماليين وظلت تقودهم من نصر إلى نصر حتى دحروا الإغريق فى معركة سقاريا الشهيرة وقذفوا بهم إلى البحر ، فانجلوا عن أزمير والأناضول من غير رجعة بعد أن أشعلوا النار فى المدن والدساكر وكل ما صادفهم فى منحدرهم إلى البحر .

بعد ذلك التفت الكماليون إلى القسطنطينية والمضايق ، وكادوا يهاجمون القوات البريطانية المرابطة بها بعد انسحاب الفرنسيين والطليان لو لم يسارع الحلفاء إلى مواجهة الحقائق ومفاوضة الكماليين فى الصلح . وكان جل أمانى الأتراك أن يمزقوا شهادة الوفاة التى خطتها يد الحلفاء ضد تركيا فى « سيفر » وأن يعلنوا للعالم ميلاد تركيا الجديدة . فقر الرأى على عقد مؤتمر الصلح فى يولية سنة ١٩٢٣ فى « لوزان » البلد المحايد ، لا فى باريس ولا فى لندن .

وفى هذا المؤتمر لم يمل الحلفاء شروطهم كما أملوها على ألمانيا والنمسا فى فرساي وكما اعتادوا أن يملوها على تركيا من قديم . فقد أخذ عصمت باشا ممثل تركيا الجديدة مكانه فى المؤتمر مواجها لورد كيرزون ممثل انجلترا ، وجعل يعرض مطالب تركيا ويرد على اللورد حجة بحجة حتى كسب منه الصلح . ومن العجيب أن يكون «شيين» المولود الجديد فى هذا المؤتمر هو «شيشرين» Chicherin ممثل حكومة السوفييت وهى وإن لم تكن تربطها فى ذلك الوقت بدول الحلفاء صلات سياسية أو اقتصادية قد دعيت لتبدى رأيها فى مناقشة مشكلة المضايق ، فكان ممثلها أقوى نصير لتركيا وكان هو محاميها الأول ضد الحلفاء عامة وضد بريطانيا بصفة خاصة .

وكانت بريطانيا التى ظلت طوال القرن الماضى تناضل عن استقلال تركيا وسلامة كيانها ضد روسيا ، وتنادى فى سبيل هذه الغاية بضرورة التمسك بحق السلطان فى إغلاق المضايق أمام جميع السفن الحربية منعاً لروسيا من التسلل بأساطيلها إلى البحر المتوسط — قد جاءت إلى مؤتمر لوزان تدعو الدول إلى إعلان حرية البحار وحرية الملاحة داخل المضايق، وتطالب إلى تركيا عدم تحصينها ونزع سلاحها لتكون منطقة محايدة حرة للجميع . وظاهر أن هذه النظرية الجديدة لم تكن فى صالح تركيا ولا روسيا . فحيدة المضايق تحرم على تركيا تسليحها وتعرضها لهجوم الأعداء ، كما تيسر هذه الحيدة لبريطانيا وحلفائها اختراق المضايق بأساطيلهم الحربية فى أى وقت يشاءون ، وبذلك تظل روسيا أبداً مهددة بالعدوان .

لذلك ناضلت روسيا بقوة لدحض النظرية الجديدة ولكنها لم تفلح . ولم يسع تركيا إزاء ما كسبته فى لوزان من استرداد أدرنة وتراقيا ومنطقة المضايق وعدم تقييدها بشروط حربية كالتى قيدت بها ألمانيا — لم يسعها أن تسترسل فى معارضة انجلترا ، فوافقت على سياسة الحيدة التى أرادوها للمضايق بعد أن اعترفوا بحقها فى تأمين نفسها بتحصين القسطنطينية وجعلها قاعدة بحرية بها حامية حربية قوتها ١٢,٠٠٠ جندى . وبقيت هذه الحالة قائمة أكثر من اثنتى عشرة سنة استطاعت تركيا فى أثنائها أن تفرغ لتنفيذ برنامج الإصلاح الكمالى الذى خلق من تركيا دولة فتية موطدة الأركان عزيزة الجانب ومن الأتراك شعباً جديداً ناهضاً سرعان ما استرعى العالم بنهضته وحيويته .

ولم تنس تركيا لروسيا مؤازرتها لها فى أيام محنتها ، كما ظلت روسيا تذكر بكل خير صداقة تركيا وانضمامها إلى إيران والأفغان فى معاهدات ودية مع حكومة السوفييت فى الوقت الذى كانت فيه حكومات الغرب تعتبر مجرد التنويه بالبلشفية جريمة لا تغتفر وتآمراً على قلب نظم الحكم يعاقب عليه بالنفى والتشريد .

ولما فرغت كل من تركيا وروسيا من تثبيت قواعد نهضتها الثورية فى بلادها، وبانت ثمرات الإصلاحات الداخلية الشاملة فى البلدين، كانت آثار النظم الفاشية والنازية قد ظهرت واضحة لكل ذى عينين، وبدا للشعوب أن المواثيق والمبادئ

التى أعلنتها عصبة الأمم لن تغنى فتيلا عن الحرب المتوقعة . وأيقن ستالين أن بلاده مستهدفة لعدوان النازية عاجلا أو آجلا إن لم يكن من ناحية هتلر فى الغرب فمن ناحية اليابان فى الشرق ، وقد تنمرت اليابان على الصين واغتصبت منها منشوريا فى سنة ١٩٣١ متحدية فى ذلك عصبة الأمم . وكذلك أيقن كمال أتاتورك أن تركيا معرضة لخطر داهم من ناحية موسولينى والفاشية ، وأن مصلحة البلدين تركيا وروسيا تقضى عليهما بالخروج من العزلة الدولية التى فرضاها على نفسيهما . حتى لقد بلغ الأمر بكمال أتاتورك أن يهجر إسطنبول نهائيًا ويتخذ عاصمته أنقرة ، وحتى لقد كادت الدول تعتبر الدولتين آسيويتين ، وأخيراً نبذت كلتا الدولتين سياسة العزلة .

أما الروسيا فقد ظفرت فى سنة ١٩٣٤ بمكان دائم فى مجلس العصبة ، ثم دخلت مع كل من فرنسا وتشيكوسلوفاكيا فى معاهدة ، وكانوا جميعاً يخشون عدوان ألمانيا على أراضيهم . وبدأ ستالين مشروع السنوات الخمس مرة بعد مرة ، حتى شهد العالم وهو مشدوه مبهوت إحدى معجزات القرن العشرين الاقتصادية حين رأى روسيا تتحول إلى بلاد صناعية تنتج ما تحتاج إليه البلاد حربيًا واقتصاديًا إلى جانب نهضة زراعية اجتماعية وثقافية أصبحت مضرب الأمثال فى مداها وكفايتها ، فكأنما كان ذلك كله فى سرعته سحر ساحر لا مجهود بشر !

وأما تركيا فواصلت نهضتها الصناعية والثقافية أيضاً ، وانتهجت فى سياستها الخارجية خطة مبتكرة ما لبثت أن رفعتها إلى مكان الزعامة بين دول البلقان والشرق الأوسط . وقد بدأت تركيا خطتها هذه بأن عقدت معاهدة صداقة مع الإغريق ، ثم أقنعت دول البلقان بأنه لا فائدة ترجى لهم من الاستناد إلى دولة من الدول الكبرى وأن نضجهم السياسى وحرصهم على عدم الانزلاق فى منحدر المنافسات الدولية يحتمان عليهم أن يعتمدوا على أنفسهم أولاً ، وأن يتحدوا جميعاً ليكونوا صفًا واحداً امام كل عدوان . وعلى أساس هذه الخطة تكوّن اتحاد البلقان سنة ١٩٣٤ ، ولم تشذ سوى ألبانيا وكانت فى سياستها تابعة لإيطاليا ، وبلغاريا وكانت لها مطامع ترمى إلى تحقيقها من وراء عدم التمسك بالحالة القائمة .

ثم التفتت تركيا إلى الشرق الأوسط فوثّقت علاقاتها مع إيران الجديدة وجعلت تسعى بالصلح بين أعضاء الأسرة الشرقية الإسلامية حتى تم تكوين

ميثاق سعد اباد فى سنة ١٩٣٧ بين تركيا والعراق وإيران وأفغانستان على الأسس نفسها التى قام عليها ميثاق البلقان .

ولما شرعت إيطاليا تتحدى العصبة وتعتدى ظلماً على أثيوبيا وتبعتها ألمانيا باحتلال إقليم الرين وتحصينه وإعلان الخدمة الإجبارية مخالفة بذلك نصوص معاهدة ڤرسايل وميثاق لوكارنو ولم تقو العصبة على رد عدوان إيطاليا او كبح النزعات الجامحة فى ألمانيا — انتهزت تركيا الفرصة لتعديل معاهدة لوزان واسترداد كامل حقها فى تحصين المضايق وتسليحها حتى لا يتعرض أمنها وسلامتها لعبث دولة مهاجمة كإيطاليا مثلا . وكانت العلاقات بين روسيا وتركيا لم تزل ودية ، فأيدت روسيا تركيا فى طلبها هذا لتكون حارسة لها على البواغيز فتمنع تسرب أساطيل الأعداء إليها . وكان من صالح انجلترا كذلك أن يكون أصدقاؤها فى البحر المتوسط مسلحين وبمأمن من هجمات العدو المشترك .

وعلى ذلك عقد مؤتمر مونترو سنة ١٩٣٦ بين تركيا وبريطانيا وفرنسا واليابان وروسيا وباقى دول البلقان ، وقرروا إلغاء القيود الدولية التى وضعت فى مؤتمر لوزان بشأن الرقابة على المضايق ، ونص فيه على حق تركيا فى تسليحها وتحصينها كما تريد . ومع أنه قد نص فى المعاهدة على أن دول البحر الأسود لها حق مرور أساطيلها فى المضايق — ومن هذه الدول روسيا طبعاً — فان المعاهدة أبقت حق التصريح بالمرور ومنعه بيد تركيا نهائيا تستعمله كما تشاء سواء فى السلم أو فى الحرب ، وهذا ما يضايق روسيا ويقض مضجعها الآن .

ولما اكفهر الجو الدولى فى أوربا وأوشكت أن تندلع شرارة الحرب العالمية الثانية كانت العلاقات بين روسيا وتركيا قد بدأت تتوتر ؛ فقد ارتابت روسيا من سياسة تركيا حين وثقت الروابط بينها وبين إيران وتزعمت اتحاد سعد اباد فى حين كانت روسيا تطمع أن تبسط نفوذها على الأقاليم الإيرانية المتاخمة لجمهوريات السوفييت ، وترنو ببصرها إلى حقول البترول فى الشرق الأوسط ، لتدخر مواردها من بترول القوقاز . وكذلك ساءها من تركيا انها تزعمت دول البلقان وكادت تخلق اتحاداً سلافيا إذا كان الغرض المباشر منه منع إيطاليا من العدوان فما لا شك فيه أنه سيقوى على مر الزمن ويقف حجر عثرة فى طريق روسيا نحو الجنوب . ومنذ نشأت هذه الريبة بين الدولتين سارت كل منهما على النهج الذى اختطته لنفسها ، فلم نعد نلحظ فى خططهما ذلك التناسق الذى كان يبدو جليًّا فى

الماضى . فبينما كانت تركيا ترتبط بمعاهدة الصداقة وتبادل المساعدة مع بريطانيا فى سنة ١٩٣٦ كانت روسيا لم تزل حائرة مترددة بين ألمانيا وبريطانيا ، وكانت بريطانيا تعرض عليها الدخول فى الحرب على حين كانت ألمانيا لاتريد منها سوى التزام الحيدة ، وعلى ذلك آثرت التعاقد مع ألمانيا .

ثم نشبت الحرب فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ فأعلنت تركيا حيدتها وأخذت تحيط نفسها بما يؤكد هذه الحيدة ، فعقدت مع روسيا معاهدة عدم الاعتداء ، كما عقدت مع انجلترا وفرنسا معاهدة تقضى بمساعدتها إذا هاجمتها دولة أوربية . ولما رجحت كفة ألمانيا فى أوائل الحرب عقدت معها تركيا سنة ١٩٤٠ معاهدة صداقة وتبادلتا أهم ما كان يلزمهما ، فأخذت تركيا عُدَداً ومهمات حربية وأعطتها به معدن الكروم الذى كانت ألمانيا فى مسيس الحاجة إليه فى ذلك الوقت . وحاولت روسيا وقتئذ أن تقنع تركيا بفتح البواغيز لأساطيلها ، فأرسلت دعوة إلى رئيس الوزارة التركية لزيارة موسكو ، ولكن تركيا تمسكت بتعهداتها الدولية ولم تستمع لنداء صديقتها القديمة .

ثم تطورت الحرب وانتقلت خطاها إلى الشرق ، ومضت ألمانيا تخضع حكومات البلقان واحدة بعد أخرى ، وخيل للناس أن تركيا لابد داخلة الحرب إلى جانب الحلفاء تنفيذاً لميثاق البلقان . ولكن دخول تركيا الحرب فى ذلك الوقت لم يكن فى صالح الحلفاء ؛ فقد كانوا فى حاجة قصوى إلى السلاح ولم تكن تركيا فى حالة تمكنها من مقاومة الألمان طويلا ، فلو أنها دخلت الحرب لاستطاع الألمان بسهولة أن يأخذوها ممراً إلى آسيا ويهددوا قناة السويس وخليج العجم فى آن واحد .

لذلك قبضت تركيا على حيدتها وكانت فى موقفها كالقابضة على الجمر ، فقد كانت ترى بعينيها مصارع الشعوب التى داستها النازية بأقدامها الحديدية فتجفل وترتاع .

ثم دخلت الحرب فى أهم أطوارها فى صيف سنة ١٩٤١ إذ هاجم الألمان روسيا وأصبح من صالح الحلفاء أن يمهدوا طريقا للاتصال بها حتى يمدوها بما تحتاج إليه فى كفاحها من سلاح وغذاء ، وكان طريق المضايق إلى البحر الأسود هو أقرب السبل إلى روسيا ، فحاولوا إقناع تركيا بفتح الدردنيل والبسفور لسفنهم ، فأبت تركيا عليهم ذلك كما أبت على روسيا حينما كانت محالفة لألمانيا . واضطر الحلفاء إلى الاتصال بروسيا ، إما عن طريق خليج العجم فإيران

والقوقاز ، وإما عن طريق البحر المتجمد من الشمال ، وكلا الطريقين وخاصة الثانى منهما طويل محفوف بالأخطار . ثم اشتد الضغط الألمانى على روسيا ، وكادت ألمانيا تصل إلى آبار البترول بالقوقاز وباطوم ، وكان مما ينقذ روسيا أن تدخل تركيا الحرب فتهدد الجناح الأيمن للجيش الألمانى الذى كان يستند إلى البحر الأسود ، ولكن عبثا حاول الحلفاء إقناع تركيا بالخروج من حيدتها ، وبقيت كذلك إلى أن لاحت فى الجو بوادر النصر للحلفاء ، وبدأ الرؤساء يجتمعون فى مؤتمرات موسكو والقاهرة وطهران فى أواخر سنة ١٩٤٣ ودعى الرئيس إينونو إلى التحدث معهم فى القاهرة ، وحينئذ قبلت تركيا أن تمنع تصدير معدن الكروم إلى ألمانيا ، ولكنها لم تعلن الحرب إلى جانب الحلفاء إلا فى النهاية ، ليتسنى لها أن تشترك مع سائر الأمم المحاربة فى مؤتمر سان فرنسسكو .

ونقمت روسيا على تركيا موقفها الجامد فى إبان محنتها الكبرى ، فانقلبت الصداقة القديمة بينهما إلى عداوة أعادت إلى الذاكرة ما كان بين الدولتين فى العهد القيصرى من جفاء ومرارة وعداء مستحكم . لذلك لم يكن مستغربا أن تنذر روسيا تركيا فى مارس سنة ١٩٤٥ برغبتها فى إعادة النظر فى معاهدة منترو وأن تتوتر العلاقات بين الحكومتين بدرجة استرعت اهتمام الدول . وتقضى المادة ٢٨ من معاهدة منترو بأن مدة المعاهدة عشرون سنة ، ولكن المادة ٢٩ تجيز للدول أن تطلب تعديل موادها فى كل خمس سنوات من تاريخ سريانها ، وعلى ذلك تكون المعاهدة قابلة للتعديل فى سنة ١٩٤٦ وقد انقضت عليها فترتان .

ويبدو أنه لن تستطيع تركيا أو أية دولة أخرى بعد أن خرجت روسيا من الحرب ، وهى أقوى دولة حربية فى أوربا ، بل لعلها فى العالم — أن تحرمها حق المرور فى المضايق بأساطيلها دون أن تستأذن فى ذلك تركيا . فلم تعد روسيا تخشى مهاجمة الدول كما كانت فى الماضى. بل هى على العكس يهمها الآن أن تفتح أبواب المضايق لتتصل بسياسة البحر الأبيض المتوسط الذى برهنت الحرب الأخيرة على أنه المركز الرئيسى للنشاط الحربى العالمى . وقد بدأت روسيا تطالب بنصيبها فى قواعده الاستراتيكية ، فأخذت مكانها إلى جانب انجلترا وفرنسا وأمريكا فى منطقة طنجة الدولية، وجعلت تطالب بالوصاية على طرابلس، ويقولون

إنها تطالب بمقعد فى مجلس إدارة قناة السويس كما كانت تريد إيطاليا الفاشية ، وبقاعدة حربية فى منطقة المضايق نفسها .

ولن ترضى روسيا أن تستعيد تركيا مكانتها فى البلقان ، فستعمل روسيا على أن تكون لها الزعامة بين الشعوب السلافية، ليكون مقامها بينها كمقام الولايات المتحدة من جامعة الجمهوريات الأمريكية ، بفارق واحد هو أن جمهوريات أمريكا تتمتع باستقلالها وبسيادتها التامتين ، اما حكومات البلقان فتريدها روسيا وفق نظامها وعلى هواها .

وتلقى تركيا الآن أشد العنت من جانب روسيا ؛ فهى تهددها من ناحية البلقان ، وقد نشرت نفوذها على حكوماتها جميعاً وخاصة بلغاريا التى لا تزال تحلم « بأدرنة » ، وتهددها كذلك من ناحية إيران . فان حدود تركيا من جهة الشرق تتاخم أذربيجان ، وإذا نجحت روسيا فى فصل هذا الإقليم من جسم إيران فستكون روسيا سداً حائلا بين تركيا وإيران ، فلا يبقى بين الدولتين ذلك الاتصال الوثيق الذى ساعد على تأليف ميثاق سعد اباد ، وستبذل روسيا جهدها لمنع تجديد هذا الميثاق أو وصله بالجامعة العربية حتى لا تسترد تركيا زعامتها القديمة .

وهناك جورجيا وأرمينية وكلتاهما من جمهوريات السوفييت ، وهما تطالبان تركيا بإعادة قارص وأردهان وأرتيفان . وكانت روسيا فى سنة ١٩٢١ قد رضيت بانضمام هذه الأقاليم إلى تركيا بعد استفتاء أهلها . على أن هذه الأقاليم كانت تحت يد تركيا قبل سنة ١٨٧٨ حين استولت عليها روسيا ، فاحتفاظ تركيا بها الآن لايعدو أن يكون استرداداً لبضاعتها . والأتراك مصممون على الدفاع عن حقوقهم وعن أرض الوطن شبراً فشبرا . وإذا أصرت روسيا على اقتطاع هذه الأقاليم وتعديل معاهدة منترو وفق مصلحتها وعلى غير ما ترضى به تركيا ، فلن يمضى وقت طويل حتى تظهر فى أفق السياسة العالمية « مسألة شرقية » جديدة تختلف من أجلها الدول وتناضل فيها تركيا وتقف منها كما وقفت فى سنة ١٩١٩ لا كما كان يقف الرجل المريض فى الماضى . وسترى روسيا حينئذ أنها أمام صخرة قُدَّت من عزمات أتاتورك العظيم .

محمد رفعت

فى ردهة الرقص

تهادى حسانُ الحى (1) فى ردهة القصرِ   منضَّرةَ المرأى ، مصفَّفة الشَّعْرِ
يَقِصْنَ شباباً فى فتونٍ وبهجةٍ   لدى أعين نُجْلٍ ، لدى أوجه غُرٍّ
كأن الشفاه الجُونَ (2) بين صفيحها (3)   أزاهيرُ حُمْرٌ فى أضاميمَ من نَوْرِ
نواهدُ أبدينَ الترائبَ والطُّلى   وكشّفنَ عن أعلى المتونِ إلى الخصرِ
وأبرزْنَ أكتافاً وعرَّيْنَ أيدياً   وكنَّ بما أظهَرْنَ فى رونقٍ مغرِ
على البَشَرِ البضِّ الغضيرِ تألّقت   أساورُ من ماسٍ ، قلائدُ من درٍّ
جوارحُهنَّ الكاسياتُ موائلٌ   كما شاءت الأزياءُ من بِدَعِ العصرِ
محاسنُ أعضاءٍ تناهى انسجامها   نَسَبْنَ القدودَ الفارعاتِ إلى السُّمْرِ
لِدانٌ كأنفاس الربيع متى سرت   تضوَّعَ منهنّ السرىُّ من العطرِ
رياشٌ (4) من الديباج بَصَّتْ شياتها (5)   عليهن من بيضٍ وسودٍ ومن حمرِ
تأنقن فى زيناتهن عرائساً   بناتُ خيالٍ ما خطرنَ على فكرى
فأشرقن والأنوار فى كل جانب   فولّى ظلام الليل من طلعة الفجر
وظلت عيون القوم فيهن رُتَّعاً   تنقّلُ بين البيض والسمر والشقر
تجرّرت الغيدُ الذيولَ مدلّةً   بتكوينها المرموق فى سمتها النضر
أرائك حول المائدات شغلها   وصحبٌ من الفتيان كالأنجم الزُّهر
على حلقات الشَّرْب دارت سقاتهم   ودارت على الأقداح آنيةُ الخمر
تلامست الأقداح ثم ترشَّفَتْ   وأمسى الندامى لا لصحو ولا سكر
على السمع أنداء الحديث تساقطت   كما طل أزهاراً نثيث من القطر
فمن نُخَبٍ مستملحاتٍ نزيغها   إلى نُكَتٍ بالأريحية تستذرى

(1) الحى : الجماعة . — (2) الجون جمع : الجون وهو الأحمر الخالص .
(3) الصفيح : جمع صفيحة وهى بشرة جلدة الوجه . — (4) الرياش : اللباس الفاخر .
(5) الشيت هنا : الألوان .

وللحن ترجيعٌ يناغم جرسُه ... مشاعرنا ، مارنٌ إياه تستقرى
تساوقَ فى موجاته مترسّلاً ... أرق من العُتْبَى وأندى من الزّهرْ
زخارفَ وشيٍ نمّقتْ فى غضونه ... مهارةُ ذى عزف ، براعة ذى زمر
تماحيَ ، تخلناه اضمحل ، إذا به ... على صخب يعلو ويهبط فى يسر
وقمن يراقصن الرجال إجابةً ... إلى نغمٍ لا يستقرّ على نبر
يلين على مهل ويشتدّ معجلاً ... ويبغم فى أنس ويصدح فى ذعر
يئن حنيناً أو يشقشق هادراً ... فيشكو ويرجو أو يضج فيستضرى
يجلجل ممراحاً وينساب رائقاً ... لنا منه فى حاليه دنيا من الشّعر
وأسلمنهم قاماتهن برقة ... وكلٌّ تلقّى صنوَه طافح البشر
وما ضمها حتى تولّته نشوةٌ ... من الفرح الطاغى بمفترة الثغر
وما اتحد الصنوانِ حتى تدافعا ... فطوراً بها يجرى وطوراً به تجرى (1)
يمور بها والصدر بالصدر لائذٌ ... وكفٌّ إلى كفٍّ وكفٌّ إلى الظهر
ويُقبل حيناً ثم يُدبر تارة ... تسايره الهيفاء بالكرّ والفرّ
يُرى الحفل فوضى بين غاد ورائح ... فهذا على طور وهذا على طور
عجبت لفوضى يستتبّ خلالها ... نظامٌ يسود الراقصين بلا أمر
يدورون مَثْنَى والخُطا تتبع الخطا ... تُشايع إيقاع المعازف والنقر
يجولون جولاً يبتدى حيث ينتهى ... يروح مع الأنغام كرًّا على كر
فمِنْ دَوَرانٍ يستقيم ويلتوى ... إلى جَوَلانٍ يستدير على حذر
وصنوين جدًّا فاستقلا بحيّز ... توقّف منه الراقصون عن السير
وشيكاً ومهلاً يمضيان ، سُراهما ... طليق على قيد ، يسير على عسر
وبينا بها يرتدّ عجلانَ ، ينثنى ... بها ذاهباً نحو الأيامن واليُسْر
ويفصلها عنه فتنأى وتدّنى ... فنشر إلى ضم وضم إلى نشر
تدور حواليه فيرعى مدارَها ... فكيف اغتدت يغدو وأنى سرى تسرى
يعلق إحدى راحتيها بكفه ... ويُطلقها تفتنّ فى رقصة بكر
وما انفتلت إلا استدارت حبائكاً (2) ... شراشرُ (3) ذيل من حرائرها الخضر

(١) هذا على ما يراه غير الراقص . — (٢) الحبائك : طرائق الرمل .
(٣) شراشر الذيل : ذباذبه وما انتشر منه .

تلفُّ بساقيها الدلاذلَ إن ونت عن الفتل حتى تسحب الذيل فى كبر
إلى صنوها الساعى إليها مراقصا فكانا كبيت الشعر شطراً إلى شطر
وصفّق إعجاباً وشارك راقصاً من الحفل من يبغى المزيد من الحبر
ترى حركاتِ الراقصين كثيرةً فمنها على سرّ ومنها على جهر
فمن همسات لستَ تبلغ كنهها ومن بسمات ينطوين على سرّ
أبقيا على ودّ ؟ أوَ عداً ؟ أدعوةً ؟ أمَ انّ ابتسام الخود لون من المكر ؟
ومن لفتات تستبيك رشاقةً ومن نظرات لا لِجدّ ولا هزر
سواحر تُبدى المبهماتِ من المنى وتأبى عليك المفضياتِ إلى الحزْر
غموضٌ كأطوار الملاح محيِّر فأنت بتيه من غوامضها الكُثْر
إذا لم تجدْ عما أسرّتْ وأبهمت بُليتَ بحال من مكايدها وعر
ويارُبَّ إعجاب لديك ملكنه بما كن فيه من رِخلالٍ ومن حِجْرِ
سرورك ساعٌ ينقضى بانقضائها فلا تنفقنها غير منشرح الصدر
تمَلَّ أفانين المحاسن وابتهج حيالك ما يرقيك من حزن الدهر
خليط كملتفِّ الغصون شخوصه أفاء علينا الوارفات من السحر
شخوص تناءى فى مجال وتلتقى على بارع الألحان من حيث لاتدرى
وما انتهت الأنغام حتى تفرقوا وعادوا وعادت آية الكأس والسمر

[بغداد] على الخطيب

من كتاب همس الصحراء

قصة معبد

إذا قلت المحال رفعت صوتي
وإن قلت اليقين أطلت همسي

أبو العلاء المعري

من أيام شهر يوليو وكأنما حرارة الطقس قد مدت فى ساعات هذا اليوم الصائف الحار فأصبح كأنه الأبد لا يشعر بانتهاء. فخرجت إلى تلك الصحراء القريبة التى أحس فيها وحدها الحرية ، والتى أعود منها دائماً ، وقد فهمت هذا الكلام الذى أقرؤه فى الكتب حول معانى الحرية ولا أحسه فى حياة تبدأ أيامها قيوداً ، وتنتهى قيوداً . وما كدت أسير فى الصحراء وأستنشق هواءها الجاف حتى بعث فى نفسى على دفئه نشاطاً لم يكن لأى شيء سواه أن يبعثه ، وإذا هذا النشاط يغرينى بالسير ، وإذا أنا مطمئنة إلى هذا الإبعاد فى الصحراء ، وكأنى واثقة أنى مهما قضيت فيها من الزمن فسأعود قبل أن ينتهى هذا اليوم الطويل . ولا يعرف سحر الصحراء إلا من سار فيها راغباً فى هذا السير الذى لا يوصل إلى غاية ، ولا يقصد به قطع الطريق . فلعل أجمل ما فى الصحراء هو هذا الشعور المطمئن بالضياع . إنه شعور عجيب يجمع بين نقيضين ، وليس أبلغ فى التأثير فى النفس من اجتماع المتناقضين .

وعن بعد لاح لى بناء لم أكن رأيته من قبل . فقلت فى نفسى : لعلى اتجهت اتجاهاً جديداً . ولم أسترسل فى هذا التفكير ، فقد كان شيء غامض يسرع بخطاى نحو هذا البناء ، فأسرعت حتى كدت أعدو عدواً ، والبناء تظهر لى معالمه وتقترب ، فأعجب لهذه القبة الشامخة من بناها فى هذه الصحراء ، ترى ومن يعمرها ؟ أهى أثر قديم أم أن أحدا يسكنها سأحدثه ويحدثنى فأرى صاحب هذه العزيمة الجبّارة الذى بناها أو صاحب هذا الحظ السعيد الذى يعيش فيها ؟

ترى لِمَ أفرد نفسه هنا وسط هذا الفضاء الواسع ؟ أعابدٌ هجر الحياة مختاراً ، أم سجين أفردوه قسراً وانتقاماً ؟ لا ولكن القبة كبيرة فخمة ، ولا يمكن أن تكون لفرد . إنه معبد قديم فيما يلوح . وعدوت وعدوت ، وإذا بناء فخم ليس فى المدينة ما يماثله أو يدانيه . إنه يذكرنى بالمعابد التاريخية القديمة ؛ فإن شيئاً فى حجارته وفخامته يوحى بالخلود والأبد . ولكن أمره عجيب فهو جديد ولا شك ، ولكنه مهمل إهمالاً فاحشاً ، فلم يبق من جِدّته فيما يظهر إلاّ معالم لولا وضوحها لكانت قلتها كافية لخفائها . وكنت كلما اقتربت أحسست وحشة ورهبة كانتا كفيلتين برجعى أو إثباتى حيث أنا لولا حب الاستطلاع . وإذا أنا قد كدت أصل إلى أسوار المعبد الخارجية فأرى شيخاً لفتنى إليه مظهره . فقد كان يجلس على الأرض ، وفى يده عود قصير يداعب به الرمال فى هدوء وتأمل طويلين حالمين . وما كاد يحس خطواتى حتى رفع جفنيه فى تثاقل . ولم يكد نظره يرتفع إلى أكثر من ساقىّ حتى عاد إلى رماله يداعبها كأن نسمة من نسمات الصحراء مرّت على وجهه الأسمر الدقيق . فوقفت هنيهة أتأمل هذا الشيخ فى ملابسه البيضاء الناصعة ، ولحيته الفضية التى توحى بالهيبة والوقار ، ووجهه الوسيم الشاب الذى لا تكاد تلمح فيه أثراً إلا يسيراً للتجاعيد . وكان لهذه اللحية البيضاء على الوجه الأسمر الشاب لسحر جميل . وتأملت أنفه الدقيق وجبهته العريضة ، وسألت نفسى : ماذا تكون أخلاق رجل هذه ملامحه ؟ ثم ابتسمت فى نفسى من مثل هذه الأفكار تلوح لى فى هذا الموقف . وأفقت ، وإذا انتظارى قد طال ، فبدأت أحس شيئاً من الارتباك ، فلولا هذه الخطوط القصيرة التى كان يرسمها الشيخ فى بطء لم يكن من الصعب أن أظن أن هذا الذى أمامى تمثال دقيق الصنعة ، قد أُلقى فى الصحراء إلقاء . ترى ماذا يمكن أن أقول له . وإذا صوت من بعيد ، فنظرت فإذا طائفة من الشبان تدخل هذا المعبد الفخم ، وتختفى وراء الأسوار الحديدية التى أحاطت به . وقبل أن أفكر فى شىء كنت أعدو نحوهم لأسألهم عن أمر هذا المعبد ، ولكنهم تواروا داخله قبل أن أقطع نصف المسافة التى تفصل هذا الشيخ عن الأسوار . فعدت مرة أخرى ، ولما لم أجد هذا الشيخ قد تحرك نفد صبرى فقلت : « يا سيدى » وكأنما كان صوتى يخرج من جوف الأرض لا من حلقى . وما كدت أنطق بهذه الكلمة حتى رفع إلىّ بصره فى تثاقل ، فإذا عينان حادتان تنفذان إلى نفسى ، فأحس كأنها عارية

خجلة تكاد تتلاشى من خجلها فى هذا الفضاء ذرات متناثرة ، وإذا صوت وقور نقىّ يقول : « وماذا أتى بك يا بنتى إلى هنا ؟ » . قلت : سيدى وما هنا هذه ؟ ولماذا تنظر إلى هكذا ؟ وأحس الرجل أنى خائفة أحاول إخفاء خوفى فى التلهف على معرفة ما لم أكن أعرف . قال : « أما هنا يا بنتى فهذا المعبد . وأما نظرتى فاغفريها لى ، إنى لم أرفع البصر عن الرمال منذ أعوام ، ولم أر إلا لونها الأصفر الأبيض حتى كدت لا أميز الألوان . قلت : وكيف تعيش ؟ قال : « إنى أعرف بعض سدنة هذا المعبد فهم يقومون بخدمتى ، ولـكنى لا أرفع بصرى إليهم لأنى لا أريد أن أراهم . ولولا أنى لا أملك البعد عن هذا المعبد ما أطقت العيش هنا فى جوار هؤلاء . عودى يابنتى من حيث أتيت فإن فى صوتك إخلاصاً ، وفى ملامحك سذاجة يقتلهما هذا الجو الخانق » . قلت : « ولـكن ماذا يضطرك إلى هذا ياسيدى ، وأمامك المدينة واسعة ولن تعدم من الأصدقاء فيها من ييسر لك عملاً تعيش منــه قرير العين فلا تحتاج إلى هؤلاء الذين لا تطيق أن ترفع فى وجوههم بصرك ؟ » . فابتسم الشيخ ابتسامة عابرة من جهلى وقال : « إنى لا أطيق الإقامة فى المدن والبيوت . عودى يابنتى . ألم أقل لك إن فيك إخلاصاً وسذاجة ؟ » .

وعاد يداعب رماله فى حركة إن تكن أسرع من حركاته الأولى فإنها لا تزال بطيئة حالمة . وخفت ألا يجيبنى فقلت : سيدى سأعود فى الحال ، ولـكن لى رجاء . قال ولم يرفع بصره : « حتى أنت ! » قلت : وماذا ؟ قال : لا تعملين إلا بثمن . قلت : رجائى أن تقص علىّ قصة هذا المعبد ،وأؤكد لك أنى لن أسألك شيئاً ، ولن أستفسرك عن شىء ، قصّ علىّ من أمره ما شئت ، واحذف من خبره ما ترى ، ولـكن لا تدعنى أذهب وفى النفس ظمأ إلى معرفة أمر هذا المعبد فأعود إليه وأنت لا تريد أن أعود . قال : كلا يا بنتى ليتك تعودين ، وقد تبدلت الحال ؛ بل ليتك جئت إلى هنا منذ أعوام إذن لتلقيتك بالترحاب ، ولدخلت المعبد فلا تبرحين . ولـكن . . . ثم رفع بصره إلى السماء ، وتنهد تنهيدة مكتومة حائرة ولم يقل أكثر من « يارب » ثم صمت . وشع نداؤه حاراً فى الصحراء وفى جوار المعبـد إحساساً بخشية الله لا يمكن أن يوصف : إنه غيبة عن هذا العالم يتصل الروح فيها بشىء غامض قوىّ فتغمر النفس سعادة ويسرى فيها أمن . وأفقت على أصوات منكرة تنبعث من هذا المعبـد ففزعت

وهممت بأن أعدو هاربة ، وقد خيل إلىّ أن وحوشاً ستنطلق فى أثرى ، لولا أن الشيخ قال لا تفزعى يا بنتى إنهم يرتلون آياتهم فى الصلاة ، اجلسى على هذه الصخرة فسأقص عليك قصتهم ، وإنها لحقيرة مؤلمة ، ولكنهم لا يقدرون إلا على هذا . إستريحى يا بنتى فلقد سرت طويلاً واهتزت أعصابك هزات عنيفة لم تتعوديها ، إنى قد علانى المشيب منها وأنا فى شرخ الشباب . قلت فى نفسى إن أمره لأخطر مما قد دار فى خلدى . هذا الصوت النقى الوقور ، وهذه اللحية البيضاء وهذا الوجه الشاب ، ثم هذه الجلسة التى لا يفيق منها ويكاد يقضى حياته فيها . إن أمره لأعجب من أمر المعبد . قلت : سيدى أتحدثنى حديثك أنت ولنترك أمر المعبد ومن فيه ، فقد تضاءل شأنه بعد ما سمعت من أصوات سدنته المنكرة ؟ قال : إن قصتنا لواحدة .

منذ أعوام طويلة جاء إلى هذه الصحراء نفر من شبان المدينة عرفوا الحياة يقيناً ، فزادهم يقينهم بها إيماناً ، وتطلعوا إلى خير ما يتطلع إليه إنسان ، فزادهم تطلعهم حماسة وإخلاصاً ، وأجمعوا أن خير ما ينفقون فيه أعمارهم هو التفرغ لعبادة من خلقهم مستعينين على التقرب إليه لا بالصلاة والتسبيح فحسب ، ولكن بالسعى أيضاً وراء المعرفة ، والبحث عن الحقيقة . ففى السعى وراء المعرفة تسبيح ، وفى البحث عن الحقيقة صلاة . وقالوا : إننا لنفرغ لعبادتنا يجب أن نبعد عن المدينة وما فيها من لهو وزيغ ومطامع وأغراض ، ونقيم هنا فى هذه الصحراء لا نزور المدينة إلا مضطرين أو ساعين . نحتكُّ بالناس لنعرف طبائعهم ، ونعامل الناس بالقدر اليسير الذى نحتاج إليه لمعاشنا ، أو بالقدر الذى يمليه علينا حبنا لمعرفة الإنسان هذا المجهول الذى أتعب العلماء والباحثين منذ خلقوا . وفيما عدا ذلك فمقامنا فى هذه الصحراء يعين بعضنا بعضا ، على مايدرس ويقوى صوت أحدنا أصوات إخوانه فيما ترتفع به من تسبيح بحمد الله . وقليلاً قليلاً قويت جماعتهم ، وبهرت فكرتهم بعض أهل المدينة ، فمنهم من انضم إليهم بروحه ونفسه ، ومنهم من وجد فى فكرتهم مجالاً لخلود الذكر ، فقال لهم نبنى لكم معبداً . وراق لهم هذا العرض وتقبلوا فضل هؤلاء المخلصين وتفاءلوا به . وقالوا : هكذا يمنّ الله علينا ليشجعنا على السير فيما بدأناه . وتنافس الناس فى المدينة لإقامة هذا المعبد لهؤلاء المؤمنين ، منهم من دفع من ماله لا يبتغى إلا المشاركة بما يملك فى تحقيق فكرتهم الجميلة ، ومنهم من رأى فى ذلك فرصة للمباهاة

والظهور . والإنسان قد فطر على التنافس والتفاخر . وشيئاً فشيئاً شيد هذا المعبد الفخم . لو رأيته يا بنتى يوم كمل بناؤه ! لقد كان آية من آيات الجمال ، كان عليه ضوء من السماء كأنما السحب قد انقشعت من فوقه وحده فأنارته وقد حجبت النور عن سائر ماحوله . كان لؤلؤة مضيئة لامعة فى رمال هذه الصحراء الباهتة . ودخل الشبان معبدهم ، وعكف كل منهم على ما كان يعكف عليه من قبل . ولست أذكر من أمرى شيئاً إلا أنى كنت أهيم فى هذه الصحراء ، وفى ذاكرتى خيالات مفرقة ، وصور قديمة عن معابد سكنتها حيناً وخرجت منها لا أدرى كيف ولا متى . فرأونى هائماً فى الصحراء فأدخلونى معهم وأكرمونى وأحبونى ، فأحببتهم جميعاً حتى إنى لم أطق أن أقيم فى غرفة بعينها من غرف المعبد ، ورجوتهم ألا يكون لى مكان معين فيــه ، وأن يأذنوا لى بزيارة من أشاء منهم . فخيالى التى جبلت عليها تأبى علىّ الاستقرار فى المعابد . وفرحوا لهذا وازدادوا بى تعلقاً ، وفى خدمتى تفانياً ، وعاشرتهم زمنا .

لو سمعت يابنتى أناشـيدهم التى كانوا يسبّحون بها ربهم لكل مطلع شمس ومغربها ! كانت أصواتهم أجمل نغم يمكن أن يسمعه الإنسان . أصوات آدمية بلغت من الصفاء أقصى مبلغ ، ومن الحـلاوة مالا يمكن أن تصل إليه آلة مهما تكن . وكان ترتيلهم يتصاعد من هذه القبة اللازوردية فى طريقه إلى السماء ، فيحس سامعه ومنشده أنهما قد رفعا من فوق هـذا الأرض وقد أصبحا شيئاً آخر غير أهلها ، شيئاً قريباً من عالم الملائكة بروائه وجلاله . حتى إذا خرج الصوت من القبة وتجاوبت أصـداؤه فى قبة السماء ، ثم أخذت أنغامه تغيب فاسحة لغيرها ملئ الصوت حناناً ، وفتح بحلاوته آفاقاً وآفاقاً ، من الجمال والجلال والروعة ، وإذا الأطيار تدنو زرافات من أطراف الصحراء تدخل المعبد وتخرج منه محلقة مع الصوت فى آفاق السماء مرددة ألحان التسبيح خجلة أول الأمر من أصواتها ثم متشجعة بعد حين ، مفنية أصواتها الخاطفة القصيرة فى هذه الأنغام المليئة الطويلة . إن الأصوات الوحشية التى سمعتها الآن ، والتى أفزعتك هذا الفزع الذى أشفقت عليك منه ، لا يزال أصحابها يريدون من سامعها أن يكشف لهم عن مثل هذه الآفاق ، ونسوا أو تناسوا أنهم لا يتطلعون إليها ولا يحسون من الحنين إليها شـيئاً ، بل إن صورها أصبحت لا تدور بخيالهم الذى ملئ رياء وزيفاً ومآرب تفسد عليهم الحياة نفسها .

ومكثت معهم زمناً، فاصطفيت أحدهم وأحببته أكثر من إخوانه . لقد كان أدقهم تصوراً لفكرة هذا المعبد، وأشدهم تحمساً لها ، وإن حنينه إلى الوصول إلى الكمال فى أمر هذا المعبد كان أقوى من حنين إخوانه ، لسعة خياله واتقاد حسه ، وإمكان روحه أن يحلق فوق ما تشغل به النفس عادة من أمر هذه الحياة . وكان كثير التأمل شامل النظرة ، فاتسع صدره لما لم تتسع له صدور الآخرين وقوى جلده وصبره على ما لم يقو عليه جلد الآخرين وصبرهم . وكنت أراه من حين إلى حين ينتحى مكاناً فى المعبد يطيل فيه التفكير فأعاونه ، وإذا هو يفضى إلىّ بدخيلة نفسه فى سذاجة الرجل العظيم ، ودقة القلب الكبير . وكان إخوانه يحسون هذا الجو الذى شع عليهم فى المعبد ، وهو مشبع بالمحبة والخلوص للتعبد ، فلم يغاروا من حبى له وإنما فرحوا به ، ولم يشغلوا أنفسهم بأمر إقصائه عنى ، أو بحسبان ما يمكن أن يطرأ على علاقتنا من تغيير بفعل الزمن أو الظروف أو الناس ، وإنما شاركونى فى حبى له ، فأحبهم هو وفسح لهم الطريق إلى قلبى . وكثيراً ما حدثنى عنهم يحاول أن يكشف لى ما ظن أنى لم أكن أعرف من محاسنهم . وفى يوم أرادوا أن يكون لهم رئيس ينظم أمر جماعتهم ، وأعمالهم وبحوثهم ، فلم يجدوا خيراً مما اصطفيت فبايعوه فرحين به . وارتفعت أصواتهم بالدعاء والشكر على ما وفقوا له فى أمرهم فكانت فى أحلى نغم وأرقه وأصفاه . ونظرت حولى فى أرجاء المعبد فتمتعت عيناى بجمال الفن وروائه : فهذه تماثيل صنعوها وقد وضعوا كلا منها على قاعدة تظهر أدق ما فى فنهم من آيات . ودخلت أشعة الشمس من قبة المعبد الزرقاء الصافية ، من تلك الفتحة الصغيرة فى القمة ، فتلاعبت بهذه الزرقة وألقت على التماثيل ألواناً وأشعة ، فزادت فتنتها وكمل جمالها . وهذا أحدهم عاكف فى ركنه يقرأ ويكتب ، وهذا آخر يفكر ويتأمل ويطيل التفكير ويتعمق التأمل ، وهذا ثالث ينحت ويصور ، وتلك جماعة تتناقش وتتحدث ، وأخرى تصلى وتتعبد

وكانوا قد أفردوا جزءاً من المعبد يستقبلون فيه شبان المدينة الجدد الذين يريدون أن يتعرفوا أمرهم ، فنهم من كان يقرأ معهم ويتعبد فتحلو له الإقامة ويمكث معهم وقد عاهدهم وعاهد نفسه أن يظل منهم مدى الحياة . ومنهم من كان يرى فى حياة العزلة تلك مشقة لاقبل لمثله بها فيرجع إلى المدينة شاكراً حامداً وفى نفسه منهم أطيب ذكرى وأخلص حب . وسدنة المعبد يرحبون به

إذا قرر المكوث معهم ويودعونه آسفين محزونين إذا قرر الرجوع إلى المدينة. وهو إذا مكث فى المعبد أصبح من سدنته يقوم على خدمته كهؤلاء الذين سبقوه يعمل فى إخلاص ونشاط كل ما من شأنه أن يجمل المعبد وييسر الحياة الطيبة لمن فيه، يتعاون معهم فى ذلك حسب سنه ومواهبه. حتى إذا نما هذا الوافد الجديد واكتمل بدأ يضيف هو أيضاً من جهده إلى جهودهم مايحقق فكرة عبادة الخالق صلاة وعلماً.

وكان منظر هؤلاء الوافدين الجدد طريفاً بديعاً، فقد كانوا يتحسسون جدران المعبد، كما يتحسس الريفى الجلف قطعة من الحرير، كأنما فى اللمس وحده لذة فائقة. وكانوا يتطلعون إلى كبارهم، كما يتطلع الطفل إلى أبيه فى إعجاب وحب ورغبة شديدة عمياء فى أن يقلده، فهم يسيرون وراءهم يسألون فى إلحاح عن كل ما يخطر لهم، والآباء يحدبون عليهم ويفتحون ما أغلق دونهم وينيرون ما أظلم عليهم. فإذا أتى من الوفود الجديدة من يسأل سؤالا كانوا هم سألوه من قبل ضحكوا منه ضحكة لذيذة، كأنما يرون فيه أنفسهم من جديد.

وأحب صاحبى هؤلاء الجدد ورأى فيهم حجراً أساسيا فى بناء المعبد. إن حياة الانسان لقصيرة، وفكرة المعبد أبدية ازلية. ترى من يقوم بها إذا أقعدت السن من بدءوا غير هؤلاء الشبان. ومن خير ما تخدم به فكرة المعبد أن تكون الخطوة الجديدة فيه خيراً من السابقة، وأن يكون الذين سيلون الأمر فيه خيراً ممن يلونه الآن. وتحمس صاحبى تحمسه لكل فكرة صائبة تلوح له، وقال لهؤلاء الجدد: إننا نريد أن نعدكم لتكونوا خيراً منا. وملأ الغرور الطموح المحبب نفوسهم المتطلعة الشابة فقالوا: وإنا لنرجو أن نكون كذلك. قال: إن معبدنا هذا واحد من آلاف المعابد المقامة فى صحارى العالم الشاسع الواسع. ومن الخير لهذا المعبد أن يعرف القائمون بأمره، لا مايدور فى معبدهم فحسب كما يعرفون الآن، ولكن مايدور أيضاً فى تلك المعابد الأخرى حتى يقفوا على أحسن الوسائل التى تتحقق بها فكرة المعبد العظيمة. إن من المعابد الأخرى القديم، وإن منها ما قد مرن فى التجارب قروناً، فليذهب كل منكم إلى معبد من تلك المعابد وسيرحب به أهله دون شك، فليمكث فيه زمناً، ثم ليعد إلينا وقد عرف مالم يكن له أن يعرف لو أقام هنا طوال عمره مهما أخلص. لقد زرت هذه المعابد مراراً وأقمت حيناً فى غيرها، ولكن الزمن يسير، والكمال لا يدرك فى جيل،

فلتذهبوا إليها ولتقيموا فيها ، ولتحسنوا الدرس والأناة فى الدرس ، لعل فيكم الخير لمستقبل هذا المعبد المقدس . وتحمس الشباب الطموح لفكرة الرحلة فى ذاتها ، وأكبر أستاذه أكثر مما كان يكبره بعد أن ظن أنه قد بلغ النهاية فى إجلاله وإكباره . وودع أهل المعبد إخوانهم الصغار الراحلين ، وفى نفوسهم حسرة على فراقهم ، وفى تفكيرهم رضا عما سيكون منهم حين يعودون .

ومنذ ذلك اليوم الذى تولى فيه صاحبي أمر المعبد وأخذ يعنى بحاضره ومستقبله أحسست فى نفسى أمناً ورضاً، واطمأننت إلى أن الحياة فى هذا المعبد ستسير كل يوم نحو غايتها ، وستبعد عنها الغاية كلما بدت دانية فينعم سدنته بأمتع لذات الحياة ، لذّات السعى إلى غاية لاتدرك، فلا يمكن السأم أن يتطرق إلى حياتهم ولا يمكن كسل النجاح أن يميت نفوسهم إذا ما وصلت . إنهم سيسعون أبداً وستفنى حياتهم فى هذا السعى وهم راضون متحمسون، بل وهم محتقرون كل من يريد أن يريحهم أو يغريهم أن يستبدلوا بغايتهم غاية أدنى وصولا وأيسر سعياً .

وبينما كنت أحس الطمأنينة كلما فكرت فيهم كنت أحس القلق إذا ما فكرت فى نفسى : ما مقامى هنا بل ما مجيئى ومتى ذهابى . إنى يابنتى لا أعرف شيئاً عن نفسى ولا أدرى من حياتى إلا خيالات صور مشتتة غامضة . ولو تركت إلى نفسى حيناً لاتّسع الوقت لأن أعرف من شأنها شيئاً ، ولكنى موكل دائماً بأمر ، مشغول بفكر . وأحسست يوماً وأنا أجول حول المعبد برغبة فى أن أمعن فى هذه الصحراء . لقد كانت الصحراء أمامى كل يوم ، فما أحسست لجمالها إغراء ولا لسحرها فتنة . ولكنى فى ذلك اليوم أحسست إغراءها وفتنتها ، واستطعت بعد مشقة أن أقاوم إحساسى فلا أتيه فى مجاهيلها . فلما عدت إلى صحبى إذا بهم قلقون مضطربون يتحدثون فى أمر جاءهم من المدينة ، فهذا حاكمها أرسل إلى رئيسهم يريده أن يشخص إليه . وعاد منهم من المدينة من عاد ، فقد كانوا يخرجون إليها إما للدرس وإما للمعاش ، فقالوا إن أهل المدينة فى أشد حالات الاضطراب ، فقد قام عليها حاكم متكبر جبار يريد أن يخضع فيها كل شىء لأمره . فلما قاوموه تعسف وقتل فأذعنوا مرغمين ، وفى صدورهم براكين من الغيظ ، وفى نفوسهم فيض من ألم الذلة وذل المسكنة . وظل الحاكم عاماً أو نحو ذلك لا يستطيع أحد إلاّ موافقته على ما يفعل أو يقول . وترامت إليه أخبار المعبد وما ينعم به أهله من حرية وكرامة ، فعز عليه أن يكون حر أو كريم

لا يخضعه لسلطانه ، فأرسل إلى رئيس المعبد ليسير إليه . ولا يعرف السدنة الآن ماذا سيكون من أمرهم مع هذا الطاغية ، واضطربت نفوسهم أشد اضطراب . ولأول مرة أحسست أنى غريب عنهم ، وأنى لا أحس ما يحسون ، ولا أفكر فيما يفكرون ، ترى ماذا جعلهم يضطربون ؟ ولأول مرة أيضاً أحسست الندم لأنى قاومت إغراء الصحراء وفتنتها . وتطلعت إلى صاحبى فإذا هو الوحيد الذى لم يضطرب ، وإذا هو يتحدث إليهم بما أصبحت أفهمه وإن غابت عنى بعض معانيه . إنه أخذ يعيد الطمأنينة إلى قلوبهم ، وإذا هم يفيقون من حديثه أقوياء متحمسين . وتجاوبت الحماسة فى نفوسهم فقويت وازدادت قليلا قليلا حتى ملأت قلوبهم . إنهم لن يفرطوا فى رئيسهم ، ولن يذهب إلى الحاكم لأنه دعاه . إن حاكم المدينة لو طرق بابهم ما أجابوه . وما لهم وما يتناحرون من أجله هناك ! إنهم زاهدون فى السلطان ، راغبون عن المال ، حسبهم من عيشهم هذه الحياة التى يحيونها مفعمة بلذة القرب من الله سبحانه وتعالى يتعبدون ويدرسون فيحسون حجب الكون تتكشف لهم حجاباً حجاباً ، وفى كل كشف لذة تطغى وسعادة تغمر .

ولكن الحاكم لم يصبر على هذا الثبوت له ، وإذا جنده يقتحمون المعبد ويخرجون الرئيس بالقوة . ولا تسألى يا بنتى عن الهلع الذى اعترى تلك الجماعة المؤتلفة المتحابة . وكانت غضبتهم غضبة قوية دوّت بها الصحراء كلها . إنهم لن يرتضوا غير رئيسهم ، ولا بد أن يرد إليهم . وسعى إليه من سعى فى عزلته وجفاه من جفاه . وهدأ الزمن من ثورة النفوس ، وإذا الشدة كعادتها تكشف عن حقيقة النفس ، وسرعان ما كشفت عن تلك النفوس التى سما بها الجو حولها ، فغارت فيه وهى ليست منه . فلما نضبت الكأس ظهرت رواسبها التى كانت تعوم فيها . إن هؤلاء القلة الذين كانوا النواة الأولى لم يحسنوا اختيار إخوانهم ، فضموا إليهم بعض من فقه فكرة المعبد وبعض من لم يفقهها أصلا . بل لقد ضموا بعض من بهره بناء المعبد ، ولكنه عاش غريباً فيه يساير أهله وهو لا يحس أنه منهم . كل ما فى الأمر أنه وجد فى المعبد أمناً ودعة لم يتوافرا له خارجه ، وظن أن سيكون لهذا المعبد شأن دنيوى سريع ، فماذا عليه لو شارك فى هذا الشأن منذ الآن فيكسب بعد الزمن . لقد كانوا أعرف بطبيعة الحياة والانسان من هؤلاء المثاليين المؤمنين الأولين .

وكان أمر الوافدين الجدد مضطرباً بين هؤلاء وهؤلاء ، منهم من آمن مع الأولين فاقتنع بوجهة نظرهم ، ومنهم من عاد بعد قليل فآمن بوجهة نظر هؤلاء العمليين ، ونسوا ثورتهم العظيمة ؛ فالزمن كفيل بأن ينسى أعظم الأشياء وأجلها شأناً فى الحياة . أما سدنة المعبده فلقد غفلوا أو تغافلوا عما بينهم من اختلاف ، وكانت أصوات العمليين تضيع فى أصوات المخلصين وعمقها وهم يرتلون من قلوبهم ، فظلت أنغامهم تخرج حارة قوية مع أن عدداً ليس بالقليل منهم كانت تراتيله لا تجاوز الشفاه خجلا وخوفاً .

ولكن المحنة أتاحت لهؤلاء العمليين أن يتكلموا وأن تعلو أصواتهم الخائفة ، ومر الزمن فاذا أصواتهم تعلو فى الترتيل ، وإذا أصواتهم تعكر صفو هذا اللحن الصافى الرقراق . وقال قائلهم إنه كان يجب على رئيسنا أن يجيب الحاكم فلا يعزله ولا يعذبه . وقال آخر إن للحاكم سلطاناً على كل شيء وسلطته مهما بالغ فيها يجب ألا تعارض ، وإلا ضاعت هيبة السلطان فى كل زمان ومكان . ولكن ظل من المؤمنين الأولين من يقول إنه ليس للحاكم أن يتدخل فى أمرنا ، إننا لا نتعرض له ولا لسلطانه ، فنحن قوم جعلنا بيننا وبين المال والسلطان آماداً واسعة . والمال الذى يأتينا من المدينة إن هو إلا قرابين أهلها إلينا لا يدفعه الحاكم من ماله ولا يتكلف فى سبيل إيصاله إلينا شيئا . ولكن صوت هؤلاء المؤمنين وإن يكن كله إخلاصاً فقد كان فيه غير قليل من فتور خيبة الأمل والاشمئزاز ممن حولهم فلم ، يكونوا ينتظرون إلا أن ترى الجماعة فى مثل هذا الموقف رأيا واحداً تراه أول الأمر ولا تحيد عنه إلى النهاية .

وغضب سدنة المعبد المخلصين وتلاميذهم ما شاءوا ، ولكنهم عرفوا آخر الأمر ما حاولوا نسيانه ، وهو أن الحاكم الظالم لا تقاومه إلا جماعة متماسكة كل التماسك . أما هم فقد تفككوا وظهرت لهم العناصر الغريبة عنهم التى تعيش بينهم ، وعادوا سيرتهم الأولى ، وقد فترت حماستهم ونظر بعضهم إلى بعض بعين الريبة والشك ، كل منهم يظن فى صاحبه ما لا يظهر . لقد كانت التجربة قاسية . ثم أرسل الحاكم أوامره فحاولوا أول الأمر مقاومته ، ثم أذعنوا وولوا عليهم من ارتضاه الحاكم حتى لا تنفذ فى المعبد إلا أوامره . لقد نقب هذا الرئيس الجديد أول ثغرة فى حصن المعبد المقدس ؛ فقد جعل للحاكم فيه أمراً لم ينته بل ازداد على مر الأيام .

ومنذ ذاك يا بنتى اتصل أمر المعبد بالحكم القائم اتصالا أفسد عليه كل أموره . فالذين كانوا من أبنائه يقضون النهار فى البحث والتسبيح لله ، والليل فى التهجد والتفكير والتأمل ، أصبحوا يقضون اليوم فى المدينة باحثين عن الأسباب التى توصلهم إلى رضا السلطان وعطفه ، وليلهم فى التفكير فى وسائل هذا التقرب وكيفيته . فإذا صحا خيالهم وألم بهم إلمامة ما ، لم يفكروا فى جنات عدن ، وإنما تخيلوا ما يمكن أن يصلوا إليه من سلطان ، وما يمكن أن ينعموا به من مال . وأصبحت صلاة المؤمنين المخلصين منهم تجمد على جدران المعبد الخرساء الباردة قبل أن تنزلق فى طريقها إلى السماء . وبذلك أصبحت الحياة فى المعبد جحيما لا يطاق . وأمر الرئيس الجديد ، ونهى وأطاعه بعضهم ، وتحاشاه الآخرون ، فقرّب وأبعد ، وأفسد ما شاء له الإفساد .

ويشاء الله ، جلت حكمته أن تعارض ، أن يعود فى تلك الآونة شبان المعبد المسافرون فى صحارى العالم ، وفى قلوبهم حماسة الشباب المؤمن ، وفى عقولهم علم وأمل واسع عريض ، فإذا المعبد حوله أسوار لم تكن أيام كانوا فيه . فنفرت نفوسهم من تلك القضبان الحديدية ، وما ترمز إليه من معنى السيطرة والسلطان ، بل من معنى القيد والذل . ولكنهم جاوزوا الأسوار ، وإذا وجوه إخوانهم وكبارهم توحى بنفرة أشد وخوف أقوى . إنهم لم يرحب بهم أحد ولم يهش لمقدمهم إنسان ، وتقدموا للعمل فلم يشجعهم أحد ، بل أحسوا رغبة خفية فى التخلص منهم . ولما عرفوا حقيقة الأمر وجموا حيناً ، وأفاقوا من وجومهم فريقين : فريق زار معابد الصحراء زيارة عابرة لم تذك فى نفسه ناراً بل أخمدت ما أضاء له أساتذته الأولون فى معبد الصحراء هذا ، لذلك آثر أن ينحو نحو من رآه فى المعبد يقوم بالأمر ، وقد أسبغ عليه سلوكه هذا مسحة فلسفية استمد منها بعض ما يدافع به عن نفسه أمام إخوانه . واستمر يصعد فى سلم المادة وهو آمن مطمئن يفسر انتقاد إخوانه حسداً ، ويرى تأنيب ضميره رجعية ، وإذا هو وحش كتلك الوحوش التى سمعت أصواتها ، وارتفع صوته يقوى أصواتها فازدادت غلظة ونكراً . وأما الفريق الآخر فقد آثر الانزواء فى المعبد بعيداً يخفت من صلاته ويُدارى من تسبيحه وقد انصرف عن كل أمر فى المعبد ، لا يكاد يدرى مما يدور فيه شيئاً ، وهو غارق فى الدعاء لله أن تنجلى المحنة وأن تعود للمعبد حياته الأولى . ولما طالت بهذا الفريق الأعوام

ثبت منه من ثبت ، وتغير منه من تغير ، بل فر منه من المعبد من فر .

وهكذا فقد المعبد الروح الذى يحدب عليه ، وأصبحت عقول سدنته وقلوبهم خارجة عنه وإن ظلت أجسامهم فيه . ولم أطق العيش معهم ، فخرجت إلى هذه الصحراء أجوبها من جديد ، وعدت إليه بعد أعوام لما ترامى إلى سمعى من أن رئيسهم القديم عاد إليهم . ولكم تألمت عند ما وقع بصرى على المعبد بعد أن تركته طوال هذه الأعوام ! إن القبة الزرقاء أصبحت رمادية مما تراكم عليها من تراب . إن الجدران اللامعة الملساء قد تآكلت ، وتحفرت ، كأنما نخر فيها السوس . إن الأرض البيضاء الناصعة قد اسودت من أقدام الوافدين الذين هان عليهم أمر معبد ، هان على سدنته من قبل . إن الهواء الطلق الجميل الذى كان يمر بالمعبد فى جلال الحرية وشمولها أصبح يدخله من خلل قضبان كأنما هى أنابيب لا تطلقه إلا بمقدار . ورحت إلى صديقى أرى ما فعلت به المحنة فإذا هى قد تركت فيه آثارها . لقد بلا فيها ما لا يمكن لإنسان أن يبلوه ليظل إيمانه كما هو وإخلاصه كما كان . نعم إن إخلاصه لم يطفأ . إنه ما كاد يطأ بأقدامه أرض المعبد ، ويسمع أصوات بعض المخلصين من صحبه حتى نسى أو تناسى ما كان من أمر السدنة طوال هذه الأعوام . وبدأت حرارته تنير المكان ، وبدأ السدنة يلتفون من حوله ، وبدأ ترتيلهم خافتاً ولكنه كان صافياً ، وإذا الأطيار تعود فرادى لتحلق حول القبة الزرقاء تتلقى الأنغام فترددها خجلة من ترددها الرفيع ، ثم متحمسة شيئاً فشيئاً حتى يفنى صوتها فى عمق أصوات السدنة المخلصين . ودخلت المعبد من القبة الزرقاء تريد أن تقيم فيه من جديد ، ولكن صدها ما رأت . إن العناكب متراكمة على جدرانه ، وإن وجوه سدنته ساهمة ، وعيونهم زائغة ، أكثرها عالق بالأرض يحسب ويزن ، ولا يتطلع إلى السماء ليحلم مطمئناً .

وسار الزمن بالمعبد فى حالته الجديدة خطوات ، تحسبونها أشهراً أو سنوات ، وإذا الرئيس نفسه قد يئس من أمر المعبد . لقد كان الفساد فيه أشمل من أن يوحى بأمل فى إصلاح . إن جهاد الإصلاح أعسر من جهاد الإنشاء ، ومقاومة أهل المعبد أنفسهم أعسر وأشق من مقاومة السلطان . إن هؤلاء الغرباء الذين ظلوا فى المعبد وأصبح الأمر لهم إلى حد بعيد كان من الصعب إغفالهم ، ومن الأصعب التعاون معهم . ولم يكن الرئيس قوى الثقة بأبنائه الشباب ، فقد أظلم

نظرته إليهم ما بلاه فى كبارهم ، فظلمهم وظلم نفسه بل ظلم المعبد فيهم . ولم تكن هذه القلة المخلصة الصافية من شباب أبنائه بكافية عدداً لتعين على إصلاح جبار كالذى تتطلبه الحال . وهى قد ألفت العزلة والحذر من المشاركة فى أمر ، فلما جاء الرئيس كانت هى أيضاً ضعيفة الأمل فى الإصلاح أو عودة الحال . وحاول الرئيس ما حاول ثم مل وسئم ، وظلت هذه القلة عاكفة على نفسها لم تسأم ولم تيأس كل اليأس . واتصل اليائس بالمتفائلين منهم ، فغلب يأسهم الحار تفاؤلهم الخجل الفاتر . ولم تعد للرئيس حياة فى مثل هـذا الجو ففر يائساً إلى المدينة ، يشق لحيـاته طريقاً آخر ، ويرسم لنفسه غايات جديدة ، لست أدرى من أمرها شيئاً : أتتصل آخر الأمر بالمعبد أم هى قد قطعت كل ما بينهما من أسباب .

إن أعمار الرجال يا بنتى لقصيرة ، وإن قصرها وحده لخليق أن يشع فى النفس معانى وتقديرات تقلب وجهة النظر إلى الحياة كلها . فإذا ما تقدمت هـذه الأعمار وأحس أصحابها لأول مرة إحساساً قويـًا أنها ستنتهى بعد حين ، وإن هـذا الحين ليس طويلا كما كانوا يحسونه فى الشباب ، أشع هذا الإحساس فى نفوسهم من الأحاسيس والمشاعر ما هو كفيل بأن يغير مجرى الحياة . ولـكن ما لنا وللرئيس ! لقد هجر المعبد وهجره معه الأمل فى عودة الحال سيرتها الأولى .

وهكذا يا بنتى ظلت أمور المعبد تسير من فساد إلى فساد ، ومن يأس إلى يأس ، حتى نصبوا عليهم أخيراً شرهم خلقا وأبلدهم حساً ، وأضيقهم أفقاً . رجلا لا يدرى من أمور الدنيا إلا ما يفيده وينفعه نفعاً ماديـًا . إنه كبعض حيوان الصحراء الذى لا يفيق من نومه إلا على خطر يهدد حياته ، وإذا هذه الغفلة الطويلة والنوم العميق يستحيلان إلى يقظة وذكاء لا قبل لهذا الحيوان بهما . فإذا ما زال الخطر عاد يغط فى نومه وينعم بغبائه من جديد . ولا تسألى عما أفسد فى نفوس أهل المعبد وأموره ؛ فكما أن الروح السامى يرفع من حوله إلى عليين كذلك ينزل الروح الشرير بمن حوله من ضعاف النفوس إلى أسفل سافلين . ووصلت الحال أخيراً إلى ما قد سمعتِ من صوت ، وما رأيت من مناظر .

قلت : سيدى ولماذا ولوا عليهم شرهم ؟ قال : إنه أمر السلطان . لقد كان أهل المدينة يرسلون خيراتهم إلى أهل هذا المعبد وهم يرونها قرباناً لأهله وتقرباً إلى الله وسدنته ، وكثيراً ما أسفوا على أنها ليست أكثر مما يرسلون بالفعل . ولـكنهم اليوم ، بفضل سوء الحال عندهم وفى المعبد نفسه ، أصبحوا يحسون أنهم يدفعون

إلى أهله مالا يستحقون ويمنون عليهم بما ليس لهم فيه حق . وسدنة المعبد لا يهمهم من هذا شئ . إنهم ساعون دائماً لملء بطونهم حتى يغطوا فى نومهم ، وتضخيم أصواتهم إذا ما أفاقوا . وهم يرون فى ضخامتها جلالا ، وفى نكرها إشعاراً بعظمتهم ، وهذه أصواتهم تعلو من جديد ، إنصتى إليها .

قلت : سيدى ولكن أليس عندك أنت أمل فى عودة الحال ؟ قال : إنى لأعرف إلا ماضياً وحاضراً ، أما المستقبل فلا يكشف لى عنه إلا سدنة مخلصون ، وقد مات هؤلاء من دنياى . قلت : ولكن تلك القلة من شبابه ألا تصحو يوما ؟ قال : من يدرى ! . . نعم من يدرى !

ثم عاد يداعب رماله بعوده من جديد . وخفتُ أن يصمت فقلت : ولكن أليس هناك ما يمكن أن يعمل ؟ ولكنه لم يجب . ولو قد أجاب لضاع صوته فى تلك الصيحة المنكرة التى سدت الآفاق من سدنة المعبد ، تثير فى النفس خوفاً واشمئزازاً بعيدين كل البعد عن الإجلال أو الإعظام . قلت : سيدى ! ولكن الشيخ ظل كما هو لا يتحرك . وفجأة هبت الريح قوية أول الأمر ثم عاتية قاسية حتى رفعت كثيراً من رمال الصحراء إلى آفاق السماء ، فأقفلت عينىّ حتى لا تعميهما ذرات التراب ، فاذا الخوف يبلغ منى مبلغاً عظيماً ؛ فهذه أصوات منكرة وسط الظلام ، وتلك رياح عاتية تكاد تقتلعنى من الأرض . وصحت فى خوف : سيدى أين أنت ؟ ولكنى لم أسمع لنفسى صوتاً . وازدادت العاصفة قوة ، فاذا بى أندفع إلى حيث لا أدرى ، أعدو كأنما الرياح هى التى تحملنى .

وفجأة وجدت نفسى على أبواب المدينة وقد كاد النهار الطويل أن ينتهى . وعدت إلى بيتى متعبة ، ومنظر المعبد وشيخه وحديثهما ، بل الصوت المنكر ، ملء نفسى وخيالى . وما كاد الصباح يلوح هادئ النسيم ، كأنما الطبيعة تستريح من جهاد عاصفة أمس ، حتى أسرعت إلى الصحراء أبحث عن المعبد وشيخه فلم أجد لهما أثراً . وطال بحثى وتجوالى حتى كلّت قدماى ، وعاودت البحث مساء وصباحاً أياماً وأياماً بلغت أشهراً وأعواماً حتى يئست من أمرها . ترى ابتلعتهما عاصفة الصحراء أم حملتهما إلى صحراء أخرى من صحارى الأرض . ولما بلغت حيرتى أشدها شككت فى أمر نفسى ، فسألتها : أرأيتهما فعلا واستمعتْ إلى الشيخ حقًّا ؟ قالت : أما ذاك فليس فى أمره شك . قلت : ولكن أين ذهبا . قالت : أما المعبد فلا يمكن أن يكون قد رفع على متن الريح . وأما الشيخ فقد

كان أكثر تعلقاً بالأرض ولصوقاً بها من أحجار المعبد على ضخامتها . قلت : إذن أين هما ؟ قالت : فى الصحراء . قلت : وما لى لا أراهما ؟ قالت : إنها صحراء صامتة خرساء قاحلة جرداء ، ولكن عليها أزخر حياة وملؤها أشهى حديث ، ولا يحس حياتها ولا يسمع حديثها إلا من أحبها ، ونسى نفسه فيها . قلت : وهل أحب الصحراء مثلى أحد ؟ قالت : أنسيت العاصفة وما أثارته فيك من خوف واضطراب ! مما فررت ؟ وعلام حرصت ؟ أعلى الصحراء ؟ قلت : لقد زالت العاصفة . قالت : ولكن آثارها لا تزال . وهل يزول فى الوجود شىء .

سهير القلماوى

تاريخ يعيد نفسه فى شرق الأردن

يتفق الجغرافيون والمؤرخون فيما بينهم على كثير من الأشياء ، ولكنهم يختلفون على أمر واحد خطير ، يتصل بتقدير ما بين الإنسان والبيئة من علاقة ، وبتفسير حوادث التاريخ واتجاهاته الأساسية . فهل البيئة الجغرافية بمظاهرها المختلفة هى المسئولة الأولى عن توجيه نشاط الإنسان ، وتعريف حوادث التاريخ ، وتحديد اتجاهاته ؟ أم إن الإنسان ، فرداً أو جماعة ، هو سيد الطبيعة ، والمسيطر الأول على الحوادث والتاريخ ؟ وأصحاب الجغرافيا مهما اختلفت نزعاتهم ميالون بحكم دراساتهم إلى تغليب أثر البيئة . بل يذهب بعضهم إلى إقرار ما يسمونه « بالحتم الجغرافى » . فالجماعات البشرية فى نظرهم مسيرة بحكم ما تعيش فيه من ظروف طبيعية ؛ فالإنسان مهما كدح ومهما اجتهد فإن الطبيعة هى الغالبة . ولئن كان هذا الإنسان قد استطاع أن يحوِّر بعض مظاهر الطبيعة بين حين وحين ، فإن ذلك التحوير لم يخرج بها عن قواعدها الثابتة وقوانينها الحاكمة . وغاية ما هنالك أن الإنسان استطاع بذكائه أن يستغل موارد الطبيعة الصالحة ، فبدا كأنه المتحكم فيها ؛ مع أن الأمر قد يكون غير ذلك ؛ فالطبيعة ذاتها كثيراً ما توحى إلى الإنسان طريق الاستغلال ، فتوجهه من حيث لا يشعر .

وأما أصحاب التاريخ فيندر بينهم من يبدأ بالبيئة ، أو يسلم لهم بأكثر من تأثير ثانوى . وكثرتهم تفضل ، بحكم الدراسة أيضاً ، أن تبدأ بالإنسان على أنه كائن حر التصرف ، فى حدود ما تقضى به القوانين والنظم الوضعية ، أى التى تواضع عليها الناس . بل إن حوادث التاريخ فى نظر كثير من هؤلاء المؤرخين إنما ترتبط ارتباطاً مباشراً بأعمال الناس ، التى توجهها فى الغالب إرادة نفر قليل هم قادة المجتمع وكتّاب التاريخ .

ولكن الحق أن هذا الاختلاف بين الجغرافيين والمؤرخين لا يشملهم جميعاً ؛ وإنما هناك فئة من أولئك وهؤلاء ترى فى هذا الاختلاف لوناً من ألوان التعصب

الفكرى لامسوّغ له ، ولانفع فيه ؛ بل هو يناقض ماتقضى به روح العلم الصحيح من اتساع الأفق ورحابة الفكر ، ومن الاستعداد دواماً للأخذ والعطاء وتقليب الفكر بين الإقناع والاقتناع . وليس أضر على العلم والمتعلمين ، ولا أشر على البحث والباحثين ، من ضيق الفكر والتعصب لرأى معين أو مجموعة معينة من الآراء . ومن يدرينا ! فقد تكون التفرقة بين الإنسان والبيئة فى حد ذاتها أمراً لامسوّغ له ؛ بل قد يكون الفصل بينهما وهماً لاوجود له فى الواقع . فالإنسان عنصر أساسى من عناصر البيئة بمعناها الأشمل ، وبدونه لا تكتمل صورتها العامة ، ولايكون للحياة على سطح الأرض طابعها المميز من وجهة نظر الجغرافى والمؤرخ على السواء . وليس من الممكن عقلا أن نتصور تاريخاً يجرى فى الطبيعة لو أنها عقمت من الإنسان ، ولا أن نتخيل أن الانسان يستطيع أن يخلق تاريخاً لو أنه عاش فى الفضاء . وإذن فقد يكون عبثاً أن نفصل بين الاثنين ، أوحتى أن نحاول المفاضلة بينهما ؛ فقد تكون الطبيعة هى العنصر الغالب فى مكان ما ، وفى زمان معين ، فيجرى النشاط البشرى فى حدود معينة مرسومة ؛ أو قد يكون الانسان هو العامل الأول فيستغل الطبيعة حيناً ، ويستجيب لها بمحض إرادته حيناً آخر . ولكن الشئ المهم أن النشاط البشرى فى جملته إنما هو نتيجة لما يتم بين البيئة والإنسان من تفاعل ، لا يهم فيه كثيراً أن تكون الطبيعة موجبة والإنسان سالباً ، أو أن يكون الأمر عكس ذلك .

وإذا نحن نظرنا إلى تاريخ البشر هذه النظرة ، فقد يعيننا ذلك على تلمس ماقد يكون هناك من حقيقة فى الحجة القائلة بأن التاريخ يعيد نفسه . ذلك أن التفاعل بين البيئة والإنسان مهما اختلفت ظروفه التفصيلية فهو لايخلو من بعض العناصر الأساسية الدائمة . فطبيعة البيئة الجغرافية من جهة ، وطبيعة النفس البشرية من جهة أخرى ، لا تتطور إلا فى بطء شديد ، ولا تتحور إلا بقدر معلوم ؛ وإذن فلابد من أن تتشابه نتائج التفاعلات بينهما من عصر إلى آخر ، فى المكان الواحد والمجتمع الواحد على الأقل .

وبقدر ما يطول التاريخ البشرى فى إقليم ما، تتعدد الأدلة والشواهد فيه على تشابه الحوادث وتكرارها على مر العصور . وظاهر أن الشرق الأدنى أحد تلك الأقاليم التى يطول فيها التاريخ . وقد يكفينا أن نبحث منه منطقة واحدة صغيرة لنتبين تشابه بعض أوجه التاريخ وصوره من عصر إلى عصر . وسنختار إحدى

مناطقه الداخلية ، والتى كانت بمثابة حلقة اتصال بين أطرافه فى الشرق والغرب وفى الشمال والجنوب ... تلك هى منطقة شرق الأُرْدُنّ ، التى كان تاريخها إلى حد بعيد صورة واضحة من تاريخ الاتصال بين مختلف أجزاء ذلك الشرق ، وارتباطها بعضها ببعض ارتباطاً شمل نواحى الحياة التجارية والثقافية والسياسية جميعاً .

ويقع شرق الأردن فى قلب القسم الشمالى من الشرق الأدنى ؛ ويحتل الحافة الشرقية لمنخفض البحر الميت ، وهى مرتفعات مؤاب الوسطى ، وما يليها جنوباً فى بلاد إدوم القديمة ووادى العرابة ، وشمالا فى شعاب اليرموك وروافده التى تنتهى إلى سهل الأردن . ويبلغ بعض مرتفعات مؤاب أكثر من ١٥٠٠ متر فوق سطح البحر ؛ وهى تتلقى الرياح الغربية الممطرة فى الشتاء ، فتنصرف مياهها فى أودية عميقة شديدة الانحدار نحو البحر الميت من جهة ، وفى أودية أخرى قليلة الانحدار ، تتجه نحو بادية الشام وأطراف صحراء النفود من جهة أخرى . وهذه المرتفعات تكسو جوانبها الخضرة والأعشاب فى أشهر الشتاء والربيع ؛ وتجود فى أوديتها وأحواضها التربة ، ويطيب الغرس والزرع ولو فى بقاع محدودة بالنسبة للمساحة الكلية . ولذلك كانت هذه المرتفعات قاعدة لحياة تمثل فيها جانب البداوة والتنقل ، وجانب التحضر والاستقرار . وقد حماها البحر الميت ومنخفضه ؛ فمنع عنها ما وقعت فيه أرض فلسطين من اضطرابات شغلت التاريخ إلا أقله ، كما حمتها البادية والفيافى من الشرق ، فتمت لها بذلك الوقاية ، وضمن لها الهدوء النسبى من الغرب والشرق . ومع ذلك فقد اتصلت هذه المرتفعات ببقية الشرق الأدنى اتصالا منتظما عن طريق الجنوب والشمال ؛ وأصابها من ذلك الاتصال خير كثير وشر غير قليل . بل إن موقعها الجغرافى جعل منها عقدة التقت عندها روابط الشرق ، وتعاقدت أواصره ؛ واحتكت فيها البادية بالحضر احتكاكاً لم يخل من عنف فى بعض الأحايين، ولكنه مع ذلك أنتج أطيب الثمرات.

وإلى الجنوب من مرتفعات شرق الأردن ووهاده تأتى الطرق من نواح متفرقة ؛ فيأتى طريق من الخليج الفارسى وشمال نجد وتيماء والجوف ودومة الجندل ؛ ويأتى طريق آخر من اليمن والحجاز وعين صالح وجبال مدين فى شمال الحجاز (وهو طريق رحلة الشتاء والصيف فى الجاهلية وطريق الحج بعد ذلك) ؛ ثم طريق ثالث من البحر الأحمر ورأس خليج العقبة حيث قام ميناء أيلة القديم وحيث تقوم العقبة الآن ؛ ويأتى طريق رابع من مصر وشبه جزيرة سينا أو من

ميناء غزة إلى أطراف فلسطين الجنوبية ثم وادى عرابة وأرض بطرا والنبط القدماء . أما من شمال مرتفعات شرق الأردن فيأتى طريق من العراق الأوسط وبادية الشام إلى اليرموك وشمال مؤاب ؛ وطريق آخر من العراق الأعلى وتدمر إلى دمشق وعمّان ؛ وطريق ثالث من سوريا الشماليـة وحلب وحمص إلى دمشق وأرض حوران ثم الجنوب ؛ وطريق رابع من شمال فلسطين عابر الأردن حتى يلتقى بطريق الشام ويمتد إما جنوباً وإما شرقاً وإما صوب الشمال . وهذه الطرق التى أسلفنا جميعاً يلاقى بعضها بعضاً ، أو تتقاطع على الأقل ، فى أراضى شرق الأردن . وقد سلكها التجار وحداة الإبل منذ أقدم العصور ؛ وجاء هؤلاء التجار من جميع أطراف الشرق الأدنى يحملون السلع ويجتمعون فى الأسواق ، فيتبادلون الفكر وألوان الثقافة ، وبذلك تعارف الشرق وتآلف فى كثير من الأحايين . كذلك سلكت الغزوات والحملات نفس هذه الطرق ، التى قامت عليها الحاميات ، وأقيمت فوق روابيها القلاع ، تشرف على الطرق وتحمى المسافرين وتنظم اتصال البادية بالحضر ، واحتكاك الرعاة والبدو بوسطاء التجارة والقائمين على نقط التبادل والأسواق .

وهكذا كان شرق الأردن موقع اتصال واحتكاك منذ القـدم ، واستمر كذلك على مر العصور . نفذت إليه السلطة المصرية من وقت إلى آخر ؛ وامتد إليه النفوذ العراقى فى كثير من الأحيان ؛ وحاول أهل الشام وأهل فلسطين الشماليـة وما وراءها أن يفرضوا سلطانهم عليه بين حين وحين ؛ بل إن أهل جنوب بلاد العرب والحجاز توسعوا فى أطرافه الجنوبية واستقر بهم المقام فى أكثر من مكان هناك . ولم يكن الأمر مقصوراً على هذه العناصر جميعاً ؛ وإنما امتدت الأيدى إلى شرق الأردن من أقاصى الأرض ؛ لأنه كان عقدة الشرق الأدنى ورباطه من الناحية العسكرية ؛ فنفـذت إليه جحافل الرومان وأقامت حامياتها وعبّدت طرقهـا فى ربوعه ؛ ثم اهتمت له بيزنطة فتدخلت فى شؤونه العسكرية والسياسـية إلى أبعد الحدود . ثم جاء عهد صارت فيه شؤون هذا الاقليم إلى أهله وسادته من أمويين وغيرهم . حتى إذا جاء العهد الصليبى نفذ الصليبيون من جديد إلى بعض قلاعه فأقاموا بها ، وكانت حامياتهم هناك شوكة فى جنب العرب والمسلمين . فاذا ما جاء الأتراك العثمانيون اهتموا بأمره كطريق للحج ومنفذ إلى الأراضى المقدسة . وأخيراً جاءت الإمبراطورية البريطانية ،

فاتخذ رسلها ومبعوثوها إبان الحرب الماضية قيادتهم فى فيافى هـذا الإقليم الداخلى . وانتهى الأمر فى أعقاب تلك الحرب بأن حصلت بريطانيا على حق الانتداب على هذه المنطقة العسكريه الهامة ، التى غدت قاعدة حربية من الدرجة الأولى ؛ وقد برزت أهميتها بل تضاعفت إبان هذه الحرب المنتهية . وأغلب الظن أن بريطانيا ستستمسك ببعض الإشراف العسكرى على أراضى هذا القطر الشقيق حتى بعـد أن يحصل على استقلاله المرتقب ؛ فيقوم احتفاظها بقواعدها البرية والجوية هناك وإشرافها على ميناء العقبة على أساس الاتفاق والمعـاهدة بينها وبين شرق الأردن ، بدلا من أن يستند إلى نظام الانتداب أو الوصاية أو غيرها من مظاهر الارتباط والتفويض الدولى .

ولن نستطيع هنا أن نسوق أكثر من أمثلة محدودة تبرز لنا قيمة هذا القطر من أقطار الشرق العربى ، وتبين لنا كيف أن التاريخ قد استعاد فى عهده الحديث بعض صوره واتجاهاته الأساسية فى بعض أعصره القديمة . ولم يكن ذلك إلا لأن قيمة هذا القطر كواسطة اتصال ونقطة سـيطرة على طرق الشرق الأدنى وعلى منافذ أقطاره المختلفة كانت قيمة دائمة لا طارئة ، وكانت عاملا أسـاسـياً باقياً ، أفاد منه واستجاب له سكان المنطقة نفسها ، كما أفاد منه واستغله كثير من الطامعين فى السيطرة العالمية ، وممن امتدت أيديهم إلى الشرق الأدنى فى تاريخه القديم وتاريخه الحديث على حد سواء .

وقد يكفينا فى هذا الصدد أن نعنى عناية خاصة بالموازنة بين عهـد الإمبراطورية الرومانية وعهد الإمبراطورية البريطانية . فكلتا الإمبراطوريتين كانت لها يد أى يد فى تصريف شؤون الشرق الأدنى وتوجيه تاريخه . وكلتـا الإمبراطوريتين كانت لها مصالح مادية فيما وراء ذلك الإقليم ذات اليمين وذات الشمال . وكلتاهما لم تقنع بأن تكل أمر الوساطة التجارية بين الشرق والغرب إلى العرب وغيرهم من سكان هذا الشرق ، وإنما فرضت نفسها وسلطانها عليهم فرضاً ، وتدخلت فى شؤونهم بما يضمن لتجارتها الشرقية مع الهنـد وغيرها مروراً آمناً ورواجاً مضموناً . وإذا كان التاريخ قد اسـتعاد بعض فصوله فى هـذا الإقليم بين هذين العهدين المتباعدين فان ذلك لم يكن لمجرد المصادفة أو محض الاتفاق ، وإنمـا هو قد ترتب على اجتماع عدد من الظروف والعوامل الطبيعية والبشرية الواحدة أو المماثلة فى الحالتين .

ولكننا قبل أن نصل إلى الإمبراطورية الرومانية ينبغي أن نشير إلى من سبق الرومان فى شرق الأردن ، أو فى جانب كبير منه على الأقل . أولئك الأنباط أو النبط الذين ازدهرت حضارتهم خلال ستة قرون ، كان أعظمها ازدهارا ذلك القرن الذى يتوسطه مولد المسيح عليه السلام . وكانت قاعدة ملكهم فى سلاع أو بطرا التى تقع على الحافة الشرقية لوادى العرابة ، والتى لا تزال آثارها باقية منحوتة فى الصخور الرملية الوردية اللون ؛ وهى التى نزلت فى أصحابها الآية الكريمة «وتَنْحِتُونَ مِنَ الجِبالِ بُيوتاً فارِهِينَ» . وكانت بطرا هذه عند ملتقى عدد من طرق التجارة التى أشرنا إليها من قبل ؛ فكانت سوقاً هامة أفاد أصحابها من التجارة والوساطة التجارية فى الشرق ، وأصابهم من اتصالهم بالعالم الخارجى خير كثير ، تمثل فى تلك الحياة الثقافية والفنية الراقية التى امتازت بها مدينتهم العتيدة ، حيث انعكست فى معابدها وهياكلها المنحوتة والمشيدة مؤثرات الفن الآشورى والفن المصرى البطلسى والفن الإغريقى ، بل حيث تأثرت الحياة العامة بضروب مختلفة من المدنية المادية والتنظيم الاجتماعى ، وبألوان متباينة من الثقافة العقلية والفكر الدينى ، بعضها سامى خالص توارثه النبط عن أسلافهم من الساميين القدماء فى بادية بلاد العرب نفسها ، وبعضها سامى غير خالص أخذوه عن الآشوريين فى الشمال وعن السبئيين والحميريين فى أقصى الجنوب وفى مستعمرة عين صالح فى شمال الحجاز ، ثم بعضها مصرى قديم أو بطلسى مختلط ، وأخيراً بعضها إغريقى أو إغريقى رومانى أتى عن طريق شرق البحر الأبيض المتوسط . ومع ذلك كله فإن اختلاط المدنية والفكر والثقافة لا يجوز أن ينتقص شيئاً من قيمة حضارة النبط ؛ لأن الواقع أن شرق الأردن كان بحكم موقعه النقطة الوحيدة التى يمكن أن تلتقى فيها تيارات الثقافة المختلفة . وقد أثمر هذا الاختلاط ثمراته الطيبة ؛ وكانت ثقافة النبط وكتابتهم على وجه الخصوص أساساً من أسس الثقافة العربية والكتابة العربية التى ظهرت فيما بعد . والثابت الآن أن الخط العربى المعروف قد تطور عن الخط النبطى القديم .

وعند ما ظهرت أطماع الإمبراطورية الرومانية فى الشرق القريب ، واقترنت تلك الأطماع بمصالحها التجارية فى الهند ، ومصالحها الأخرى فى بلاد الشرق الوسيط ، لم يقتنع أباطرة روما بأن تكون لهم قدم راسخة فى مصر وشمال البحر

الأحمر ، وإنما أدركوا أن حماية المصالح حماية كاملة تقتضى أن تمتد يدهم إلى شرق البحر المتوسط وشمال بلاد العرب ، ليضمنوا السيطرة على طرق القوافل ويؤمنوها للمسافرين من جهة ، وليمدوا أيديهم من هناك إلى رأس الخليج الفارسى ويشرفوا على بعض موانيه من جهة أخرى — والخليج الفارسى كان إذ ذاك ، كما هو اليوم ، أحد الطرق المؤدية إلى الهند ، بلاد الثروة والغنى ، ومورد كثير من النفائس والطيبات ! — وهكذا استقر رأى تراجان إمبراطور روما على أن يضع يده على مملكة النبط ؛ فغزا بلادهم فى عام ١٠٦ الميلادى ، واستولى على عاصمتهم ، ثم على ميناءهم فى أيلة ؛ ومد يده آخر الأمر إلى طرف الخليج الفارسى .

وتحول شرق الأردن إلى ولاية رومانية ؛ وبقى كذلك ، أو فيما يشبه ذلك ، بضعة قرون . وعُنى الرومان بشأنه عناية خاصة ؛ لأنهم أدركوا قيمته العسكرية والتجارية إدراكا كاملا صحيحاً . وقد وطدوا نفوذهم فيه وحافظوا على سيطرتهم عليه بعدة وسائل : منها أنهم أقاموا الحاميات القوية فى عدد من مواقعه الهامة ، حيث بنوا القلاع والثكنات ، وشيدوا الهياكل والملاعب وغيرها مما لا يزال قائماً فى جَرَش شمال عمّان ، وفى فيلادلفيا وهى عمّان نفسها ، ثم فى پترا وهى سلاع أو بطرا التى تعرف الآن بوادى موسى . ومن وسائل الرومان أيضاً أنهم مدوا الطرق الرومانية المعبدة والمرصوفة رصفاً جيداً يسمح بمرور العربات الحربية وانتقال الجند ونقل العتاد وغير ذلك ، ولا تزال بقايا تلك الطرق قائمة حتى اليوم . ومنها أنهم جندوا الأعراب والبدو ، واتخذوا منهم جنوداً مرتزقة ، هم أقدر على العمل ، وأقوى فى الحرب وأعمال الحراسة وحملات التأديب فى البادية من جنود الإمبراطورية غير الأعراب . ومنها أنهم شجعوا حياة الحضر المستقرة على حساب حياة البادية المتنقلة ، فحفروا الآبار وبنوا الصهاريج ، وشجعوا الملكية الصغيرة ؛ فاستوطن البدو ، وبنوا بيوت الحجر الثابتة بدلاً من بيوت الشعر المنقولة ؛ فسهل بذلك حكمهم ، وسلس قيادهم . ثم منها كذلك ، وقبل ذلك ، تشجيع الرومان لعناصر « التمدن » وألوان الثقافة الجديدة فى أن تتوغل فى حياة الأعراب ، لا سيما بعد أن اعترفت الإمبراطورية بالمسيحية فى القرن الرابع ، فانتشرت ديانة المسيح بين أعراب البادية تدريجيا منذ أواخر ذلك القرن ، وانتشر معها شىء من روح المسالمة بين أعراب كان كفرهم من قبل منكراً ، وكان مراسهم شديداً . كل هذه وغيرها وسائل عمد إليها الرومان الغربيون

والبيزنطيون الشرقيون من بعدهم لضمان سيطرتهم على هـذا القسم من بلاد العرب. ولـكن الشئ الغريب — أو لعله ليس غريباً — أنها كلها قريبة جداً مما تبعته الإمبراطورية البريطانية فى الإقليم نفسه من وسائل كان القصد منها أن تؤدى إلى غاية رمى إلى مثلها الرومان منذ قرون وقرون.

ولـكن الرومان لم يلبثوا أن أدركوا أنهم لن يستطيعوا أن يثابروا على حكم البلاد كولاية رومانية، وأنه خير لهم وأبقى أن يستعينوا بالبدو أنفسهم وبسادتهم فى حكم البلاد. وهكذا صالح الروم القبائل ورحبوا بتنوخ من قضاعة، عند ما جاءوا من جنوب بلاد العرب إلى خليج فارس ثم حدود الفرس فحدود الروم حيث نزلوا فى أواسط القرن الثالث الميلادى؛ كما رحب الروم بعد ذلك بظهور الغساسنة، وتأسيس ملـكهم على حدود الإمبراطورية، وفى ظل حكم بيزنطة الاسمى. وقد وجد الروم فى إمارة الغساسنة ومملـكتهم بعد ذلك أداة طيبة تحمى حدودهم من ناحية البادية، وناحية الفرس وعملاء الفرس فى أرض الحيرة المقابلة على الجانب الآخر من بادية الشام. وبلغ من تشجيع بيزنطة لغسان أن توجت المنذر بن غسان ملـكا على العرب حول عام ٥٨٠ الميلادى ... ولـكن المهم أن نهضة غسان لم تكن كلها راجعة إلى الروم وتشجيعهم، وإنما هى كانت راجعة أيضاً إلى العرب أنفسهم إذ ذاك. فقد عرفوا كيف يستفيدون مما حولهم من ظروف، وتحكموا فى تجارة الروم وإمبراطوريتهم الشرقيـة، وأفادوا من موقعهم الجغرافى إلى حد بعيد، وأقاموا مجدهم على أساس من النهوض بالحياة فى مظاهرها المختلفة، لا سيما ناحية الفكر والثقافة. فـكان بلاط غسان مركزاً تطور فيه الأدب والفكر العربى قبل الإسلام؛ وكان صنوه فى ذلك بلاط ملوك الحيرة اللخميين على حدود إمبراطورية الفرس فى العراق.

فإذا ما نحن تركنا هذا العهد، وانتقلنا إلى عهدنا المعاصر، وظهور نفوذ الإمبراطورية البريطانية فى هذا القسم من الجزيرة العربية، وجدنا صورة من التاريخ لما تتم فصولها، ولما يتكامل مظهرها النهائى، ولـكنها قريبة الشبه بما حدث فى عهد الرومان الغربيين والروم الشرقيين. وقد بدأ البريطانيون يلتفتون إلى الشرق القريب فى أعقاب حملة نابليون. وحاولوا أن يمدوا يدهم إليه، ولـكنها كانت محاولات مترددة. فأتوا إلى مصر مرة أو مرتين فى مطلع القرن التاسع عشر، ولـكنهم رُدُّوا عنها أو ارتدوا عنها؛ لأنهم لم يكونوا فيها

يظهر جادين فى أمرها ، كما كان الرومان تماماً أيام وفد يوليوس قيصر على مصر ثم رجع عنها . ثم جاء البريطانيون إلى مصر مرة أخرى فى أيام الثورة العرابية ؛ ولكنهم كانوا قد استيقنوا من أمرهم وأمرها ، وآمنوا وصدقوا بقيمتها ، فعقدوا النية على أن تكون لهم هذه المرة ! وكذلك تماماً فعل الرومان أيام واقعة أكتيوم ! وفوق ذلك فقد قنع الانجليز بمصر وبقناة السويس وطريق البحر الأحمر ؛ وبقوا كذلك ثلث قرن كامل قبل أن يفكروا بطريقة جدية فى أمر طريق الهند الآخر عبر بلاد العرب الشمالية إلى رأس الخليج الفارسى . ومثل هذا حدث أيام الرومان وإن كانت الفترة بين فتح مصر وفتح بطرا والوصول إلى خليج فارس طالت إذ ذاك إلى قرن وثلث قرن .

وحانت الفرصة مواتية لبريطانيا إبان الحرب العالمية الأولى . ولعل هذه الحرب ، وما طمعت فيه ألمانيا من الوصول إلى الهند عن طريق أملاك الإمبراطورية التركية والعراق بنوع خاص ، هى التى استعجلت اهتمام بريطانيا بشمال الجزيرة العربيـة ، وجعلت البريطانيين يسبقون الرومان فى ذلك بقرن كامل ؛ مع أن الرومان ، والحق يقال ، لم يكونوا أقل من غيرهم حذقاً لشؤون السيطرة وفنونها . وقد بدأت بريطانيا سبيلها إلى التدخل العسكرى فى شؤون العالم العربى بأن استعانت بالعرب أنفسهم ، واستنجدتهم ضد الأتراك ، بعد أن بذلت لهم من الوعود ، وأخـذت على نفسها من العهود ما هو معروف . وقد أرسلت بريطانيـا عملاءها ومبعوثيها ، وبينهم لورنس الشهير ، فجندوا البدو وسلحوا الأعراب فى قلب البادية ، وهاجموا مؤخرة الجيوش التركية فى جنوب شرق الأردن ووسطه ؛ وكأنهم بذلك قد دللوا على حصافة هيئة قيـادتهم ، وحسن استقرائها للظروف الجغرافية العسكرية ، عنـد ما وضعت أصابعها على مفتاح الموقف فى الشرق العربى الشمالى . ومهما قيل عن القيمة النهائية لمناوشات لورنس وأصحابه فى قلب البادية ، فليس من شك فى أن أقل ما فعلته أنها نفخت فى أعراب البادية ، وألهبت فيهم روح الثورة والـكفاح ، مما انتهى آخر الأمر إلى إذكاء ثورة العرب ، وزعزعة حكم الأتراك من الأساس .

وعند ما استقر الأمر لبريطانيـا بالانتداب على شرق الأردن عمدت إلى تمكين سلطتها وسلطانها بوسائل كثيرة : منها أنها أقامت الحاميات والمعسكرات والقواعد الجوية فى كثير من مواقعه ، لا سيما عمّان نفسها ، التى لم تلبث أن

برزت قيمتها من جديد عند ما جعل منها سمو الأمير عبد الله عاصمة للإمارة.
ولا يملك من يزور عمان، خليفة فيلادلفيا ووريثة موقعها، إلا أن يلحظ على إحدى ربوات المدينة موقع الحصن والحامية الرومانية القديمة، وأمام آثارهما بأسفل الوادى مدرج الملعب الرومانى القديم، وكنيس كان الجند فيما يظهر يؤدون فيه بعض ما عليهم من عبادة. فإذا انتقل الزائر إلى ربوة أخرى من ربوات المدينة وصعد إلى سطحها المستوى وجد قاعدة قوة الطيران البريطانية، ووجد قبل ذلك معسكر الجيش العربى، وإلى أسفله مسجد هذا الجيش. فإذا دقق الزائر استطاع أن يتعرف على آثار الطرق القديمة ومعالم اتجاهاتها الأساسية، وهى الطرق التى حددت موقع المدينة منذ نشأتها الأولى؛ ولا تزال الطرق الحديثة تتبع نفس الاتجاهات، فتشخص إلى بغداد والشام، أو تأتى من فلسطين، أو تتجه نحو الجنوب إلى رأس خليج العقبة. وقد مد البريطانيون من الطرق العسكرية مثل ما مد الرومان من قبلهم. وكثيراً ما يلحظ المسافر على الطريق الحديث آثار الطريق الرومانى المرصوف تجرى فى محاذاته. ولم يكن الرومان فى إدراكهم قيمة شق الطرق وتعبيدها كأداة للفتح والاتصال أقل من خلفائهم البريطانيين؛ بل إنهم ربما كانوا أحذق منهم إذا راعينا الزمن الذى عاشوا فيه؛ وهذه بعض طرقهم لا تزال قائمة بعد أن مضى عليها ما يكاد يقارب ألفى عام.

كذلك لم يقف البريطانيون عند شرق الأردن؛ وإنما مدوا نفوذهم إلى خليج فارس كما نعلم؛ بل إلى خليج العقبة نفسه، حيث مكنوا لإمارة شرق الأردن من أن تحتفظ بميناء العقبة؛ لأنه مهم من وجهة نظر الأسطول البريطانى، وكذلك لأنه قاعدة لتهريب الأسلحة بالبحر إلى البدو فى الصحراء. وربما كان هذا هو السر فى أن بريطانيا وقفت إلى جانب شرق الأردن عند ما طالبت المملكة العربية السعودية بذلك المرفأ على أنه تابع لساحل الحجاز ومملكته السابقة.

ثم إن بريطانيا قد استعانت بالبدو فى حراسة الطرق وتأمينها، وفى تمكين الأمن ونشره، كما فعل الرومان تماماً. وهداها ذلك إلى تأليف الجيش العربى، والإنفاق على تسليحه من الخزانة البريطانية. ويقال إن هذا الجيش يبلغ الآن زهاء ثلاثة عشر ألفاً؛ بل يقال إنه قد بلغ الثمانية عشر ألف رجل، وإنه مزود بأحدث الأسلحة؛ وتتولى قيادته هيئة من الضباط البريطانيين. كما يقال إن

بريطانيا استخدمته وأفادت منه فى إخماد ثورة العراق فى الشرق ، وفى احتلال سوريا والشام فى الشمال ، وفى حراسة حدود فلسطين ضد تهريب اليهود من الشمال الغربى ، كما أنجدت به ، أو ببعضه ، جيشها الثامن فى مصر يوم تحرجت الأمور . ولعل هذا فى حد ذاته يكشف لنا عن قيمة موقع شرق الأردن كقاعدة عسكرية يمكن أن تنبعث منها الجيوش والقوات إلى مختلف أرجاء الشرق العربى الشمالى فى كل اتجاه .

كذلك انتهى الأمر ببريطانيا — أو لعله بدأ معها ، لأن البريطانيين كانوا أحكم من الرومان من هذه الناحية — بأن أدركت أن من غير الممكن ولا اليسير أن تحكم الإمبراطورية شرق الأردن كما تحكم الولايات والمستعمرات ؛ فالعرب ، وأهل البادية منهم بصفة خاصة ، لم يخلقوا لمثل ذلك ؛ ويظهر أن الله لم يجبلهم على ما جبل عليه غيرهم من أهل المدنية والحياة الناعمة ؛ فهم لا يتقبلون الضيم ولا يرتضون الحكم الخارجى المباشر . ولذا عمدت بريطانيا منذ البداءة إلى ما لم يعمد اليه الرومان إلا بعد حين وبعد دروس . فتركت بريطانيا حكم البلاد الداخلى لأمير شرق الأردن وسيده الجديد ؛ ومدت إليه يد المعاونة فى أن يوحد الأعراب ويجمع كلمتهم فى هذا الوطن الناشئ الصغير ، الذى لا يزيد سكانه على ثلث مليون . وفوق ذلك فان العرب من جانبهم لم يدعوا كل أمورهم للبريطانيين ؛ وإنما أخذوا كثيراً من أسباب نهضتهم بأيديهم ؛ واستطاع أميرهم أن يشيع فى بلاده وشعبه نهضة مادية وأدبية وقومية عامة يلمسها من يزور هذا القطر العربى . والطريف أن هذه النهضة الحديثة تشبه من وجوه كثيرة ما سبقها من نهضات فى عصور التاريخ الغابرة ، وأنها تستعيد نهضة ألفى سنة بنوع خاص . فالأراضى الزراعية بدأت تتسع على حساب الفيافى والقفار ، لا سيما فى وادى الأردن نفسه ، وفى بعض الأودية والبقاع المرتفعة حيث يزيد المطر زيادة نسبية ، وحيث تجود التربة فى كثير من الجهات . وحياة الزراعة والاستقرار بدأت تعم على حساب حياة البادية والتنقل وراء الكلأ والمرعى ؛ وبيوت الحجر أخذت تظهر وسط بيوت الشعر وخيام الوبر . وطرق التجارة بدأت تفتح وأسواقها تروج وتعمر . وثروة البلاد المعدنية بدأ البحث عنها واستغلالها . وموقع البلاد الجغرافى كقاعدة للتبادل والتجارة مع داخلية بلاد العرب أخذ يبرز من جديد ، ويفيد من أصحاب البلاد وسكانها . والنهضة الاقتصادية بصفة عامة ظهرت آثارها

ودلائلها لكل زائر ، حتى لو كان سائحا لا يعنى بغير المظهر . ويكفى أن يسير المرء فى شوارع عَمَّان أو غيرها من مدن شرق الأردن ، أو حتى أن يزور بعض نجوع الأعراب ليرى بنفسه كيف أن مستوى الكسب والمعيشة فى هذا القطر الداخلى من العالم العربى لا يقل عنه فى نظرائه من أقطار بلاد العرب بما فى ذلك مصر [1] . كذلك نهضة البلاد التعليمية والثقافية تسير على منهج يبشر بخير كثير . وقد يكون من الطريف — والمفيد أيضاً من وجهتى النظر المصرية والعربية العامة — أن نلحظ أن ميزانية وزارة المعارف فى شرق الأردن لا تزيد كثيراً على خمسة وأربعين ألفاً من الجنيهات . ولكن تلك الوزارة تعلم بذلك المبلغ ، أو تشرف على تعليم ، اثنين وعشرين ألفاً من التلاميذ ؛ لا يمكن أن يقال إن تعليمهم ينقص فى كيفه وقيمته عما تقدمه وزارة المعارف فى مصر أو العراق مثلا لتلاميذها . وآية ذلك ، أو إحدى آياته ، أن شباب شرق الأردن ، ممن لا يكلف الدولة تعليمهم أكثر مما يعادل جنيهين مصريين اثنين للتلميذ فى السنة ، يتمون تعليمهم الثانوى فى بلادهم ثم يحضرون إلى مصر فيتابعون دراستهم فى إحدى جامعاتها على خير ما يتابعه الطلاب الجامعيون من أبناء مصر . وفى ذلك مثال طيب يحسن أن تدرسه وزارة المعارف فى مصر إن كانت تريد أن تحتفظ بمكانتها من زيادة النهضة التعليمية فى الشرق العربى [2] .

---

(١) أمضى كاتب المقال أياماً متنقلا فى شرق الأردن منذ ثلاثة شهور ؛ ولمس فيها استطاع أن يلمس هذه الناحية بالذات . ويكفى أن نذكر أن متوسط أجر العامل العادى فى عمان لا يقل الآن عما يعادل أربعين قرشاً فى اليوم ، وكان قبل الحرب عشرة قروش . وقد ساعدت الحرب على رفع الأجور ، ولكنها لم تكن العامل الوحيد فى ذلك ؛ فارتفاع الأجور فى شرق الأردن يمثل ارتفاعاً حقيقياً فى مستوى الكسب والمعيشة العامة ؛ أو على الأقل هو أدنى إلى أن يمثل ذلك من الحالة فى بلد كمصر . وفى شوارع عمان لا يرى الزائر أكثر من ١٥ ٪ من الحفاة بالنسبة لمجموع السكان ؛ ولا يكاد يرى غير قليل من آثار سوء التغذية والفاقة بين طعام أهل المدينة . وكذلك الحال إلى حد ظاهر فى البادية .

(٢) ينفق الجانب الأكبر من ميزانية التعليم فى شرق الأردن على المعلمين أنفسهم . فلا يقل راتب المعلم عن ستة جنيهات فى الشهر بحال ، ولو كان فى أصغر مدرسة ؛ ولا يزيد كذلك على أربعة وعشرين . وفى ذلك من إنصاف هذه الطائفة وتحقيق العدالة الاجتماعية شىء كثير . بل إن ذلك ربما كان أحد أسرار نجاح التعليم فى تلك البلاد رغم مواردها الحكومية المحدودة .

أرأيت معى ياصاحبى القارئ كيف أن التاريخ يعيد نفسه فى شرق الأردن؟ وكيف أن الحاضر، وما يلابسه من ماض قريب ومن مستقبل قريب أيضاً، يمكن أن يعتبر مرآة لبعض ما كان فى الماضى البعيد من صور ومن فصول؟ ثم أرأيت معى أيضاً أن تجدد التاريخ واستعادته نفسه أمر طبيعى فى كل هذا الشرق القريب ذى الحضارة العريقة والتاريخ الطويل؟ إن كان ذلك فلعلك توافقنى على أن من المفيد أحياناً أن ندرس بعض تاريخنا، وأن نراجع صفحاته؛ فقد يكون فى ذلك ما ينير السبيل أمامنا فى استشفاف بعض ما ينتظر أن يكون عليه المستقبل! وما أشد حاجتنا فى هذه الأيام، وفى هذا الشرق العربى كله، إلى أن نستبين معالم هذا المستقبل، ولو من بعيد!

سليمان حزين

رحلة فى برقة (١)

لمحة تاريخية

تاريخ برقة من الموضوعات التى شملها الغموض والإهمال بين جمهور المؤرخين، بالرغم من أن المصادر التاريخية تشير بوضوح إلى ماكان لهذا الإقليم من مجد تالد ومدنية عريقة فى العصور الغابرة . ويرجع أقدم عهدنا بظهور برقة على مسرح الحوادث فى حوض البحر الأبيض المتوسط إلى القرن السابع قبل الميلاد ، حينما نزل جماعة من الإغريق من سكان جزيرة ثيرا من بحر إيجه على سواحل برقة ، واستوطنوا بها ، وأسسوا فى سنة ٦٤٠ ق. م. مدينة قورينا (الشحات) ، وهى أول المدن الخمس التى اشتهرت فيما بعد باسم « بنطابوليس » . بذلك تدخل برقة ضمن نطاق النفوذ الإغريقى الشرقى القديم فى الوقت الذى يلاحظ فيه أن طرابلس تذهب إلى الفينيقيين المقيمين غرباً من قرطاجنة . وبعدئذ تتوالى الأحداث والغزوات التى تعزز هذا الاتجاه الشرقى فى برقة منذ بداءة تاريخها . فغزوة قمبيز لمصر سنة ٥٢٥ ق. م. يتلوها خضوع برقة لسلطانه ، وما حدث فى عهد قمبيز يتكرر بشكل أقوى وأوضح عند غزوة الإسكندر المقدونى لمصر

---

(١) أرى من واجبى وأنا فى صدد الكتابة لأول مرة عن هذه الرحلة أن أبدأ بتقديم شكرى وتقديرى لجميع من تفضلوا بمساعدتى خلال مدة إقامتى فى برقة ، سواء فى ذلك رجال الحرب الذين يديرون دفة الحكم هنالك فى الوقت الحاضر ، وإخواننا العرب الذين يعيشون اليوم فى أمن وطمأنينة . وأريد أن أخص بالذكر فى هذا المقام والى برقة البريجادير د. س. كامنج Brigadier D. C. Cumming الذى لم يأل جهداً فى تسهيل مهمتى بكل الوسائل الممكنة ، فقد وضع تحت تصرفى عربة خاصة أتوجه بها حيثما شئت ، وأرسل معى مرشداً من رجاله الممتازين الذين يعرفون برقة وآثارها حق المعرفة ، كما أنه أنزلنى ضيفاً مكرماً فى نوادى ضباطه وفى دور الحكومة بالأقاليم حيثما حللت . وإنى لولا هذه العناية الفائقة لما استطعت أن أقوم فى أسبوعين فقط بما كان يصعب على القيام به فى شهور لو أننى اعتمدت على وسائل النقل البدائية فى بلاد واسعة الأرجاء لا تكتنفها الطرق الحديدية أو المواصلات السهلة الحديثة .

سنة ٣٣١ ق. م. ، وتظل برقة فى أيدى البطالسة إلى أن تنتقل هى ومصر ذاتها لحكم الرومان سنة ٣١ ق. م. والحكم الرومانى فى برقة فاتر فى مجمله ، لايصحبه ذلك النشاط التجارى والإنتاج الزراعى الذى كانت البلاد تمتاز به فى العصر السابق . وأهم حادث فى القرون المسيحية الأولى هو ثورة اليهود التى اندلع لهيبها فى طول البلاد وعرضها سنة ١١٥ ميلادية ، عندما قام نحو خمسين ألف يهودى مساحين يقيمون فى برقة ، وانتهزوا فرصة غياب الإمبراطور تراجان وانشغاله فى حروبه الشرقية على حدود فارس ، فذبحوا الأهلين الآمنين، وأخذوا فى تخريب المدن الإغريقية الزاهرة تخريباً منتظماً لمدة عامين كاملين، حتى قيل إن برقة لم تستطع منذ تلك الحركة اليهودية العابثة استعادة مكانتها من العالم القديم فى القرون السابقة . وفى سنة ٢٩٧ م. عندما قسم دقلديانوس الإمبراطورية الرومانية إلى قسميها الشرقى والغربى ، تذهب برقة مع مصر إلى القسم الشرقى البيزنطى ، وتبقى فى حكم أباطرة القسطنطينية إلى أن تدخلها جحافل العرب الظافرة بقيادة عمرو بن العاص فى سنة ٦٤٢ م. ولكن الفتح العربى لم يغيّر كثيراً من عادات الناس وعقائدهم وطرق معاشهم فى برقة إلى نهاية القرن العاشر الميلادى ، غير أن قبائل البدو المعروفة باسم بنى هلال وبنى سليم تهاجر من الجزيرة إلى مصر فبرقة فى القرن الحادى عشر ، وتعتبر هجرتهم هذه أعظم حادث فى تاريخ برقة الوسيط ؛ لأن تلك القبائل العربية الخالصة تقيم هنالك ، وتستأصل العناصر الغريبة عنها من إغريق وغيرهم شيئاً فشيئاً كما تختلط بالسكان الأصليين من البربر الرحّالة وتمتصهم فى صلبها ، فينتج من ذلك عنصر تغلب عليه العروبة ، وهو العنصر الذى ظل سائداً فى برقة حتى اليوم ، بالرغم من استيلاء الأتراك عليها عام ١٥١٧ ، وقيام أسرة القره منلى التركية التى استقلت بها فى سنة ١٧١١ . وفى سنة ١٨٣٥ يستردها السلطان مراد الثانى لسلطنته ، وفى سنة ١٩١١ تنتقل برقة مع طرابلس بمقتضى معاهدة لوزان إلى حكم الإيطاليين . إلا أن الحرب العظمى الأولى تحول دون دخول هؤلاء الحكام الجدد فى مستعمرتهم الإفريقية ، ولا يتم استيلاء الإيطاليين الفعلى على طرابلس وبرقة إلا فى سنة ١٩٣٢ بعد كفاح طويل مجيد من أهل تلك البلاد . ولكن الحرب العالمية الثانية كما يعلم الخاص والعام تستأصل شأفة المستعمرين الإيطاليين من إفريقية ، وتغيّر مجرى تاريخ برقة إلى هدف لا يعرفه اليوم إلا الله .

التعريف ببرقة

من الأمور التى تدعو للأسف جهل الشرقيين ببرقة جهلا يكاد يكون تاما ؛ وأغلب الظن أن هذا الجهل يرجع إلى عاملين : الأول وقوف الإيطاليين أيام استعمارهم فى وجه الأجانب وردهم عن زيارة ذلك القطر . والثانى إعراض الناس أنفسهم عن هذه الزيارة لاعتقاد شائع بأن برقة ليست إلا جزءاً من الصحراء الكبرى ، ومن ذا الذى يرغب فى زيارة الصحراء ؟ وربما يدهش القارئ عندما نؤكد له بأن نضرة الأودية ، وخضرة الجبال ، وجمال الطبيعة ، وتنوع المناظر التى تأخذ بمجامع الألباب ، ورقة الهواء وصفائه ، تتجلى فى ربوع برقة ، حتى إن المرتحل ليؤخذ خياله وهو بين جبالها ووهادها إلى أجمل ما فى أوربا الجنوبية من مرتفعات وأودية وسواحل تبهر الأنظار . وليس من المبالغة فى شئ ما قاله بعض الكتاب الأوربيين بأن طبيعة برقة وهواءها لا يختلفان عن طبيعة أواسط إيطاليا وهوائها ، على حين يصرح بعض علماء طبقات الأرض بأن الجبل الأخضر الواقع بين خليج سرت وخليج السلوم إنما هو امتداد لجبال أوربا الجنوبية وإيطاليا على وجه أخص .

ويضاف إلى جهلنا بطبيعة برقة جهلنا بآثارها ؛ فقد اعتاد الناس على التفكير بأن ربوع برقة خالية من شواهد عزها القديم ورخائها التجارى العظيم فى العصور اليونانية الرومانية . وحقيقة الأمر أن آثار برقة ظلت معالمها مطموسة حتى دخلها الإيطاليون ، فأوفدوا لها الوفود والبعثات العلمية التى أخذت فى التنقيب وترميم الأبنية الأثرية المتداعية إلى آخر عهدهم بها . ومع أنهم كشفوا عن الكثير من تلك الآثار ، فلا زالت هنالك فرص هائلة لبعثات عدة فى المستقبل ؛ إذ لا تزال فى برقة مناطق أثرية واسعة لم تمسها يد الحفارين بعد . ومهما يكن من شئ فإن برقة أصبحت الآن عامرة بالعاديات التى تستحق العناية والزيارة والبحث العلمى .

وخطأ آخر شائع بين الناس ، ألا وهو اعتبار برقة جزءاً من طرابلس بقدر ما هى فى نظرهم جزء من الصحراء اللوبية . وما هذا إلا نوع من الشطط الذى كانت تمليه الدعاية السياسية والظروف الاستعمارية القاسية التى ربطت

حتف برقة بطرابلس أيام الحكم الإيطالى . ولكن جغرافية برقة تختلف كل الاختلاف عن جغرافية طرابلس ؛ كما أن تاريخ برقة غير تاريخ طرابلس ، وقبائل برقة غير قبائل طرابلس ؛ فهم أنقى عنصراً فى عروبتهم من أعراب طرابلس ؛ وأشد تمسكا ببداوتهم من غيرهم ، ولغتهم أقرب اللهجات إلى اللغة العربية الفصحى القديمة .

كل هذه المظاهر والخصال لمستها خلال رحلتى التى أضعها اليوم بين يدى القارئ الكريم على أشد ما نكون من الاختصار ، حرصاً على صفحات « الكاتب المصرى » وما تحتويه من جواهر الكلم ، وأملا فى إصدار رسالة أخرى مستقلة فى هذا الموضوع الذى يجب أن يكون له مكان فى مكتبة كل قارئ عربى .

الى طبرق ثم درنة

ركبت القطار الحربى الكبير الذى يبرح القاهرة فى يوم الأحد من كل أسبوع إلى طبرق ، فكانت رحلة ممتعة على ما فيها من عناء ، يشاهد فيها المسافر ذلك المسرح الخالد الذى دارت فيه رحى وقعة العلمين بالصحراء الغربية التى تمتد آثارها من العامرية إلى مرسى مطروح وما وراءها . ففى كل مكان يشاهد الانسان مناطق الأسلاك الشائكة التى تحد الجهات العامرة بالألغام ، وطوابير الدبابات العاطلة ، والمدافع والعربات المحطمة ، وخطوط الدفاع المنقورة فى الصخر وغير ذلك من المشاهد العديدة التى ساعدت على فوات الوقت سراعاً ؛ إذ أننا تركنا القاهرة قبيل التاسعة صباحاً ووصلنا العامرية فى منتصف الثالثة بعد الظهر ، وشاهدنا ما أمكن مشاهدته فى منطقة العلمين حتى أدركنا الليل ، ثم أصبح الصباح علينا فيما وراء الحدود المصرية . وقبيل ظهر الاثنين وصل بنا القطار مرتفعات طبرق الشرقية ، وعلى ذلك تكون هذه المرحلة الأولى قد استغرقت حوالى ٢٧ ساعة من القاهرة إلى طبرق بالقطار .

هنالك قابلنى مندوب الوالى ، وكان ترحابه بى حاتميًّا . فبعد أن تناولت غذاء عربيًّا على مائدته قمنا للطواف بالمدينة ، فإذا بشوارعها تكاد تكون خاوية ، وبيوتها فى جملتها مهدّمة ، إلا ما أصلحه رجال الإدارة والحكومة لإقامتهم .

وطبرق تقع على هضبتين يفصل بينهما وادٍ غير سحيق ، يهبط منه الواحد شمالا إلى خليج واسع عميق هو ميناء المدينة ، ولا يرى فيه الإنسان غير المراكب الغارقة من فعل الغارات الجوية . ويبدأ من الطرف الجنوبى للوادى ذلك الطريق العظيم الذى عبّده الإيطاليون من طبرق إلى حدود تونس ، ويبلغ طوله نحو ألفى كيلو متر . أما الهضبة الشرقيـة التى بها محطة طبرق فهى منطقة حرام تشغلها الجنود ويعمّها عتاد الحرب . وتقع المدينة أو بالأحرى ما بقى منها على الهضبة الشرقية . وليس بطبرق من آثار قديمة تذكر سوى أجزاء تافهة من الحائط الرومانى ومخزن المياه البيزنطى وهو كبير وعميق فى شكل مستطيل منقور فى الصخور الجنوبية ليجتمع فيه ماء المطر للاستعمال وقت التحاريق .

بعدئذٍ ركبت السيّارة الحربية التى خصّصها الوالى لخدمتى ، واتجهت صوب مدينة درنة على بعد مائتى كيلومتر من طبرق ، وفى هـذه المرحلة من الطريق تكثر على جانبيه آثار موقعة إفريقية الشمالية بين الحلفاء وجنود المحور ، من طوابير مصفحة عاطلة ، إلى هياكل طائرات محترقة ، وعربات مقـلوبة ، ومدافع قواعدها مهشمة ، وغير ذلك من أدوات القتال . ولا تنس مقابر القتلى يراها الرائى بين آونة وأخرى . وأول هذه المقابر وأوسعها مقبرة العلمين ، تظهر للمسافر من القطار على المرتفعات الشمالية فى شكل ثلاث غابات كبيرة من الصلبان البيضاء ، أولها لقتلى الإنجليز ، والثانية للألمان ، والثالثة للإيطاليين ، ويرفرف عليها جميعاً فى أعلى النقط علم أبيض كبير .

وأهم ما لفت نظرى فى هذا القسم الأول من الرحلة هو عظمة ذلك الطريق الكبير الذى عبّده موسولينى فى عرض البلاد ، ثم جعله مركزاً مبدئيّـاً للنشاط الاقتصادى والزراعى فى برقة ، فأسس المزارع على جانبيه ، وابتنى الاستراحات لضمان راحة المسافرين على مسافات تبلغ نحو عشرين كيلو متراً ، ولـكنها أصبحت خاوية على عروشها ، إذ انتزع الأعراب الرحّل أبوابهـا ونوافذها ، وحملوا ما كان بها من أثاث .

وبعد مسيرة أربع ساعات انحرف السائق بالسيارة عن الطريق الرئيسية شمالا تجاه البحر . فلما وصلنا حافة المرتفعات الداخلية وإذا بنا نطلّ على منظر من أبدع ما رأته العين : يهبط الجبل فجأة إلى سهل شديد الخضرة ، ينتهى

بخليج شديد الزرقة ، قامت عليه مدينة بيوتها ناصعة البياض ، تحيط بها الحدائق الغناء . وقد شغف الطليان بدرنة فى أيامهم ، ووصفوها لجمالها بأنها جوهرة البحر الأبيض ، وزارها موسولينى فى زمانه ، وآثار الترحيب به شاخصة فى أعلى الجبل حيث نُقشت فى حروف كبيرة جبّارة العبارة W il Duce « ليحى الزعيم » .

ليس فى درنة مخلّفات تاريخية قديمة تستوقف السائح ، ولكن جمال المدينة وحسن تنسيقها ، وصفاء حماماتها البحرية ، وتوفير سبل الراحة فى منازلها ، وكثرة حدائقها ، ونظافة شوارعها ، وطيب هوائها ، جعلها محط رحال السائحين الإيطاليين فى الماضى .

وقد شاهدت بها قباب المرابطين ، وزرت سوقها وتتكوّن من عدة شوارع ضيقة متراصة مرصوفة بالحجارة ومسقوفة بالخشب كعامة الأسواق الشرقية فى أغلب مدن إفريقية الشمالية . وتعدّ دار الحاكم فيها آية فى فن المعمار ، وربما كانت المبالغة فى تجميلها راجعة إلى إعدادها لاستقبال موسولينى .

قورينا

قورينا أو سيرين أو الشحات كما يسميها عرب برقة اليوم تقع على مسافة تبلغ نحو ثمانين كيلومتر غرب درنة على مقربة من الطريق الرئيسى ، وبينها وبين ساحل البحر عشرة كيلو مترات حيث توجد ميناؤها أبولونيا التى تدعى الآن مرسى سوسة .

وقورينا عاصمة برقة القديمة فى العصور اليونانية الرومانية ، كما أنها أهم مركز للعاديات فى تلك البلاد ، وقد تعدل أعظم المدن والعواصم الأثرية مثل الأقصر وأثينا وروما إلى حد بعيد ، غير أن نصيبها من التخريب كان أدهى وأشد ، نظراً لما أنزله اليهود بها فى ثورتهم الكاسحة سنة ١١٥ – ١١٧ م . حين محوا سكانها ، وهدموا معابدها ومبانيها . ولقد حاول الإمبراطور هادريان أن يعيد لها مكانتها الأولى ، فبادر ببنائها من جديد ، ولكن جهوده لم تثمر كثيراً ، إذ أن قورينا التى كانت مركزاً من مراكز الفن والثقافة

الإغريقية [1] تأخذ بالرغم من ذلك فى التدهور السريع ، ويهجرها من بقى من سكانها القلائل ، حتى إنك لتجدها وقد أضحت خراباً بلقعاً فى غضون القرن السادس الميلادى .

نشأت المدينة القديمة ، كما يتضح من آثارها ، على جبلين يفصل بينهما وادٍ ضيق غير عميق ، تكتنفه الطريق الحديثة الوحيدة التى قامت على جانبيها قرية الشحات اليوم . ويمكن تقسيم آثار قورينا إلى مجموعات ثلاث ، الأولى منها على قلة الجبل الغربى حيث الأكروبول ، وأهم مشتملاته قبر الملك باتوس مؤسس قورينا (٦٤٠ ق.م.) ، والسوق الكبيرة (الفوروم) التى تضارع فى اتساعها ودقة بنيانها أسواق روما القديمة ، ومعبد جوبيتر ، وآخر لعبادة قياصرة الرومان (قيصرون) ، وعدد من القصور التى كشف عنها حديثاً ، نخص بالذكر من بينها قصر جانوس العظيم [2] من مؤسسات العهد الميلادى الأول ، ويمتاز إلى جانب دقة الفن والمعمار بأمثلة نادرة من الفسيفساء التى ازدانت بها أرض حجراته ؛ فهذه حجرة تتوسطها رأس ميدوسة ، وتلك أخرى صُوِّرت فى أركانها رسوم آدمية تمثل الفصول الأربعة ، كلها ناطقة فى ثوبها القشيب من الألوان الزاهية .

أما المجموعة الثانية فهى على الجبل الشرقى ، وتشمل المعبد العظيم للإله زيوس ، وملعب المدينة ، وبقايا كنيسة كبيرة من العصر المسيحى . غير أن الجانب من المدينة قد عفت أكثر رسومه ، ولم يبذل الأثريون والحفارون للآن جهداً مذكوراً للكشف عن معالمه الدارسة .

---

(١) من بين الأسماء الخالدة التى أنجبتها قورينا فى عالم الفلسفة والأدب والعلوم الاغريقية نذكر على وجه التمثيل اريستيب (٤٣٥ — ٣٦٠ ق. م.) Aristippes تلميذ سقراط ومؤسس مدرسة قورينا الفلسفية ، وقلياق (٣١٠ — ٢٣٥ ق. م.) Callimachus ، الشاعر اليونانى وايراتوستين (٢٧٦ — ١٩٥ ق. م.) Enatosthenes أول جغرافى قاس محيط الكرة الأرضية ، وكارنياد (٢١٤ — ١٢٩ ق. م.) Carneades مؤسس الأكاديمية الجديدة فى أثينا ، والأسقف المسيحي سينيزيوس (٣٧٥ — ٤١٦ م.) Synesius آخر فلاسفة الأفلاطونية الحديثة .

(٢) إن جانوس هذا كان كبير كهنة الاله أبللو ، ويزعم بعضهم أنه كان من أثرياء تجار قورينا وربما جمع بين الصناعتين بدليل الثروة والرفاهية التى فى قصره ، ويظهر أنه عاش فى القرن الأول وأوائل القرن الثانى الميلادى .

والمجموعة الثالثة واقعة عند مخرج الوادى حيث توجد هضبة تطل على السهل المنبسط عند قاعدة الجبلين . وعلى تلك الهضبة بنى القدماء من الاغريق معبداً للإله أبلّلو على مقربة من مغارة سميت باسم الإله نفسه ، ومنها تتدفق المياه الجارية من بطن الجبل ليل نهار ، وكان الناس يهرعون للاستشفاء بها من جميع أقطار العالم القديم . وإلى جانب معبد أبلّلو يوجد معبد أرتميس وهو صغير . وفى ناحيته الجنوبية حوض السباحة والحمامات العامة ، وفى أحد أبهائها مجموعة من التماثيل الفنية الرائعة ، يتوسطها تمثال كبير من الرخام للإسكندر المقدونى وهو نادر ، ورأس دقيقة الصنع للإله زيوس . وفى الجهة الشمالية وراء المعبد عدة أبنية ، أهمها دار التمثيل (هيبودروم) من العصر الرومانى وهى صغيرة بعض الشئ ولكنها من أحسن الأمثلة فى هذا الصدد .

ويحيط بكل هذه الآثار التى تمثل مدينة الأحياء حائط حصين كثيف طوله نحو ثلاث كيلوا مترات . وخارج هذا الحائط من كل النواحى ، تقع مدينة الأموات التى تفوق جميع مثيلاتها فى العالم اليونانى الرومانى القديم من حيث الكمّ والكيف على السواء . والناظر من الهضبة الغربية إلى سطح الجبل الشرقى يرى المئات بل الألوف من المقابر المنقورة فى الصخر طبقات فوق طبقات من أعلى الجبل إلى أسفل السهل ، أكثرها قد كشف ، ولكن بعضها بدون شك لم يكشف عنه بعد . غير أن محتويات تلك القبور نُهبت إلا التوابيت الحجرية الثقيلة ، ولم يبق من النقوش الفنية على جدرانها سوى اليسير. ومن الظواهر الغريبة أن عرب تلك المنطقة وضعوا يدهم على أغلب تلك القبور ليستعملوها منازل لهم ومُراحاً لقطعانهم فى الليل .

وأبولونيا أو مرسى سوسة ، وهى كما ذكرنا ميناء قورينا ، على مسيرة عشرة كيلومترات إلى الشمال الشرقى منها ، وليس فيها من الآثار سوى كنيستين من العصر المسيحى البيزنطى ، إحداهما ترجع إلى القرن الخامس الميلادى ، وأغلب الظن أن عُمُدَها الكثيرة قد أخذت من بناء أو معبد وثنى أقدم عهداً . وفيها أمثلة حسنة من الفسيفساء ذات الرسوم الحيوانية والنباتية . أما الثانية فقد بناها الإمبراطور جستنيان حوالى عام ٥٣٥ م وجاء بأعمدتها الرخامية من محجره الشهير فى بروكونوسوس على شاطىء الدردنيل ، وحالتها أقل جودة من حالة الكنيسة الأولى لطغيان البحر عليها . أما المدينة الحديثة فهى أكبر بكثير من قرية

الشحات ، تأنق الطليان فى تزيين ميادينها الفسيحة وشوارعها المستقيمة الواسعة بالأشجار الباسقة والنوافير الجميلة التى تتفجر منها المياه الجارية. ولا أدرى لماذا نزع الطليان إلى طلاء منازلها باللون الأحمر الوردى على خلاف عادتهم فى طلاء مساكنهم فى بقية المدن بإقليم برقة باللون الأبيض الناصع .

ذكريات من الشحات

إذا ذكرتُ قورينا أو الشحات فلا أذكر معها آثارها فحسب ، وإنما أذكر رحلتى إليها من درنة وزيارتى رأس الهلال ومنزل بالبو الصيفى فى الطريق ، كما أذكر البيت الذى خصصته الإدارة لسكناى ، وأذكر يوماً قضيته مع مشايخ عربان قبيلة الحاسة ، وآخر فى زيارة قرية البيضاء .

أما رأس الهلال فالطريق المؤدية لها تتفرّع من الطريق الرئيسية شمالا عند مكان يدعى لملودة ، وطول الطريق الفرعية عشرة كيلومترات أسسها الجنرال بالبو أيام صولته خصيصاً للوصول إلى البقعة التى انتقاها لـكى تكون مقره الصيفى . ولا نبالغ إذا قلنـا إن المنطقة التى يخترقها المسافر فى طريقه إلى رأس الهلال لا تقل فى جمالها عن مناطق السياحة المعروفة بأوربا ، حتى إن المتأمل فى جبالها وأوديتهـا ليسبح به الخيال إلى جبال الغابة السوداء أو جبـال ويلز أو منطقة البحيرات الإيطالية أو سـاحل الريفييرا . أما منزل بالبو — وهو اليوم قاع صفصف وأثر بعد عين — فإن موضعه آية من آيات الله فى جمال الطبيعة وجلالها ، ابتناه صاحبه على رأس جبل صغير متفرع من سلسلة الجبـال الغربية عند فم الوادى على غرار حصون القرون الوسطى التى طالما يراها المرء فى سياحاته بوادى الرين ؛ يهبط منه البصر إلى سهل سحيق تتوسطه قرية رأس الهلال بين المزارع فى حللها السندسية ، ويظهر البحر وراءها فى زرقة عجيبة لم أشاهد مثيلها إلا من الطائرة على ارتفاع كبير . هنا تتجلى بحق روعة الطبيعة وهدوءها ، وهنا مهبط للوحى والشعر ، وهنا رقة الهواء وصفاؤه .

وقرية الشحات ذاتها تذكرنى تماماً بقرى ويلز الشمالية ، كما يذكرنى المنزل الذى أسكننى الحاكم إياه بمنزل كنت أقطنه صيفاً فى إحدى تلك القرى النائية ، فهو مثله على جبل عال أطل منـه على وادٍ فسيح تحـدّه سلسلة أخرى من

المرتفعات والتلال ، وجميعها مكسوة بالخضرة التى تريح البصر والنفس والذهن المضنى ، وكلاهما خالد للهدوء ، ويتخلل البدن فيهما ذاك الهواء الجبلى المنعش ، غير أن منزلى بالشحات امتاز عن نظيره فى ويلز بحديقة تحوى من أشجار الفاكهة ومن الزهور ألواناً شتى لا نعرفها فى تلك المناطق الشمالية الباردة .

ولا أنسى يوماً قضيته مع المتصرّف (أو الحاكم) بين مشايخ قبيلة عربان الحاسة داخل الجبل الأخضر فى إحدى المزارع التى كان الإيطاليون قد عمّروها ثم هجروها أثناء الحرب[1] . فبينما نحن فى طريقنا بين تلك المزارع ، لاحظت وجود خيام منصوبة بجوار البيوت المشيّدة التى ابتناها المستعمرون الإيطاليون فى الماضى واستولى عليها العرب فى الحاضر . فلما سألت عن ذلك قيل لى بكل بساطة إن العرب يفضّلون البقاء فى خيامهم ويتركون المنازل للسعى (أى الماشية) فى الليل . وإن دل هذا الموقف العجيب على شىء فإنما يدل على احتفاظ عرب برقة بحياة البداوة القديمة أكثر من إخوانهم الذين نزحوا من جزيرتهم الأصلية للحضر شرقاً وغرباً وشمالاً فتحضروا بحضارة أوطانهم الجديدة وذهبت بداوتهم هباء منثوراً .

---

(1) مشروع الاستعمار الزراعى الايطالى لبرقة من الموضوعات التى جلبت عليهم سخط العالم العربى ، لأنهم انتزعوا أكثر تلك الأراضى بالعنف ، وأسكنوا فيها أسرات المستعمرات ، وبنوا لهم فيها البيوت والمزارع . وفيما يلى بيان الأراضى الصالحة للزراعة مما استولى عليه المستعمرون الايطاليون ما بين سنة ١٩٢٢ وسنة ١٩٣١ :

٤٣ر٤٤١	هكتاراً	اشتريت من العرب
٨ر٨٤٤	«	تابعة أصلا للحكومة (وهى الدومين)
٦ر٠٠٠	«	صودرت من الثوار العرب
٦٢ر٢٢٥	«	صودرت من الزوايا السنوسية
١٢٠ر٥١٠	«	المجموع

والهكتار الواحد يساوى حوالى فدانين ونصف ، فتكون جملة ما استولى عليه الايطاليون من الأراضى الزراعية يوازى أكثر من ثلثمائة ألف فدان ، بنوا عليها ما بين سنة ١٩٣٣ وسنة ١٩٣٩ من البيوت والمزارع المعدة على أحسن طراز أوربى ١٨١٥ منزل ومزرعة ، يراها المسافر على جانبى الطريق الرئيسية فى الجبل الأخضر ، وبين المنزل والمنزل نحو أربعة كيلو مترات للزراعة ، وتنقسم هذه المزارع إلى مجموعات ، لكل مجموعة فى إقليمها الخاص شركة تعاونية لها مركز مشيد ، يشترى منها الزراع حاجاتهم ، ويودعونها محاصيلهم ، ويلحق ببناء الشركة صالة كبرى يقيمون فيها حفلاتهم ونشاطهم الاجتماعى ، وكنيسة يصلى فيها المصلون يوم الأحد من كل أسبوع .

وصلنا الدار التى اجتمع فيها للقائنا مشايخ الحاسة ، وتناولنا طعام الغداء ، ولم يكن مع الأسف عربيًّا خالصاً كما كنت أرجو ولم يكن أوربيًّا بحتاً ، وإنما أراد صاحب الدار أن يسر أنظارنا بما ظنه يتفق وذوقنا الحضرى ، فقدم لنا الحساء فالدجاج والخضر مع الخبز الأوربى ثم من الفاكهة قدراً من البرقوق والكمثرى والعنب ، وهى بلا شك من الأشجار التى زرعها سلفه الإيطالى ، فجنى ثمارها خلفه العربى . وكم كنت أود أن أجد نفسى جالساً القرفصاء فى صحن الدار مع هؤلاء المشايخ حول نار متقدة نتناول من عليها شواء الماعز والخراف فنأكله كما كانوا يأكلون .

وإذا كان رجائى قد خاب فى أمر البداوة القديمة عند الغداء فقد جاء ما أصلح خاطرى فى المراسيم البدوية الحديثة المتعلقة بعملية صنع الشاى وتقديمه للزائرين ، إذ جاء الابن الأكبر لصاحب الدار ، وجلس عند باب الحجرة ، وأمامه موقد عليه إناء فيه ماء ، وبجواره إناءان آخريان وثلاثة أطباق من القش المجدول ، على الواحد سكر أسمر ناعم ، وعلى الثانى شاى ، وعلى الثالث ربطة كبيرة من عيدان النعناع الأخضر . وبدأت صناعة الشاى فى حركات سريعة بحذق ومهارة ، فهو يصب الماء المغلى على الشاى من إناء إلى إناء ثم يعيد صبه من جديد ، وغايته من ذلك أن يركز الشاى إلى أقصى حدود التركيز ؛ وهو إذ يضع السكر مع الشاى بحفنته فى نفس الإناء يتذوقه فى قدح من الأقداح الصغيرة التى ستدار علينا ، ثم يعيد الكرة ثانية وثانية إلى أن يضبط مرارة الشاى فحلاوته فدرجة تعطيره ، ذلك لأن التقاليد العربية البدوية تقضى بأن يدار الشاى على الزوار مرات ثلاثاً : الأولى يكون فيها مر المذاق ، والثانية حلواً ، والثالثة يضاف إلى الشاى فيها النعناع والسكر لدرجة الإشباع . وهكذا أديرت علينا عشرات الأقداح الصغيرة دورات ثلاثاً ، الواحدة تلو الأخرى نتبادل فيها نفس الأكواب على اختلاط بعضها ببعض بغير كلفة . فإذا ما انتهينا من شرب الشاى الحلو المعطر ، أصبحنا فى حل للرحيل . ولكننا قبل أن نعود أدراجنا شاهدنا بعض حجرات المنزل والاسطبلات والمخازن المنظمة التى بناها الإيطاليون على مثال أحدث المزارع الأوربية ، وكذلك البئر التى يحبسون فيها مياه الأمطار ، والحديقة العامرة بالكروم وأشجار الفاكهة والرياحين ، ثم ركبنا وركب معنا شيخ مشايخ العربان لتوديعنا إلى بابنا فى الشحات .

وأخيراً وليس آخرا أذكر زيارة قرية البيضا على مقربة من الشحات على الطريق المؤدى غرباً إلى المرج . وسيذكر التاريخ هذه القرية لسببين : الأول أنها كانت مركز قيادة رومل ، والبيت الذى كان يدير منه دفة الهجوم الإفريقى قائم يسكنه اليوم السيد إدريس زعيم السنوسية . والسبب الثانى هو أن موسولينى عند زيارته برقة قبيل هجوم المحور على مصر جمع مشايخ عربان المنطقة فى الساحة الكبرى بتلك القرية ليخطب فيهم خطبته المشهورة فى كلمة واحدة لاثانى لها ، فصعد مدرجاً عالياً بنى خصيصاً لهذا الغرض — وهو موجود إلى اليوم — وأخرج من جيبه منديلاولوّح به لسامعيه مشيراً إليه صارخاً « مصر » ثم وضع المنديل فى أحد أكمامه وانصرف ، كأنما الاستيلاء على مصر فى نظره من السهولة بقدر استخراج ذلك المنديل من جيبه ووضعه فى كمه . فسبحان مخلف الظنون !

عزيز سوريال عطيه

عصبة الأمم القديمة ، وعصبة الأمم الجديدة

١

كان مشروع عصبة الأمم أمنية دولية جميلة وردت لأول مرة ضمن النقط الشهيرة التي أعلنها الرئيس ولسون في يناير سنة ١٩١٨ لتكون دستوراً لعقد الصلح مع ألمانيا الإمبراطورية في الحرب العالمية الأولى . وقد تضمنت هذه النقط في الوقت نفسه أهم المبادئ الأساسية التي يجب أن تقوم عليها عصبة الأمم المستقبلة ، وهي العمل على تحقيق الاستقلال السياسي والسيادة الإقليمية لجميع الأمم صغيرها وكبيرها ، وتسوية المسائل الاستعمارية بمراعاة مصالح الشعوب ذات الشأن ، وضمان حرية البحار ، وإلغاء الحواجز الجمركية ، وخفض السلاح وغيرها .

وبالرغم من أن تصريحات الرئيس ولسون لم تحقق كلها عند وضع معاهدة ڤرساي فإن قيام عصبة الأمم كان من أهم ما حُقِّق منها . وقد أدمج دستور عصبة الأمم بالفعل في معاهدة ڤرساي واعتبر جزءاً لا يتجزأ منها . وكان إدماجه على هذا النحو في صلب المعاهدة التي أُمليت على الدول المهزومة ، وكانت تمثل يومئذ سلطان الحلفاء الظافرين فيما تضمنته من شروط فادحة ، من أعظم الأخطاء التي صدعت فيما بعد من هيبة هذه الهيئة الدولية الجديدة التي أقيمت لتعمل على منع الحرب وتوطيد أركان السلم ، وتحقيق العدالة الدولية بين الأمم .

وبدأت عصبة الأمم القديمة حياتها في أول يناير سنة ١٩٢٠ وهو تاريخ البدء في تنفيذ معاهدة ڤرساي ، واتخذت مدينة جنيف مقراً لها لكي تعمل في جو محايد بعيداً عن المؤثرات القومية . وانتظمت بها في البداءة اثنتان واربعون دولة ، منها ثمان وعشرون دولة متحالفة وأربع عشرة دولة محايدة ، وهو عدد ازداد فيما بعد إلى نحو ستين ، وذلك حينما انتظمت في العصبة دول الأعداء السابقين ، وفي مقدمتهم ألمانيا ، وبعض الدول الصغرى التي حصلت على استقلالها

مثل مصر والعراق . واتجهت الدول الصغرى والأمم المغلوبة بأبصارها إلى ذلك الصرح العتيد ترجو أن يكون قيامه فاتحة لعهد جديد فى العلاقات الدولية ، وأن تظفر على يديه بتحقيق أمانيها وحقوقها المسلوبة ، وأن يكون لها خير عون على مغالبة منطق القوة الغاشم وكبح جماح النزعات الاستعمارية الجشعة .

ولكن عصبة الأمم ما كادت تبدأ العمل لتحقيق مهمتها الدولية العظيمة حتى أخذت بوادر الشك تبدو حول تصرفاتها واتجاهاتها ، وأخذت الآمال العظيمة التى علقت على قيامها وخطورة رسالتها ، تخبو شيئاً فشيئاً ، وأخذت الدول الصغرى والأمم المغلوبة بوجه خاص تشعر بأن ما يحيط بنشاط العصبة من الأوصاف والدعاوى الخلابة ، مثل إقامة العدالة الدولية ، وتأييد حق تقرير المصير ، وإنصاف الدول المظلومة ، وأمثالها ، إن هى إلا ألفاظ جوفاء لاحقيقة لها .

والواقع أن عصبة الأمم ما لبثت أن كشفت عن جانب الضعف الحقيقى فى تكوينها ؛ فهى لم تكن سوى أداة للدول الظافرة الكبرى التى أنشأتها ، واستأثرت بالمقاعد الدائمة فى مجلسها ، والتى ألفت فيها وسيلة دولية ناجعة لتحقيق مآربها البعيدة المدى ، والاستتار وراء ما يمكن أن تسبغه العصبة بصفتها العالمية ، على خططها من ضروب التأييد والتبرير . أجل استطاعت العصبة فى بعض الأحيان أن تذلل بعض الأزمات الدولية الخطيرة ، وأن تضع حلولا مقبولة لبعض المشاكل الإقليمية ، ولكنها لم تستطع بتصرفاتها وقراراتها أن تقنع دولة من الدول الصغرى ، أو أمة من الأمم المغلوبة ، بأنها تجرى دائماً على مبادئ الحق والنزاهة . والأمر بالعكس فقد كانت تصرفات العصبة دائماً إزاء هذه الأمم الصغرى يطبعها لون واضح من التحامل والإجحاف . ويكفى أن نذكر هنا موقف العصبة إزاء الأمم العربية التى وضعت تحت الانتداب ، وما اشترطته على العراق يوم طلبت الانضمام إليها من شروط فادحة لم تفرض على أية دولة أخرى .

وكما أخفقت عصبة الأمم فى تحقيق مبادئ العدالة الدولية فكذلك أخفقت فى تحقيق مشروع نزع السلاح الذى كان نجاحه من أعظم أهدافها . ثم كان بعد ذلك عجزها المؤلم عن دفع الاعتداء عن دول هى من صميم أعضائها ، مثل الصين والحبشة والنمسا وتشيكوسلوفاكيا وألبانيا ، واكتفائها بإصدار القرارات النظرية ، العقيمة فى أخطر المواقف الدولية .

ولما نشبت الحرب العالمية الثانية كانت عصبة جنيف جثة لا حراك بها. وعبثاً حاولت أن ترفع صوتها الجافت لآخر مرة فى أواخر سنة ١٩٣٩، حينما نشبت الحرب الفنلندية الروسية. ولم يكن ثمة مجال لأن تعمل الهيئة التى عجزت عن العمل المثمر فى ظل السلام والتأييد الإجماعى، تحت قصف المدافع وفى ظل المعارك المضطرمة. وسرعان ما غدت عصبة الأمم أثراً من آثار الماضى لا يدل عليها اليوم سوى قصرها الفخم المهجور فى قلب جنيف، وسوى بعض آثارها العملية فى ميادين النشاط الاجتماعى والاقتصادى والثقافى، مما كانت تقوم به لجانها الفنية العديدة فى هذه الميادين.

٢

على أن اختفاء عصبة جنيف فى غمر المعارك الطاحنة لم يحل دون بقاء الفكرة حية قوية خلال الحرب ذاتها، ولم يمنع الدول الديمقراطية من أن تؤكد تمسكها مرة بعد مرة بالمبادىء التى قامت عليها العصبة القديمة. وفى المؤتمر الذى عقد فى موسكو فى أكتوبر سنة ١٩٤٣ أصدرت الأمم المتحدة قراراً بوجوب إنشاء هيئة دولية عامة تقوم على مبدأ السيادة والمساواة بين جميع الأمم المحبة للسلم، وفتح باب الانضمام فيها لهذه الأمم جميعها صغيرها وكبيرها، وذلك للمحافظة على السلم والأمن الدولى؛ فكان هذا القرار بمثابة التمهيد لإنشاء عصبة الأمم الجديدة.

ونحن نعرف ما تلا ذلك من خطوات، ففى أغسطس سنة ١٩٤٤ عقد مؤتمر دمبرتون أوكس وفيه وضعت الأسس الدستورية للهيئة الدولية الجديدة. ثم بحث مشروع دمبرتون أوكس فى مؤتمر عالمى حافل عقد فى سان فرنسيسكو من أواخر ابريل إلى أواخر يونية سنة ١٩٤٥ وشهدته أكثر من خمسين دولة، وفيه تم الاتفاق على ميثاق «الأمم المتحدة» أو عصبة الأمم الجديدة.

عقد ميثاق «الأمم المتحدة» عقب انتهاء الحرب الأوربية بأسابيع قلائل، وفى الوقت الذى حققت فيه الأمم المتحالفة نصرها الشامل على ألمانيا النازية، وأخذت الأمم تستقبل نسمات السلم الأولى وتتطلع إلى المستقبل بقلوب مبتهجة تحدوها الآمال العظيمة. وبالرغم مما بدا يومئذ فى الميثاق من أوجه النقص، وبالرغم مما شعرت به الدول الصغرى من انتقاص لحقوقها ومكانتها وما ساورها

من جراء استئثار الدول الكبرى بالسلطان والتوجيه، فقد اعتبر الميثاق دعامة عظيمة فى صرح السلم المستقبل. ولما تم النصر على اليابان بعد ذلك بأسابيع قلائل زادت النفوس أملا واستبشاراً، واتجهت سائر الأمم بأبصارها إلى هيئة الأمم المتحدة أوعصبة الأمم الجديدة، تلتمس على يديها الحلول الموفقة لسائر المشكلات التى يعانى منها استقرار السلم.

ولم يكن يخطر يومئذ ببال أحد أن حوادث الشهور الأخيرة من عام النصر سوف تغشى بأكدارها الكثيرة هذا الأفق المتألق، وتقلب تفاؤل الشعوب بسرعة إلى موجة عامة من التشاؤم. فإخفاق أول مؤتمر لوزراء خارجية الدول الكبرى، والتنافس الخطير على أسرار القنبلة الذرية، ومشكلة إيران وتمزيقها على يد حلفاء الأمس، والخلاف التركى الروسى، وغيرها من المشكلات التى تعاقبت فى الأشهر الأخيرة، تسمم الأفق الدولى وتنذر بأخطر العواقب.

وفى ظل هذا الأفق الكدر المثقل بسحب الأزمات الدولية، عقدت هيئة الأمم المتحدة جمعيتها العمومية الأولى فى العاشر من شهر يناير بحضور ممثلى إحدى وخمسين دولة. ومن غريب الاتفاق أن يكون شهر يناير هو نفس الشهر الذى صدرت فيه تصريحات الرئيس ولسون الأولى عن عصبة الأمم (١٩١٨)، وعقدت فيه عصبة الأمم القديمة جمعيتها العمومية الأولى (١٩٢٠)، وهو أيضاً نفس الشهر الذى ألقى فيه الرئيس روزفلت تصريحه الشهير أمام الكونجرس عن الحريات الأربع (١٩٤١).

وانتخبت الجمعية العمومية للأمم المتحدة الأعضاء المؤقتين لمجلس الأمن وهو أول وأهم الهيئات التى تقوم عليها. ونحن نعرف أن الدول الكبرى، وهى بريطانيا وروسيا وفرنسا وأمريكا والصين، قد احتفظ لها فى ميثاق سان فرنسيسكو بالكراسى الخمسة الدائمة فى مجلس الامن. وانتخبت للكراسى الستة المؤقتة البرازيل والمكسيك وبولندة وهولندة ومصر وأستراليا. وقيام مصر فى مجلس الامن لتمثل كتلة الدول العربية مكسب أدبى لاشك فيه، وقد اختيرت مصر أيضاً للجلوس فى محكمة العدل الدولية، وهى أيضاً إحدى الهيئات الملحقة بالأمم المتحدة. وكذلك مثلت الدول العربية الأخرى فى مختلف اللجان التشريعية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية للأمم المتحدة. وكل ذلك حسن بلا ريب، ولكن العبرة بالنتائج العملية. وربما كان لنا أن نتفاءل بمثل هذه

المكاسب الادبية فى ظروف أخرى غير التى تجوزها مصر وتجوزها بلاد الشرق الأدنى .

وقد سمعنا قبل انعقاد الجمعية العمومية للأمم المتحدة كلاما كثيراً عن تحول السياسة البريطانية فى الشرق الأدنى إلى وجهة جديدة ، واعتزامها أن تقوم بتغييرات سياسية تتفق مع الظروف الجديدة . وربما كان من علائم ذلك التغيير ما أعلنه مستر بيفن وزير الخارجيـة البريطانية فى الجمعية العمومية من أن الحكومة البريطانية تعتزم فى المستقبل القريب أن تعترف بشرق الاردُن دولة مستقلة ذات سيادة . ونحن نعرف بالتجارب المرة ماذا يعنيه مثل هذا الاستقلال فى نظر السياسة البريطانية . وكذلك صرح مستر بيفن فى خطابه بأن بريطانيا تعتزم أن تنزل عن انتدابها على الكمرون وتوجولند وتنجانيقا (وهى مستعمرات ألمانيا السابقة) إلى مجلس الوصاية الدولى أحد هيئات الأمم المتحدة . ولكنها ستحتفظ بانتدابها على فلسطين حتى تنتهى لجنة التحقيق من مهمتها . ولا جديد فى مثل هذا التصريح ؛ لأن نظام الوصاية الذى ابتدعه دستور الأمم المتحدة هو نظام الانتداب نفسه مدعوماً مشدداً .

٣

إن عصبة الأمم الجديدة تبدأ حياتها العملية فى جو ملبد بالسحب وروح الثقة فى المستقبل تكاد تغيض بين الأمم ، وعوامل التشاؤم تخيم على كثير من الأمم التى كانت بالأمس القريب تحدوها أعظم الآمال .

فإيران ترى كيانها على وشك الانهيار نتيجة للتدخل الأجنبى السافر . وتركيا تشعر بأنها مهددة بمثل هذا المصير . وسوريا ولبنان ترى كلتاهما مصيرها يبت فيه دون رأيها بين الدولتين المحتلتين ؛ وتحتفظ إحداهما بحق إبقاء جنودها فى لبنان صوناً لما تسميه مصالحها الخاصة . ومصر بعد كل الذى تكبدته فى سبيل الأمم المتحدة وفى سبيل بريطانيا من التضحيات المادية والأدبية الفادحة، ترى السياسة البريطانية تنظر إلى مطالبها العادلة وحقوقها المشروعة فى الجلاء والسودان بنفس النظرة القديمة ، فتعتبرها مسائل قابلة للجدل والمنح والمنع ، وتأبى عليها الدول المتحالفة أن تشترك فى مؤتمر الصلح الخاص بإيطاليا مع ما لها من الحقوق

والمصالح الجوهرية فى شهوده ، ومع ما لها من حقوق تاريخية ومصالح حيوية فى بعض المستعمرات الإيطالية. وهذه الدول جميعاً من أعضاء عصبة الأمم الجديدة ، والمفروض أنها ، بمقتضى نصوص ميثاق الأمم المتحدة، يجب أن تكون بعيدة عن كل اعتداء على سيادتها واستقلالها وأن من حقها الواضح أن تلجأ إلى مجلس الأمن الدولى إذا ما استهدفت هذه السيادة وهذا الاستقلال لأى مساس أو اعتداء .

وإنه لمن بواعث الأسف أن تكون المظاهر الأولى لنشاط مجلس الامن فى مستهل حياته العملية مطبوعة بطابع الفتور والتردد ، فيما تراه الأمم ذات الشأن مسألة حياة أو موت لها . فقد رأت إيران مثلا أن تثير مسألتها أمام المجلس ، وتناولها المجلس كارها متردداً ثم تنحى عن بحثها مؤقتاً مفضلا أن تعالج بمفاوضات خاصة تجرى بين الطرفين المتنازعين وهما إيران وروسيا . وليت شعرى هل يستطيع المجلس إذا ما أخفقت هذه المفاوضات أن يصدر قراره بوجوب سحب روسيا وبريطانيا وأمريكا لجنودها من أراضى إيران المستقلة ؟ وهل تنزل الدول الثلاث عند مثل هذا القرار إذا ما صدر ؟ إن الظواهر الأولى تدل كلها على أنه ليس من المرجح أن يقدم المجلس على اتخاذ مثل هذه الخطوة الحاسمة فى مسألة إيران أو غيرها من المسائل القومية الشائكة ، أو أنه يستطيع أن يفرض على إحدى الدول الكبرى القيام بأية خطوة لا تود اتخاذها مهما كان فى ذلك من استجابة لمقتضيات الحق والعدالة .

وقد طرحت فى نفس هذه الدورة مسائل شائكة أخرى مثل مطالبة روسيا لسحب الجنود الإنجليزية من اليونان ومطالبة أوكرانيا بسحبها من أندونسيا . وتنوى سوريا ولبنان أيضاً إثارة قضيتهما أمام مجلس الأمن إذا لم تسحب الجنود الأجنبية منهما فى الحال . ولكن مجلس الأمن لم يشأ أن يواجه الأمر قط برأى أو قرار عملى . فانتهت مسألة اليونان بسحب روسيا لطلبها وبقاء الاحتلال الإنجليزى . وأحيلت مسألة أندونسيا لتسوى بمفاوضات خاصة بين هولندة والوطنيين وقرر المجلس أن بقاء الجنود الإنجليزية هنالك لاغبار عليه . ومن المرجح أن يقف المجلس إزاء مسألتى سوريا ولبنان مثل هـذا الموقف ، أو يكتفى باتخاذ بعض القرارات النظرية وكل هذه بوادر لا تبعث على التفاؤل .

وهذا التناقض الواضح بين الحقائق الواقعة وبين ما نسمعه من التصريحات الرنانة فى ساحة الأمم المتحدة عن حقوق الأمم وحرياتها ، هو أخطر ما فى الأمر

كله ، وهو أكبر بواعث التشاؤم وتزعزع الثقة . ونحن الآن نشهد تطوراً سريعاً فى عقلية الأمم يعتبر نذيراً شديد الخطورة . فقد خرج العالم دامياً ممزقاً من أروع صراع عرفه التاريخ قاست فيه الأمم أعظم المحن والكوارث ، وبذلت فيه أفدح التضحيات ، ولكنه خرج ليواجه بعد أشهر قلائل فقط حالة لم يكن تتوقعها معظم الأمم المحاربة والمسالمة على السواء ، وهى حالة أقل ما يمكن أن توصف به هو أنها تؤذن بأن الأمم الكبرى التى كتب لها النصر ، لم تعتبر بعبر الحرب المؤلمة ، ولم تثنها ويلات الحرب المروعة التى قاستها مدى ستة أعوام ، عن وسائلها ونزعاتها القديمة ، وهى التى كانت فى ذاتها من أهم العوامل والأسباب فى إضرام نار الحرب العالمية الثانية .

ولقد لبثنا خلال أعوام الحرب الستة نسمع خلال مناظر السفك والتدمير الهائلة أطيب الوعود وأقدسها عن حقوق الأمم وحرياتها ، وعن الغايات الإنسانية النبيلة التى تخوض الأمم الديمقراطية من أجلها هذا الصراع العالمى ؛ فكان عهد الحريات الأربع التى أعلنها الرئيس روزفلت أمام مجلس الكونجرس ، ثم كان ميثاق الأطلنطيق الذى يؤكد فى غير موضع قدس الحقوق والحريات القومية ، وحق جميع الأمم الطبيعى فى استقلالها واختيار الحكومات التى تلائمها ، كما يؤكد حقها فى المشاطرة فى فرص الرخاء الاقتصادى . ثم جاء بعد ذلك مؤتمر يالتا فى أواخر مراحل الحرب ليؤكد مرة أخرى ما جاء فى ميثاق الأطلنطيق . وكانت هذه الوعود العظيمة الخلابة تبدو خلال الظلمات المدلهمة كأنها بريق أمل ساطع تنطوى عليه سائر الأمم الصغيرة التى انحازت إلى جانب الديمقراطية ، تشاطرها المحنة وتؤازرها بكل ما وسعت من القوى المادية والأدبية ، إيماناً بما قطعته على نفسها من عهود ومواثيق مقدسة .

والآن وقد انجلت الغمرة المروعة ، وخرجت الأمم المتحدة ظافرة منتصرة ، وعادت تتبوأ مكانتها من السلطان والنفوذ ، فما الذى نرى ؟ نرى العهود والمواثيق وقد غدت ألفاظاً عقيمة . ونرى الدول الكبرى وقد استأنفت سياستها القديمة فى دعم نفوذها على حساب الدول الصغرى ، ونراها تتنافس فى إحراز مناطق النفوذ ، وتتفاهم فيما بينها على توزيع المغانم والأسلاب دون اكتراث لحقوق الأمم الصغرى . ونرى السياسة الاستعمارية الشرهة تعود إلى سابق عهدها بل أشد . وهكذا تتضاءل الآمال العظيمة التى عقدت على تحقيق العدالة

الدولية سراعاً ، وتشعر الأمم الطامحة إلى استرداد حقوقها وحرياتها ، بأنها خدعت وأنها تغدو مرة أخرى فريسة لمشيئة الظافرين المتحكمين .

إن التاريخ يعيد نفسه ، وإن أشد ما نخشاه هو ألا نجد فى هيئة الأمم المتحدة سوى عصبة الأمم القديمة تتشح بثوبها الجديد . وإذا كان المقام لا يتسع هنا للمقارنة التفصيلية بين دستور العصبة القديمة ، وميثاق الأمم المتحدة ، فإنه يكفى أن نلفت النظر هنا إلى أن ميثاق العصبة الجديدة يحتفظ فى هيكله بنفس الأسس القديمة . فالدول الكبرى تحتفظ لنفسها بالكراسى الدائمة فى مجلس الأمن (وهو المماثل لمجلس العصبة القديمة) ، ونظام الوصاية يحل محل نظام الانتداب القديم ، ونزعة السيطرة القديمة التى تحرص عليها الدول الكبرى لا تخفيها ألفاظ المساواة البراقة فى الميثاق الجديد .

وتمتاز العصبة الجديدة فوق ذلك بأنها سوف تحتكم على أداة مادية من القوى العسكرية لتنفيذ قراراتها حين ترى تنفيذها بالقوة القاهرة . وإذا كان ذلك يبدو من بعض الوجوه ميزة عملية فإنه من جهة أخرى قد يغدو خطراً إذا أسئ استعمال هذه القوة ، أو إذا لم تتوافر عناصر النزاهة والعدالة فى قرارات العصبة ومراميها .

وقد أشار رئيس الوفد السوفييتى فى خطابه فى الجمعية العمومية إلى أن هيئة الأمم المتحدة يجب أن تختلف عن عصبة الأمم القديمة فضلا عن أنها يجب أن تكون أداة فعالة لحماية مصالح الشعوب المحبة للحرية ، ويجب كذلك أن تشعر بأنها تعيش فى جو سليم ، وأن العمل المشترك فيها يتم بوسائل جديدة . أما إحياء الوسائل التى كانت تتبعها العصبة القديمة فلا يترتب عليه سوى الضرر بهيئة الأمم المتحدة .

وفى هذه الملاحظة تمثل المسألة كلها . فإذا لم تبادر هيئة الأمم المتحدة إلى تقديم الأدلة العملية على أنها قامت لتحقيق العدالة الدولية بين سائر الأمم كبيرها وصغيرها ، وإذا لم تشعر الأمم الصغرى بالطمأنينة على استقلالها وحرياتها فى ظل هذا الصرح الدولى الجديد ، فقدت الأمم المتحدة تأييد الشعوب وثقتها بسرعة ، وكان مصيرها المحتوم إلى ما صارت إليه عصبة الأمم القديمة .

محمد عبد الله عنان

أبو عبيدة

كان أبو عبيدة معمر بن المثنى ، شيخ الأدب فى مدينة البصرة ، منذ قضى شيخه أبو عمرو بن العلاء ، وخلا مكانه فى المسجد الجامع ، فى منتصف القرن الثانى . وقد ظل يملأ ذلك المكان أكثر من نصف قرن ، وظلت شخصيته القوية وصيته البعيد يجتذبان إلى مجلسه طلاب الأدب والمتأدبين فى البصرة وما وراءها . وقد تخرج عليه معظم الذين كانوا يمثلون الأدب ويوجهون الحياة الأدبية فى ذلك العصر ، كالجاحظ والمازنى وعمر بن شبة وأبى عبيد القاسم بن سلام وأبى حاتم السجستانى وأبى نواس وأهل طبقته من الشعراء كأبى العيناء والحسين الضحاك .

وإلى جانب هذه الأستاذية القوية لذلك الجيل ، كان أصلا من الأصول الكبيرة التى قام عليها الكتاب العربى ، واستمد منها النثر الفنى . ولقد بلغت الكتب المسندة إليه نحو المائتين فى الموضوعات المختلفة . وقد بقيت لنا منها بقايا نستطيع أن نضعه بها فى موضعه الحقيق من تاريخنا الأدبى .

وكان — فيما يبدو — من أنشط الناس فى الدرس ، وأكثرهم تمثلا للاتجاهات المختلفة فى عصره ، حتى جاز لأبى عثمان الجاحظ أن يصفه بهذه العبارة : « لم يكن فى الأرض خارجى ولا جماعى أعلم بجميع العلوم من أبى عبيدة » . وهذه العبارة وحدها تدلنا على مكان أبى عبيدة من الحياة الأدبية والعقلية لذلك العهد ، وعلى المنزلة التى كان يتمتع بها بين تلاميذه وأهل عصره .

ومع ذلك كله لم يكد الرجل يظفر من البحث الأدبى الحديث بأكثر من تلك الإلمامات البسيطة التى لا تكاد تغنى عن العلم شيئاً . وقد كتب الأستاذ أحمد أمين شيئا عنه فى كتابه « ضحى الاسلام » فى الفصل الذى عقده عن « اللغة والنحو والأدب » ، ولكنه جزء من فصل من باب من كتاب ، فلم تكن « هندسة الكتاب » تأذن بأكثر مما كتب فيه عنه .

وسنحاول فى هذا الفصل أن نتبين أبا عبيدة متصلا بعصره ، وبالتيارات الغالبة عليه ، وأن نتمثله تمثلا مستمداً من آثاره . ومهما تكن الاقدار قد أصابت هذه الآثار فبددتها وأضاعت معظمها ، فلا محيص للباحث الذى يتلمس مظاهر الحياة الأدبيـة فى القرن الثانى ، ويتتبع تاريخ النثر العربى فى ملابساته المختلفة ، ويقتفى الأطوار التى مر بها الكتاب العربى ، من محاولة التعرف إليه واستبطان حقائقه ، بتقصى أخباره ونثار آثاره فى المصادر المباشرة وغـير المباشرة . وقد بقى لنا من آثاره قطعة من كتاب « مجاز القرآن » محفوظة فى مكتبة الجامعة المصرية ، إلى جانب قطعة أخرى فى دار الكتب المصرية ، ثم كتاب النقائض ، على نظر فى ذلك نرجو أن نعرض له بعد . وفوق هذا لايكاد كتاب من كتب الأدب العربى العامة يخلو من الرواية عنه ، والنقل لبعض آثاره ، فى المواضع المختلفة ، وإن كان أكثر هذا النقل لا يسند إلى كتاب بعينه .

١

لا نكاد نعرف شيئاً عن أصل أبى عبيدة وأوليته — كما هو الشأن فى أكثر أهل هذه الفترة المضطربة — إلا ما نتحسسه تحسساً فى بعض النصوص التى تروى عنه . ولدينا فى ذلك نصان ذكرهما ابن النديم ، أحدهما عن علان (أو غيلان) الشعوبى ، يقول إنه من أهل فارس ، أعجمى الأصل . والآخر ينسب إلى أبى عبيدة نفسه إذ يقول : «حدثنى أبى أن أباه كان يهودياً بباجروان» فأما . فارس فهى ذلك الإقليم الذى يقع على بحر الهند أو الخليج الفارسى بين إقليم البصرة والأهواز وكرمان ، وهى إقليم إيرانى عريق لعله من أول الأقاليم التى صدرت عنها النزعة الشعوبية واتخذت فيها منهجاً منظما . وأما باجروان فهى مدينة قصية على التخوم الايرانية التركية ، والأمر فيها مختلف بين الجنس الايرانى والجنس الطورانى . ويقول عنها ياقوت : إنها « مدينة من نواحى باب الأبواب ، قرب شروان ، عندها عين الحياة التى وجدها الخضر عليه السلام ، وقيل هى القرية التى استطعم موسى والخضر عليهما السلام أهلها » . وباب الأبواب (دربند) التى تقع باجروان فى نواحيها واقعة — كما يقول ياقوت عن الإصطخرى — على بحر طبرستان ، وهو بحر الخزر أو بحر قزوين ؛ فباجروان إذن واقعة فى تلك

الأقاليم الجبلية التى تشرف على ذلك البحر . وحديث المستوفى عنها يجعلنا نتمثل موقعها تمثلا أدنى إلى الدقة من هذا ؛ إذ يقول : إنها القصبة القديمة لإقليم موقان، على أربعة فراسخ شمال برزند، وموقان هى إحدى ولايات أذربيجان، وإذن فهى إلى الجنوب الغربى من بحر قزوين . ويقول ياقوت فى وصفها : « ولاية فيها قرى ومروج كثيرة، يحتلها التركمان للرعى، فأكثر أهلها منهم » . وهكذا تنتهى بنا هذه النصوص إلى تصور المفارقات الكثيرة التى تفرق بين « فارس » التى يذكرها نص علان الشعوبى، « وباجروان » التى يذكرها نص أبى عبيدة نفسه . على أنه لا تعارض عندنا بين النصين ؛ فنص أبى عبيدة يتعلق بأصله الأول ومقام أجداده، والنص الثانى يتعلق بمنشئه، حيث ولد ونشأ نشأته الأولى ؛ فالجهة منفكة كما يقول المناطقة، إذ كان كل من النصين يعنى شيئاً لا يعنيه النص الآخر .

ومما يقوى لدينا نص أبى عبيدة : أن جده كان يهودياً من يهود باجروان ما يبدو من أن ذلك الإقليم كان من الأقاليم التى اتخذت الديانة اليهودية فيها مكاناً ظاهراً، بدليل هذه الذكريات اليهودية التى تتصل به وتحوم حوله، كما رأينا فى النص الذى أوردناه عن باجروان، ومثل هذا نجده فى الكلام عن شروان، إذ يقول ياقوت : « ويقولون بالقرب منها صخرة موسى عليه السلام التى نسى عندها الحوت فى قوله تعالى : (قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت) . قالوا : فالصخرة صخرة شروان، والبحر بحر جيلان، والقرية باجروان » ويصرح البشارى فى كلامه عن بعض المدن هنالك بما يدل على أن اليهودية كانت ظاهرة فى ذلك الإقليم، كما فى كلامه عن « إتل » و « خزر » فى سياق الحديث عن « إقليم الديلم » .

وإذن فأبو عبيدة من أسرة يهودية خزرية الأصل، حتى إذا كانت إحدى تلك الغزوات التى جعل المسلمون يشنونها على تلك الجهات وقع جده فى الأسر، ثم صار إلى فارس فى ولاء أحد التيميين . وهنالك نشأت هذه الأسرة الصغيرة إلى جانب مواليها : بنى عبيد الله بن معمر التيمى، حتى خرج منها معمر بن المثنى . وقد ولد فى أوائل القرن الثانى، على اختلاف كبير فى سنة مولده بين سنة ١١٠، ١١٤، ١١٥، ١١٦ . ثم يعترض هذه الأقوال كلها فى سنة مولده نص يذكره ياقوت فى ترجمة قتادة بن دعامة السدوسى، يرويه التوزى عن أبى عبيدة إذ يقول : « ما كنا نفقد فى كل أيام السنة راكباً من ناحية بنى أمية، ينيخ على

باب قتادة ، يسأله عن خبر أو نسب أو شعر » . وقتادة هذا مات — كما يقول الأصمعى فى حكاية ياقوت عنه — « بالبصرة سنة سبع عشرة ومائة ، فى أيام هشام بن عبد الملك » . فإذا صح هذا الخبر ولم يكن محرفاً كان علينا أن نجعل مولد أبى عبيدة قبل سنة ١١٠ بسنوات .

ومهما يكن من أمر ، فقد نشأ معمر بن المثنى فى البصرة — ولا ندرى متى كان انتقاله إليها من فارس — وقد صادفت نشأته هذه اليقظة القوية التى هزت العقل الإسلامى هزة عنيفة منذ ذلك الوقت ، حين جعل الموالى يحسون بشخصيتهم ، ويتوثبون ليظفروا لأنفسهم فى ذلك المجتمع بالمكانة اللائقة بهم ، والجديرة بتاريخهم وبالدور الذى قاموا به فى التمهيد لهذه الدولة الجديدة . وكذلك أخذت تحفزهم هـذه الحوافز القوية العميقة وما جعل يلابسها من ملابسات مختلفة إلى مجاراة هؤلاء العرب فى ثقافتهم ، ليكونوا نظراءهم ، إلى جانب استحيائهم ثقافاتهم القديمة ، ثم ما يستتبعه الاستطراد فى هذه السبل من محاولة الغض من العرب ، ثم ما يترتب على ذلك من شعور العرب بهذه المنافسة والمغالبة ، وما يوقظه ذلك فى نفوسهم من الحرص ، وما يدفعهم إليه من التحفز والتسلح بشتى الأسلحة ؛ وبذلك امتلأ الجو نشاطاً وحيوية ، وأخذت الحياة الأدبية والعلمية تتخذ فى مدينة البصرة ، منذ أول القرن الثانى ، مظهراً رائعاً، لا فى استحيـاء الآثار الأجنبية القديمة فحسب ، بل فى درس الأدب العربى ومظـاهر الحياة العربية درساً دائباً منظماً كذلك ، بتأثير تلك الحالة التى ذكرناها .

فى مثل هذه الفترات المضطربة التى تختلف فيها العناصر ، ويشتد التنافس ، وتعظم الحيوية ، يوجد نوع من الطموح الأدبى يغمر النفوس ويضع أمامها صوراً من المجد الأدبى متألقة فاتنة . وكذلك أقبل صاحبنا معمر بن المثنى على الدرس واتخذ سبيله إلى العربية . وسنفسر هذا الاتجاه فيما بعد من بعض وجوهه . على أنا نستطيع أن نقول منذ الآن : إن لمكانة أبى عمرو بن العلاء فى البصرة ولشخصيته القوية أثراً غير قليل فى هذا التوجيه ، فاتخذه معمر شيخا له ، وأخذ مكانه فى حلقته ، وكانت من أكثر حلقات المسجد توفراً وأحفلها بالطلاب. وقد ظل أثر أبى عمرو فيه أبقى الآثار وأكثرها غلبة عليه .

وقد كان أبو عمرو رجلا واسع المعرفة إلى حد بعيد ، حتى ليذهب الجاحظ

فى صفته إلى القول بأنه « كان أعلم الناس بأمور العرب ، مع صحة سماع وصدق لسان » . ويصفه أبو عبيدة نفسه — كما يروى الجاحظ عنه — بقوله : « كان أبو عمرو أعلم الناس بالعرب والعربية وبالقراءة والشعر وأيام الناس ... وكانت كتبه التى كتب عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً له إلى قريب من السقف ، ثم إنه تقرأ فأحرقها كلها ، فلما رجع بعدُ إلى علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حفظه بقلبه . وكان عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية » . وهذا الوصف الذى يصف به أبو عبيدة شيخه الأول وأستاذه الأكبر هو طابع علمه هو الذى ظل مخلصاً له ؛ فقد كان أكثر اتجاهه إلى علوم العرب والعربية والشعر وأيام الناس ، وكان مكبراً لهذه الناحية وفيًّا لها ، ملتمساً الأسباب المختلفة لتحقيقها ، فلم يكتف بالأخذ عن أبى عمرو ، بل ذهب يتتلمذ على أحد تلاميذه المطبوعين بطابعه ، وهو أبو عبد الرحمن يونس بن حبيب . وهو وإن كان يختلف عن أستاذه أبى عمرو بأنه كان من هؤلاء الموالى الذين اتجهوا إلى درس العربية ، قد كان أعرابى الطابع ، و « كانت حلقته تجمع فصحاء الأعراب وأهل العلم والأدب » كما يقول ياقوت . ويذكر أبو عبيدة أخذه عنه بقوله : « اختلفت إلى يونس أربعين سنة أملأ كل يوم ألواحى من حفظه » .

ثم لم يكف هذ أبا عبيدة فى إرضاء تلك النزعة ، فاتجه إلى الأعراب أنفسهم ، يأخذ عنهم ، ويستتم مادته بما يلقونه إليه من الأخبار ، وما ينشدونه من الشعر .

ولم يذكر ابن النديم ولا البغدادى ولا ياقوت فى ترجماتهم له هذا الأخذ عن الأعراب ، ولكن ابن النديم ذكر فى الفصل الذى عقده بعنوان : « أسماء فصحاء العرب المشهورين الذين سمع منهم العلماء وشىء من أخبارهم وأنسابهم » رجلا من هؤلاء الأعراب اسمه أبو سوار الغنوى ، وفى حديثه عنه ذكر أن ممن أخذ عنه أبا عبيدة . وأبو سوار هذا هو الذى يذكر فى الأغانى أحيانا بهذه الصورة : « أبو سرار » وإحدى الصورتين محرفة عن الأخرى ، والأقرب عندنا أنه أبو سوار لا أبو سرار .

ونحن نستطيع أن نعرف — عدا أبى سوار هذا — كثيراً من أسماء الأعراب الذين أخذ عنهم أبو عبيدة ، من خلال الفصول التى نقلها عنه صاحب الأغانى ، فمنهم من الغنويين ، أبو يحيى ، وعبد الحميد بن عبد الواحد ، ثم أبو برزة القيسى ، وأبو حية النميرى ، وأبو محمد عصام العجلى ، ومقاتل الأحول

ابن سنان ، ومالك بن عامر بن عبد الله بن بشر بن عامر ملاعب الأسنة ، إلى غير هؤلاء ممن يذكر فى هذه الفصول وفى غيرها ككتاب النقائض . وإذا كنا لا نكاد نعرف شيئا عن أكثر هؤلاء الأعراب ، فإننا نلاحظ — أول شىء — أن الأخبار التى يرويها عنهم إنما هى فى الأعم الأغلب أخبار تتصل بقبائلهم . ولعلنا نستطيع بالإلحاح فى الدرس وتتبع رواياتهم ومقابلتها ، أن نتمثل شيئاً عنهم ، وعن الأجواء التى كانت تحيط بهم .

وهكذا نرى أبا عبيدة قد حدد اتجاهه ، منذ تتلمذ على أبى عمرو ، بعلوم العرب من لغة وشعر وخبر ، ثم أخذ يوغل فى هذا السبيل حتى استطاع أن يأخذ مكان أستاذه من بعده . ولا تكاد كتبه التى تدل أسماؤها على موضوعاتها ، ولا آثاره وأخباره المنثورة ، فيما وقع إلينا ، تتجاوز ذلك . وإن ذهب الأستاذ احمد أمين فى الفصل الذى أشرنا إليه إلى أنه كان موزعاً بين ثقافات ثلاثة : يهودية وفارسية وعربية . والأصل فى هذا — كما يقول الأستاذ — إنه « فارسى الأصل ، يهودى الآباء ، تيمى بالولاء » . وظاهر أن هذا لا يكفى فيما ذهب إليه . وقد يكون للرجل ثقافة ما فارسية أو هندية أو ما إلى ذلك ، ولكنه كان يتلقفها مما كان يغمر الجو العلمى والأدبى فى البصرة ويشيع فيه ، كالذى جاء فى كتاب الأمالى [1] مما نسبه إليه أبو حاتم ، من حكاية بعض الحكم المأثورة عن فارس ، أو ما جاء فى عيون الأخبار [2] من حكايته عن بعض الهنود المقيمين بالبصرة شيئاً مما يتعلق بالبيطرة أو طب الخيل .

وقد عرف بهذه الناحية ، وأقبل عليه الطلاب يلتمسونها عنده . وكان ينافسه على هذه المنزلة فيها أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعى . وكان الأصمعى يُدِلّ بمكانته لدى السلطان ، وبقدرته على حفظ الأخبار وحسن أدائها ، واختلابه الأسماع بذلك ، ولهذه الصفات قيمتها فى مجلس السمر ، فهو — كما يقول أبو نواس فى صفته — بلبل فى قفص ، ولكن غناءها فى حلقات الدرس غير كبير . فأما أبو عبيدة فكان أستاذاً قبل كل شىء ، وكان طلاب الأدب يكبرونه لأستاذيته هذه ، ويُقبلون على حلقته ، لأنهم — على حد تعبير بعضهم — « كانوا إذا جاءوا مجلس الأصمعى اشتروا البعر فى سوق الدر »

(١) ١ : ٢٤٠ — (٢) ١ : ١٥٩

وإذا أتوا مجلس أبي عبيدة اشتروا الدر في سوق البعر ؛ لأن الأصمعي كان حسن الإنشاء والزخرفة ، قليل الفائدة » .

ولسنا نعلم إلى أي مدى بلغت هذه الخصومة بين الرجلين . ولكننا نستطيع القول بأن أبا عبيدة ظفر بخصمه في حلقات الدرس في البصرة أولاً ، ثم ظفر به بعد ذلك لدى السلطان في بغـداد . وقد جاءه هذا الظفر عفواً ، وتهيأت له أسبابه دون أن يقصد إليه . وقد ذكر صاحب الأغاني طرفاً من هذه الأسباب ، في أخبار إسحاق بن إبراهيم الموصلي ، قال :

« كان إسحاق يأخذ عن الأصمعي ويكثر الرواية عنه ، ثم فسد ما بينهما ، فهجاه إسحاق وثلبه وكشف للرشيد معايبه ، وأخبره بقلة شكره وبخله وضعة نفسه وأن الصنيعة لا تزكو عنده ، ووصف له أبا عبيدة معمر بن المثنى بالثقة والصدق والسماحة والعلم . وفعل مثل ذلك للفضل بن الربيع واستعان به ، ولم يزل حتى وضع مرتبة الأصمعي وأسقطه عندهم ، وأنفذوا إلى أبي عبيـدة من أقدمه » .

وهكذا أتيح لأبي عبيدة أن يدخل بغداد ويتصل بالسـلطان فيها ، وأن يشهد الحفاوة به في مجلس الخليفة وأهل خاصته ورجال دولته كالفضل بن الربيع وإسماعيل بن صبيح . وكان ذلك سنة ١٨٨ كما نص على ذلك الخطيب البغدادي ، أي بعد نكبة البرامكة ، وإن ذكر الأستاذ أحمد أمين ما يشير إلى صلته بهم ، وأنهم « كانوا يقـدمونه على الأصمعي ويزاحمونه به عصبية منهم » . ولا يكاد يستقيم هذا مع ما يذكره الأصبهاني والبغدادي من ملابسات دخوله بغداد ، وأن ذلك كان من عمل الموصلي والفضل بن الربيع . ونحن نعرف بعدُ ماذا كان بين الفضل بن الربيع هذا والبرامكة من جفوة وعداء ، وهذا فضلا عن التاريخ الذي أشرنا إليه .

ولبث أبو عبيدة في بغداد فترة من الزمن ، قرئت فيها كتبه عليه ، قرأها عليه علي بن المغيرة الأثرم الوراق ، واتجه فيها إلى وضع كتابه مجاز القرآن . ثم لم يلبث أن عاد إلى البصرة ، وكان هذا الـكتاب من أول ما عنى بوضعه بعد عودته ، وكان من أكثر كتبه إثارة للموجدة عليه ، وبعثاً للخصومات ضده . وكان الأصمعي رأس هذه الحملة التي وجهت بسبب هذا الـكتاب إليه .

وقد ظل بقية حياته في البصرة موفور النشاط في الدرس وإخراج الـكتب ،

وإلى جانبه وراقه الخاص به ، ابو غسان رفيع بن سلمة العبدى ، الملقب بدَمّاذ .
وربما كان أول من اختص بين العلماء والمؤلفين بورّاق يروى كتبه وينسخها
ويذيعها وينزل منه منزلة الراوية من شاعره فى عهود الشعر .

٢

وبعد ، فقد كان أبو عبيدة — كما رأينا — خزرى الأصل ، من هذه الأقاليم
التى ظلت ميداناً للحروب المتصلة بين الإيرانيين والأتراك ، وظلت مضطربة بين
هذه الجنسين ، وإن بقى العنصر التركى غالباً عليها ظاهراً فيها . وإذن فالقول
بفارسيته فيه تجوز كثير ، والمبالغة فى استنتاج النتائج من هذه الفارسية ،
وتفسير الظواهر المختلفة بها ، مجانبة للدقة . ولسنا نقطع بشىء إلا أنه من هذه
الأقاليم النائية ، وتلك الأجناس البعيدة التى لم تكن دخلت بعد فى معترك
الأجناس فى العراق . ولهذه الحقيقة عندنا أثرها فى توجيه حياته .

ولعل مما يلفت النظر ويدعو إلى التساؤل أن نجد كثيراً من رواة اللغة
والأخبار وصور الحياة العربية فى هذا العصر ينتسبون إلى هذه الأقاليم وتلك
الأجناس ؛ فإلى جانب أبى عبيدة فى البصرة نجد خلفا الأحمر ، وهو ليس إيرانيًّا
على إطلاق القول ، إذ كان من فرغانة ، فيما وراء النهر ، على تخوم التركستان .
وفى الكوفة حماد الرواية ، وهو ليس إيرانيًّا كذلك ، بل هو من تلك الأقاليم
التى ينسب إليها أبو عبيدة ، إذ كان من بلاد الديلم . وفيها ابن الأعرابى ، وهو
سِنْدِىّ الأصل ؛ إذ كان أبوه — فيما يقول ياقوت — عبداً سنديًّا . وهذه
ظاهرة غريبة ولا ريب ، تكاد تؤدى بنا إلى القول بأن رواية الحياة العربية
بأشعارها وأخبارها مرددة بين العرب كأبى زيد والأصمعى والفضل الضبى ،
وبين هذه الأجناس البعيدة كأهل الديلم وفرغانة والسند ، كما رأينا فى أبى
عبيدة وخلف وحماد وابن الأعرابى . فما تأويل هذه الظاهرة ؟

يقول الأستاذ أحمد أمين عن أبى عبيدة ، فى سياق الكلام عن طابع علمه ،
إن فارسيته حررته من الخضوع للعصبية العربية . ولكن هذا إذا جاز أن
يفسر نزعته الشعوبية ، فإنه يتعارض تعارضاً كبيراً مع هذا الاستغراق الشديد
فى الحياة العربية متمثلة فى أشعار العرب وأخبارهم ، كما لاحظه معاصروه ، وكما

تراه واضحاً جليًّا فى هذه البقية الباقية من آثاره ، وحتى جاز له أن يقول وأن يقبل هـذا القول منه : « ما التقى فرسان فى جاهلية ولا إسلام إلا عرفتهما وعرفت فارسيهما » . ولو أنه كان يدرس الحياة العربية ليستخرج منها مثالب العرب إرضاء لفارسيته كما قد يذهب الزعم لقد كان يكفيه فى ذلك القليل من درس هذه الحياة ، ولما اقتضى منه ذلك المذهب هذا « الاستغراق » الذى يبهرنا حقًّا حين نقرأ بعض الآثار التى بقيت لنا منه ، وفيها إلى جانب الصور العربية التى يمكن أن توصف بأنها زرية كثير من الصور النبيلة الجيدة التى تبعث على الفخر ، والتى هى جديرة أن تقوى العصبية العربيـة . لقد كان حق القول أن يقال : «إن فارسيته أقبلت به إلى الثقافة الفارسية» . وهذا ما لا نكاد نجده عند أبى عبيدة ، ولدينا جزء غير قليل من آثاره ، كما أنا نعرف أسماء كتبه ، وقليل بينها ما يحتمل الاتجاه الفارسى .

ولـكن عبارة الأستاذ أحمد أمين مع هذا تفتح لنا السبيل إلى تفسير هذه الظاهرة التى ساءلنا عنها . فإذا كانت فارسية أبى عبيدة مما يحرره من الخضوع للعصبية العربية ، فإننا نستطيع القول بأن جنسية أبى عبيدة الخزرية مكنته من التحرر من العصبية الفارسية والعصبية العربية جميعاً . وكذلك يمكن أن يقال هذا عن بقية الرواة الذين أشرنا إليهم ، كحماد وخلف وابن الأعرابى . على أنه ربما كان لمثل هذه الجنسية أثر فى التمـكين لهم من هذا المذهب الذى اتجهوا إليه ، وهو التحرر من ربقة الإلف للحياة العربية ، وهو الإلف الذى يحيط بالعربى ، ويصد عنه شعور العجب ، وهو الشعور الذى يعتبر من أكبر البواعث على أن يتنبه الرجل لما حوله تنبهاً قويًّا ، حتى يراه جديراً بالتسجيل .

ذلك أن هـذه الجنسية كانت لا تزال حتى ذلك الوقت بعيدة عن معترك الأجناس التى كانت تصطرع على السلطان ، وتختلف على صفات العظمة والسمو والمآثر المستمدة من التاريخ القريب والبعيد . وبذلك استطاعت أن تقف طليقة لا تغيرها هذه المشاعر المحتدمة المضطربة ، واستطاع أصحابها أن ينظروا فيما حولهم نظرة حرة واسعة مجردة ، وأن يختاروا لأنفسهم الميدان الذى يملكون فيه التبرز والغلبة ، أو يحققون فيـه لأنفسهم بعض الغايات او المكانات الاجتماعية التى يتشوقون إليها ويتطلعون إلى الظفر بها . هـذا هو — فيما نحسب — مفتاح ذلك السر ، ونقطة البداية فى تحقيق تلك الظاهرة . ولعل

أقدم من يمثلها حماد الراوية ، وربما كان بشخصيته وأوليته هذه من الأسباب القوية التى مكنت لها ، فالمواطنة أو شبه المواطنة التى نراها بين حماد وخلف وأبى عبيدة كالمعاصرة تثير التأسى وتبعث على الاقتداء .

وقد نجح حماد نجاحاً يكاد يكون منقطع النظير فى عصره ، فى رواية الحياة العربية بأخبارها وأشعارها ، كما نجح إلى جانب ذلك فى الظفر بتلك المكانة الاجتماعية التى تطمح الأبصار إليها . فكان — كما يقول أبو الفرج — « من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها ، وكانت ملوك بنى أمية تقدمه وتؤثره وتستزيره ، فيفد عليهم وينادمهم ، ويسألونه عن أيام العرب وعلومها ، ويجزلون صلته » . فلا جرم كان بشخصيته هذه وبتلك المكانة التى وصل إليها من أفضل الأسى التى تبعث على الاقتداء ، وتعمل عملها فى قيام الظواهر المختلفة ، ولا سيما إن كان هنالك نوع من الصلة كالذى كان بينه وبين أبى عبيدة مثلا .

ويقول ابن النطاح فى حكاية الباعث الذى بعث حماداً على انتهاج تلك السبيل — كما يروى أبو الفرج — أنه « كان فى أول أمره يتشطر ويصحب الصعاليك واللصوص ، فنقب ليلة على رجل فأخذ ماله ، وكان فيه جزء من شعر الأنصار ، فقرأه حماد فاستحلاه وتحفظه ، ثم طلب الأدب والشعر وأيام الناس ولغات العرب بعد ذلك ، وترك ما كان عليه ، فبلغ من العلم ما بلغ » . وهذه قصة قد تصح وقد لا تصح . ولكن الذى لا يكاد يداخلنا فيه الريب أن حماداً كان يحس منذ صغره أنه غريب فى المجتمع الذى كان يعيش فيه ، وهو المجتمع الكوفى ، فلا هو نبطى ولا هو فارسى ولا هو عربى ؛ فكان لا بدّ له ، فى طبيعة الأشياء فى مثل هذه الحالة ، أن يستكمل هذا النقص ، وأن يملأ هذا الفراغ الذى يحيط بشاعره ، فيصطنع إحدى هذه الجنسيات التى حوله ، وكلها سواء بالنسبة إليه ، إلا أن العربية كانت ترجحها بطبيعة الحياة فى ذلك الوقت ، فمواليه الذين نشأ فيهم وتربى بينهم هم بنو شيبان ، والدولة القائمة عربية فى حقيقتها وفى ذوقها . وما هؤلاء الفرس ومن إليهم ممن يضمرون الخروج على الدولة ، إلا ثوّار لا يمتّ إليهم بصلة ، ولا يشعر نحوهم بآصرة . وإذن فلا بدّ له من أن يصطنع العربية ، وأن يظفر من ذلك الاصطناع بما يملأ ذلك الفراغ ، فيحيا حياة عربية بدوية تملأ حواسه بالمظاهر العربية . ولعل تلك الحياة هى التى يشير إليها ابن النطاح

بالتشطر وصحبة الصعاليك واللصوص ، وأن تكون حياته المعنوية عربية أيضاً ، فيملأ عقله وخياله من الصور العربية الفنية ، يلتمسها فى هذه الأشعار ، وفيما يتناقله الأعراب من الأخبار . فإذا تم له هذا فقد وجد نفسه فى سبيل اتخاذ صناعة جديدة ، هى صناعة « الرواية » ، وقد تهيأت له أسبابها ، واجتمعت لديه مادتها بما لم تجتمع لأحد قبله . وما أشد حاجة الكثير من رجال هذه الدولة العربية إلى هذه الصناعة ، وبذلك يستطيع أن يحقق لنفسه هذه المكانة الأدبية والاجتماعية التى تصحح له موضعه .

هذه صورة من الحالات النفسية كما يمكن أن تصورها لنا الملابسات التاريخية والأدبية لحماد الراوية . وحاجتنا إلى معرفة هذه الصورة متصلة بتعرف الحوافز التى دفعت أبا عبيدة لسلوك سبيله تلك التى سلكها ، وهى بعينها سبيل حماد الراوية . فالرجلان يلتقيان فى هذه السبيل ، كما يلتقيان فى جنسية واحدة هى الجنسية الخزرية . وإذا كانا يختلفان بعدُ فى ظروفهما ، إذ نشأ أبو عبيدة فى إبان الانقلاب العباسى ، وبين عوامل التوثب على الجنس العربى ، فإنا نحسب أن هذه القدوة التى كانت تتمثل فى حماد الراوية أمام أبى عبيدة وهو فى مفترق الطرق ، — وهى قدوة تملك كل عناصر التأثير — كانت مما يعوض عن هذا الاختلاف ، ويسدده فى تلك السبيل ، وإن بقى بعد ذلك فى أبى عبيدة شىء من آثار هذه الظروف كالنزعة الشعوبية ، وهى نزعة وجدت من العوامل الشخصية ما أبرزها ، كما نرجو أن نعرض لذلك بعد ، فقد كان هذا أمراً لابد منه فى طبيعة الأشياء . ولكنا نبادر فنقول منذ الآن إن هذه الشعوبية لا صلة لها بالفارسية ، ولكنها — فيما نحسب — شعوبية على الأصل فى هذه التسمية ، وهو التسوية بين الشعوب المختلفة التى تتكون منها الأمة الإسلامية ، فلا فضل لعربى على عجمى . ذلك هو الأصل عندنا فى شعوبية أبى عبيدة ، ويرجحه لدينا ما هو معروف عنه من أنه كان خارجى المذهب ، وقد نص على ذلك الجاحظ ، كما ذكر ابن النديم وياقوت أنه وضع كتاباً فى «خوارج البحرين» . ومذهب الخوارج يتفق مع هذه الشعوبية بمعنى التسوية ، فالناسَ فى هذا المذهب سواء ، ورأيهم فى الأحق بالخلافة أنه الأصلح لها عربيًّا كان أو غير عربى صريح فى الدلالة على ذلك . ولو أن شعوبيته كانت شعوبية فارسية لكان الأقرب إليها والأدنى إلى الاتفاق معها ، أن يكون شيعى المذهب ، وهو ما لا نعرف عن أبى عبيدة أنه كان يقول به أو يذهب إليه .

هذا هو الأصل فى اتجاه أبى عبيدة إلى الحياة العربية يتعرف أخبارها ويدرس أشعارها . وقد أقبل على ذلك — كما قلنا — مستغرقا فيه ، ملتمساً كل سبيل إليه . فلم يكتف فى ذلك بالتلقى عن شيوخ البصرة الذين تلقوا عن الأعراب كأبى عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب ، وإنما سلك سبيل هؤلاء الشيوخ ، فجعل يأخذ عن الأعراب كما كانوا يفعلون .

وكان لهؤلاء الأعراب سوق كبيرة رائجة فى هذه الأمصار ، ولا سيما البصرة بلد أبى عبيدة التى نشأ فيها كما قلنا ، منذ نشأت الحاجة إلى درس العربية واستنباط قواعدها وتثقيف اللسان بها ، والاعتماد فى هذا الدرس على مصادره الأولى ، وهى الشعر الذى يرويه هؤلاء الأعراب ، واللغة التى يتكلمون بها ، والأخبار التى يقصونها . فلم تعد الدوافع التى تدفع بهؤلاء الأعراب إلى المصر مقصورة على التجارة فيما اعتادوا أن يتجروا به ، فقد نشأت لهم هذه السوق الجديدة يتجرون فيها بالحياة العربية التى يحيونها والتى يروونها ، مع هؤلاء النفر الذين اتخذوا من هذه الحياة وروايتها ودرسها وتسجيلها مادة علمهم وميدان نشاطهم ، سواء أكانوا من رجال النحو أم من أصحاب الشعر والخبر .

وقد نشأت هذه السوق فى البصرة بمربدها ، حيث كان هؤلاء الأعراب يفدون للتجارة بأموالهم ، وقلما كانوا أول الأمر يتجاوزونه . حتى إذا أقبلت هذه السوق الأدبية الجديدة ، وأحس هؤلاء الأعراب بإقبالها ونشاطها ، وبأنها أجدى عليهم وأكثر عائدة لهم ، أخذوا يدخلون المصر ، ويتصلون بالبيئات العلمية فيه ، بل جعل بعضهم يستقر به ، وأخذ فريق منهم يجدد فى أسلوب هذه التجارة الأدبية ، فلا يقتصر على الرواية ، بل يصطنع إلى جانبها الوراقة ؛ فقد أحس أن القوم يتجرون بعلمه ، ويفيدون منه أضعاف مايفيده ، فأخذ يزاحمهم فى سبيلهم . وبذلك أخذنا نرى من هؤلاء الأعراب من يذكر عنه أنه كان يورق فى الحضر ، كالذى يذكره ابن النديم عن أبى مالك عمرو ابن كركرة .

ولقد كان إقبال الأعراب على البصرة بهذه الصورة من العوامل القوية فى نشاط هذا الاتجاه العربى فى الحياة الأدبية بهذه المدينة ، نشاطاً استطاع أن يعادل ذلك الاتجاه الآخر إلى رواية الحياة الفارسية ويغالبه ، وهو الاتجاه الذى نراه عند ما ندرس ابن المقفع مندفعاً فى سبيله بجميع قوته لا يكاد يعبأ

بشيء ، ولكنه لم يلبث أن رأى ذلك الاتجاه العربى الذى كان الأعراب يزيدونه قوة ، ويعلأون به الجو الأدبى فى البصرة ، يناظره ويغالبه ويأخذ عليه سبيله ، ويكسر من حدة نشاطه ؛ فقد كان يملك الوسيلة التى يملكها مناظره ، وهى روح القصص وتصوير البطولة فى صورها المختلفة . وهى الروح التى تفتن الجمهور وتقبل به وتسيطر عليه . ولا ريب أن هذا الأثر الأعرابى من أخطر الآثار فى الحياة الإسلامية : الأدبية والاجتماعية معاً ، وهو عندنا أخطر من جميع ما ينسب إلى الأعراب فى تاريخ الأدب العربى ، من الاستعانة بهم فى وضع النحو وجمع اللغة وما إلى ذلك . ويكاد يعادله عندنا ما أتيح لهذا الاتجاه العربى من رجل كأبى عبيدة ، احتمع له من المواهب العقلية والفنية ، ومن القدرة على الدءوب والصبر ، ما استطاع به أن يجعل ذلك الأثر الأعرابى قوة منظمة ، وأن يسبغ عليه من المظاهر العلمية والأدبية ما يجعله بعيد الأثر ، جديراً بمناهضة ذلك الاتجاه الفارسى .

ولكن قبل أن نأخذ فى عرض ما عمله أبو عبيدة فى هذه السبيل لابد لنا أن نتساءل أولاً عن العوامل التى أدت إلى اجتماع هذا الفيض الزاخر من أخبار الحياة العربية وصورها ، حتى أتيح لأبى عبيدة أن يصنع منه هذا البناء العظيم الذى يمثل الحياة العربية البدوية تمثيلا يأخذ بجوانب النفس ، أو بعبارة أخرى : كيف أتيح لبادية البصرة أن تضم هذه الأطراف المختلفة من صور الحياة الجاهلية ؟

الأمر فى هذا قريب هين متصل بطبيعة المجتمع البصرى منذ أول عهده . ذلك أن البصرة كانت أكبر المراكز التى ثارت فيها الخصومات العنيفة المتصلة بين القبائل العربية ، وكانت هذه الخصومات المحدثة والمنافسات الجديدة سبباً فى إثارة الأحقاد القديمة الكامنة فى أعماق هذه القبائل . ومنذ ثارت هذه الأحقاد وجدت من الشعراء من يؤرثها ويهيجها ويثير الذكريات المختلفة المتصلة بها ، كما وجدت من الرواة من يجعل همه فى اقتصاص أخبارها وتتبع أحاديثها .

وليس من شأننا هنا أن نذكر الأسباب المختلفة لهذه الخصومات ، فإنما غايتنا المتصلة بموضوعنا أن نسجل نتائجها الأدبية . ومن أول هذه النتائج ما أشرنا إليه من قيام الشعراء بها ، واستثارة الذكريات الجاهلية فى أشعارهم حين يفخرون بقبائلهم ، ويغضون من قبائل خصومهم ، ويلجئون فى هذا

لجاجا بعيداً كلما لجت الخصومة، حتى لنرى من أهل هذه القبائل من يشفقون من صنيع هؤلاء الشعراء، كالذى يحكيه ابن سلام من أن رجالاً من تميم مشت بين جرير والتيمى، وقالوا : والله ما شعراؤنا إلا بلاء علينا : يثيرون مساوينا، ويهجون أحياءنا وأمواتنا. ولقد كثر الشعراء الذين شاركوا بشعرهم فى هذه الخصومات ببادية البصرة كثرة ظاهرة، وكثر الشعر الذى ينشدونه ويذيعونه كثرة غامرة، وبالغوا فى استثارة الذكريات وخلق المفاخر والمثالب مبالغة كبيرة. وكان هذا الشعر يجد من رجال هذه القبائل المختلفة آذانا مصيخة، وأعناقاً مائلة، وأعصاباً هيأتها هذه الخصومات للطرب الشديد به. وطبيعى أن تنشأ حول هذه الأشعار، وما تشير إليه من أحداث، وما تترنم به من مفاخر، طائفة من الأخبار والأقاصيص تفسر إشاراته، وتفصّل مجملاته، وتسير إلى جانبه فى استثارة النفوس، واستفزاز المشاعر الحاقدة.

هذه الحركة الأدبية القصصية التى نشأت حول أشعار الفرزدق وجرير والراعى والبَعِيث وابن لجأ التيمى والصَّلَتان العبدى وغيرهم من شعراء هذه البادية فى القرن الأول هى الأصل فى اجتماع ذلك الفيض الزاخر من أخبار الحياة الجاهلية المختلفة فى تلك الفترة من الزمن، وفى ذلك الإقليم. وقد يكون من هذه الأخبار ما هو صحيح، وقد يكون منها ما هو مبالغ فيه، وما هو مختلق موضوع، ولكنها جميعاً تشترك فى أنها صور للحياة العربية البدوية. والأصل فيها هو تلك الخصومات القَبَلية أولاً، ثم ما نشأ عنها من خصومات شعرية، ثم لم تلبث هذه الأخبار والأقاصيص أن صارت مادة من مواد الدرس والطلب فى بيئات البصرة الأدبية والعلمية، تلتمس لذاتها ولما فيها من متعة فنية، وتلتمس لما فيها من تصوير للحياة الجاهلية العربية، وتلتمس لما تتضمنه من تفسير لشعر هؤلاء الشعراء. وقد جاء أبو عبيدة فجعل يطلبها فى حلقات الدرس، كما جعل يلتمسها عند أولئك الأعراب.

والمسألة التى تواجهنا الآن هى : ماذا صنع أبو عبيدة بهذه الأخبار والأقاصيص ؟ أو بعبارة أخرى : ما هو أسلوبه وخصائصه فى رواية الحياة العربية ؟

(يتبع)

طه الحاجرى

CONTRE UNE TERREUR DES FAITS

RAYMOND GUERIN

مقاومة الذعر من الواقع

٢ [1]

ما أغرب هـذه الحاجة (ولعلها حاجة غريزية) التي تضطر الناس إلى أن يضعوا على وجه الحق البيّن قناعاً كاذباً مضللا . وكأن النظر إلى ما هو واقع، أو مجرد قراءته يؤذيهم ويصدّهم ، فهم لا يقبلونه ولا يطيقونه . إنما يرضون عن الأقاصيص التي تقصّ لهم حوادث الجنيّات الساحرة ، فهم في حاجة إلى الصور التي تسحر العيون وتخلب العقول : أما الضوء الواضح الذي يكشف عن أدق التفاصيل المتوارية ، ويبعث الظلال القوية ، فانه يخيفهم . وهم مؤثرون على الحق الواقع جميع ألوان الريبة البسيكولوجية ، وجميع ضروب النفاق الفسيولوجي . ليس في حياتهم الخاصة فحسب ، بل لعلهم يؤثرون ذلك بنوع خاص في الكتب التي يقرؤونها . وهم يطلبون تارة إلى هذه الكتب أن تكون لها مزايا المخدّر وآثاره ، ويتطلبون منها تارة أخرى أن تذرّ الرماد في أعينهم ، يريدون أن ينقلوا إلى عالم آخر ، لا يعنيهم في ذلك أن يكون هذا العالم قد تجاوز قدّهم ، أو أن تكون الأشباح التي تضطرب فيه قد فقدت ما تمتاز به أشخاص الحياة الواقعية من قوة وغموض .

ومن ذا الذي ينكر أن الحياة قد تكون أحياناً أشد فتنة مما تجري عليه عادة ! فلها ذرى بهجة وتألق . وبين الحين والحين ينجم من اطرادها الفاتر العام أشخاص ممتازون يتجاوزون الحدود الطبيعية ، كما تظهر ألوان من الإخلاص عجيبة ، ومن الشعور الذي يفوق الطاقة الإنسانية . ولكن أهذا هو مقياسها الطبيعي ؟ كلا ! فان فيها ، بل وفيها أكثر من أي شيء آخر ، هموماً وضيعة ،

---

(١) الكاتب المصري عدد ٥ (يناير سنة ١٩٤٦) .

وأعراض ركود . وعندئذ يستطيع أشد أشخاصها بروزاً أن يخلعوا عن أنفسهم حليهم الذهبية وثيابهم المزركشة ، وأن يتجردوا من هذا البهرج الذى بهروا به الناس ، فيرتدوا أسمالهم اليومية الرثة البالية التى تخيب لها الآمال ، ويضطروا إلى حياة قبيحة بشعة .

فأى عجب إذن فى أن ينزع المؤلفون إلى أن يبعثوا فى كتبهم ، وإلى أن يصوّروا فيها كل ما يجيش فى ذهن الإنسان ، أو ما كان راكداً فيها ، كل ما اتصّل بأعماله الظاهرة أو بحركاته الداخلية الخفية ، بأفكاره الخارجية الواضحة أو بأشد وساوسه ارتباكا ! وأى عجب فى أن يطمحوا طموحاً عالمياً إلى الملاءمة بين الأضداد وتناول أرق الحالات وأدناها بنفس الرغبة الاستطلاعية وبنفس روح التفهم فى كلا الحالين ! فكل شىء قائم فى الإنسان ، متناوباً أو مقترناً . وإذا لم يصل هؤلاء الكتاب بعد إلى أن ينسوا هذا الأمر فلعل مرجعه أن الحياة بدلا من أن تقتصر على أن تظهر لهم ضوءها وحده أو ظلمتها وحدها كما تبدو للكثيرين ، قد غمستهم فى النور والظلمة دولة واقتراناً .

وقد مكنتهم هذه الحياة من الاتصال اتصالاً يزداد توثقاً على مرّ الأيام (وكثيراً ما يكون اتصالاً مرًّا شنيعاً) بما تشتمل عليه من تعدّد وتعقّد . ومتى انتهى هؤلاء الكتاب ، إما بدافع المزاج أو الوراثة أو على أثر فاجعة فى تربيتهم ، إلى أن يغشوا جميع الأمكنة . فيترددون فى نفس الوقت على الصالونات الفخمة والمآوى الحقيرة ، كما يدخلون غرف السيدات ومصانع العمال ، يختلطون بجميع الأوساط ، ويعرفون جميع ألوان القلق النفسى واللذة والاشمئزاز والمتعة . تعرّضوا لجميع ضروب الحظ وسوء الحظ ، لجميع أنواع الاستطلاع وعدم الاكتراث ، كما عرفوا جميع أشكال الحرية والتقييد . سمت عقولهم حتى بلغت أقصى درجات الشغف ، كما انخفضت حتى زحفت فى الوحل . وهم يريدون أن تحفل كتبهم بهذا كله . نعم ! هم يعافون منذ الآن ان يقتصر تصويرهم على ناحية كلها فضيلة كما يعافون تصوير عالم يقتصر على الرذيلة دون سواها ، على بيئة مائعة من المتكلفين المتصنعين أو من الخليعين المتهتكين ، على بيئة كلها قدّيسون أو كلها خاطئون ، على بيئة منظمة أو أخرى مضطربة ، على بيئة رقيقة رفيعة أو أخرى فظة غليظة . فاذا ما أوتوا من القوة والبراعة حظًّا كافياً ، وكانت شخصيتهم من الغنى والخصب والتنوع بحيث يقدمون على هذه المغامرة ، فان العالم الذى

سيعرضونه علينا سيكون متعة ذهنية لنا ، وسيتألف من جميع البيئات الممكنة . سيكون عالماً جديداً فى إنشائه ، فيعوضنا من هذا العالم اليومى الذى تفنى فيه حياتنا .

ولنؤمن لهم ؛ فقد أطالوا التفكير فى الصعاب التى تعرّضهم لها هذه المغامرة . وهم قد احتملوا من غير شك أكثر من غيرهم هذا النير الثقيل الممض الذى تفرضه الجماعة على أفرادها حين ينحرفون عن الطريق القويم . فمن الناس من يتكلفون الفضيلة عن غفلة أو عن نفاق ، وهؤلاء يتأذون عندما يخيل اليهم أن رجلا يجنح إلى التحرر من مواضعات اللياقة العتيقة ، حين يقرّر أن يتخذ شيئاً من الحرية فيما بينه وبين نفسه أو مع غيره من الناس . فليس يكفيهم أن ينبذوا « المركيز دى ساد »[1] أو « رستيف دى لابريتون »[2] ، ولكنهم يقنّعون وجوههم حين يرون « بروست » أو « چويس » يتعمقان الطبيعة الإنسانية ويقتحمان طرقاً كانت مواضعات السلوك تنكرها حتى ذلك الوقت . يثورون على هذه الدقة التى يسمونها مجوناً ، وعلى هذه الصور المشتقة من صميم الحياة التى يسمونها أقذاعا ، ويعلنون أن تشريح نفوسنا وعرضها على هـذا النحو لا يمكن الا أن يسمم العقول ، وإذا لم يكن من هذا بد فإيثار الصمت خير . ولعل هؤلاء المتكلفين المنـافقين إن أتيح لهم من السلطان بعض التأييد أن يفرضوا على الأدب رقابة تصطنع مظاهر العفة . وقد دلت التجربة على أن مثل هذه الرقابة تلحق بالأدب أضراراً جسيمة فى كل مرة ظهرت فيها ، حتى إننا لنخجل لها من عنفها الضيق المحدود الأفق ومن عدم تسامحها . إن التعصب والطغيان إن لم يصلا قط إلى منع الحقيقة من الفوز والتحرر آخر الأمر حتى حين يعتمدان أشد العنف ويلجأن إلى التحريق .

وإذ يعجز هؤلاء الغافلون والمنافقون عن أن يبلغوا أقصى غاياتهم فى تنفيذ نواهيهم ، فانهم يحتمون فى الأقل على الفنّان الذى ينتفع فى آثاره بما فى الحياة

---

(١) كاتب فرنسى من كتاب القرن الثامن عشر توخى فى آثاره تصوير أقبح ما فى الحياة الانسانية من الفظائع والآثام .

(٢) كاتب فرنسى من كتاب القرن الثامن عشر عدل عن أساليب معاصريه إلى أسلوب له حظ عظيم من الصراحة ومواجهة الواقع .

من قبيح مرذول ، أن يهضم ذلك ويتمثله قبل أن يحاول عرضه أو التعبير عنه .

ومسألة المستساغ وغير المستساغ فى الفن مسألة أخرى لا تقل دقة وشأنا . وما أكثر الذين يعجبون إعجاباً شديداً بطائفة من الكتّاب شهدوا أبشع المناظر (مناظر الرق والهمجية وما فى الحواضر من البؤس والشهوات المخزية وهوان الفكر والانغماس فى اللذات والإفراط فى العربدة والفسوق) فلم يصوّروا فى كتبهم ما رأوا ، وإنما صوّروا فيها شعورهم به على نحو جعل هذه الكتب ، وإن ظلت فاجعة ممزقة للنفوس ، تبدو كأنها تسبح فى عالم خيالى غير واقعى له سحره الذى لا ينكر . وإذ كانوا أشد إخلاصاً من أن يصوّروا عالماً يلائم مثلهم العليا ويعرفون أن هذا العالم لا يوجد ، فهم قد أزمعوا الفرار نهائيًّا من كل ما يجمعهم بالعالم الواقعى . وما داموا لا يستطيعون الاكتفاء بعالم بعيد عن الكمال الذى يبتغونه له ، فقد اختاروا أن يضطروا أنفسهم فى شىء من الأثرة إلى تفضيل الانخداع بالمظاهر على الحق . لم ينظروا إلى الأشياء كما هى ، وإنما أبوا إلا أن ينظروا إليها كما يحبون أن تكون ، فلجأوا إلى أبراج عاجية من مذاهب الفن يعتصمون فيها ، فهم يستعينون بأعذب الألفاظ وأبعد الصور خفاء . يشوشون ورق اللعب ، ويغشون «الظهر» ، ويتلفعون فى عباءة من الاستعارة ، ويتحوّلون إلى أرواح خالصة ، ويتشدّقون بالروحانية كأنهم جنّ أو سحرة من عالم غير عالمنا هذا ، وكأن طبيعتهم من جوهر علوى ممتاز . كل ما تجرى به أقلامهم مثالىّ محجب غير واضح الخطوط ولا بيّن الملامح . وقد يمزّق نفوسهم ما فى الحياة الواقعة من ألم وبشاعة ووحشية ودعارة . ولكنهم مع ذلك يحرصون على أن يصونوا كتبهم من هذه الأوزار . أيديهم اليمنى التى تكتب تجهل ما تمسه أيديهم اليسرى التى لا تكتب . أرجلهم غائصة فى الوحل بل فى الدم أحياناً ، ولكن رءوسهم فى السماء . هؤلاء على الأقل هضموا ما يلفظه العالم من قبح . وإذا أعجزهم أن يرفعوا أشخاصهم فإنهم لم يترددوا فى أن يكذبوا على أنفسهم ليرفعوا أشخاص قصصهم .

وليس كل إنسان قادراً على التلاعب بالألفاظ بهذا اليسر .

وكتاب آخرون بلغ تعطشهم إلى الطُّهر والمثل الأعلى والحق المطلق حدًّا جعلهم يذعرون لمجرد الاقتراب من الحياة الواقعية العادية . لا يستطيعون أن يفتحوا أعينهم أو أن يمدوا أسماعهم دون أن يعتريهم غثيان . يرون كل بغيض

فى الحياة شيئاً لا يقبل . وينتهى بهم هذا إلى العجز عن التحول عن الواقع الشنيع . وهم من أجل ذلك لا يكادون يمسكون القلم حتى يخلّصوا أنفسهم فى غير تردد مما تضيق به نفوسهم ولا يغرون بالألفاظ ؛ فالألفاظ أمامهم يستعملونها كما هى فى مدلولها الساذج الأصلى سواء كان ما تدل عليه قبيحاً أو متبذلا . فليست الألفاظ إلا وسائل ، وليست هى الغاية الأساسية ، إنما الغاية الأساسية هى هذا السرطان الذى ينخر جسم الإنسان . يجب مهما يكلف ذلك من ثمن إخراج الصديد من هذه الجراح المتقيحة ، وفتح هذه القروح ، وتفريغ هذه الأمعاء .

ولا ينبغى أن نورّط أنفسنا فى الخطأ . فمهما تدنست أيدى هؤلاء الكتاب فى هذه المهمة الكريهة ، ومهما اشمأزوا من أنفسهم بسبب القذارة التى يكشفون عنها ، فإنهم مع ذلك أشد ما يكونون تلهفاً إلى الجمال البعيد المنال . فهم لا يزالون يتمنون اليوم الذى يتاح لهم فيه أخيراً ألا يكتبوا إلا ألفاظاً كلها حنوّ ورشاقة وهدوء ، كما يفعل غيرهم . ذلك اليوم الذى يكفّون فيه آخر الأمر عن مثل هذا العلاج القاسى . ولكن ليس هذا كله ، مع الأسف ، إلا أحلاماً وأوهاماً . فهم أنفذ بصيرة من أن يعتقدوا أن يوماً قد يأتى قبل وفاتهم تهدأ فيه نفوسهم وأجسامهم هدوءاً تامًّا ، ويستطيعون أن يحيوا فى عالم مطلق غير مقيد . والكتب التى تخرج من أعماق الشقاء الذى يغرقون فيه ليست إلا منافذ يخلصون بها أنفسهم من شر ما تلقى .

يأبون أن يستسلموا لما فى الحياة من بشاعة كما يفعل أولئك الذين ينحازون فى أثرة وجبن إلى هذه الناحية العذبة الراقية ، ناحية الفن للفن . ويفضلون أن يُغنوا آثارهم بكل ما بقى فيهم من شر ليظهروا بذلك أنفسهم منه . وهم فى هذا على العكس من أولئك الذين يجيدون كتابة النثر الرفيع والشعر البديع والذين تزداد قلوبهم سواداً إلى سواد ونفوسهم فساداً إلى فساد . فكيف يلامون على ما يلفظون فى كتاباتهم ! لا يمكن أن يقال إنهم مدفوعون إلى ذلك بالرغبة فى العرض والإظهار ، أو الإمعان فى التلذذ بالرذيلة ، أو أن مرجع ذلك تشويه ملازم لطبيعتهم ، أو ابتذال فى فكرهم . إنما يتوخون فى عملهم هذا دقة عجيبة تقدّم تعلم الحياة والتمرس عليها على تعلم الفن ومكابدة مصاعبه . وتلك إرادة تصمم على التذكير أن لا شىء فى الانسان أعظم من الإنسان . وهؤلاء

الكتاب لايحفلون بآيات البيان ، بل يسعون فى محاولة يائسة ، ولكنها كريمة ، إلى أن يشقوا لحياتهم طريقا قد تصير هذه الحياة نفسها فى نهايته من آيات البيان .

قد يعترض علينا بما يأتى : ما مصلحة محب الأدب الرفيع فى هذا النوع من الكتب ؟ وجميل بلا شك أن يجعل المؤلف من حياته آية من آيات البيان ، ولكن ما نتيجة ذلك آخر الأمر ؟

وقد وجه الكتاب القصصيون المحدثون لأنفسهم هذا الاعتراض ، واقتنعوا دون صعوبة بأن آثارهم لو أنها غرقت فى الدمامة فلن يستطيعوا النظر إليها إلا مشمئزين . وأغلب الظن أنهم سينتهون بالعدول عن الكتابة وإيثار الصمت . وإذا بقيت لديهم بقية من همة الكتابة فذلك لأنهم لم يفقدوا الأمل (وهو دائماً أمل لا يتخلله وهم) فى أن يتجاوزوا مألوف الحياة ويأتوا بشىء جديد . ومهما تأذوا مما يتبينون من دنس ومن رذيلة فى أنفسهم ومن حولهم فإنهم يشعرون (ولعلهم فى شعورهم هذا أشد إحساساً من غيرهم) بهذه الصور المضحكة الممسوخة بهذا البذخ المفرط ، وبألوان السعادة هذه التى قد تمنحها الحياة أحياناً . وهم يرون أن أى أثر يتعمد فيه وصف القذارة ، أو اتخاذ موقف التعنت المرضى السقيم ، أو تصوير الوساوس الإجرامية أو الجنسية ، لا يزيد فى قيمته عن التزين التافه المائع الذى يظهر فى تلك الأقاصيص التى تقرؤها الأسر مجتمعة فى المساء من حول النار .

على أنهم لا يدّعون احتكار الحق كله ؛ فهم لايريدون أن يتبعهم جميع الكتاب فى هذا السبيل ، بل يريدون احترام مبدأ حرية الاختيار . يريدون أن يتركوا مجالا لهذه الآثار التى أنشأها كتّاب من أولى البصائر النافذة ، والتى تعبر عن نظرة للعالم وتصور له لاتفرضهما الطبيعة بل يختارهما الكتّاب لأنفسهم اختياراً وهم يعرفون ما يقدمون عليه . فهم يعلمون حق العلم أن جميع الكتاب الآخرين الذين أذعنوا لمزاجهم أو تأثروا بظروف مولدهم أو نشأتهم ، كتبوا هم أيضاً كتباً قيمة . وهم لا يؤاخذونهم بقصورهم ولا بإصرارهم على بعض اللوازم ، بل يقبلونهم كما هم ، ويقدرون كتبهم على أنها وثائق دقيقة . فالعالم الذى يصوره مريديث أو جيمس كله عن الطبقة الوسطى البورجوازية . وعالم كالدويل أو دابيت كله عن

طبقة العمال . وعالم ديكنس شعورى . وعالم سترنس أو باتلر كله تهكمى . وهو عند جيد أو هكسلى عقلى . وعند تشيكوف فهو إقليمى . بينما عالم كافكا قاصد كله إلى ما وراء الطبيعة . وهو عند دستويفسكى شيطانى . وعلى عكس موريس مارتان دوجار فعالمه يصور الأسرة . وعالم مالرو يصور البطولة ، بينما هو عند لورنس جنسى . ولكل منهم ناحية صدق واقتضاء وضرورة .

كما أن هؤلاء الكتاب القصصيين يرون أن القارىء حر فى أن يؤثر الكتب التى لاتقتصر على الحياة اليومية الجارية ولكنها تبعد عن الواقع المألوف . فالقارىء حين يأخذ كتاباً إنما يلتمس فيه ما يريحه أو ما يعينه على الهرب من الحياة المحيطة به . وهذا العالم الخيالى الذى يستكشفه فى الكتاب ، وهذه الدمى التى على هامش الحياة ، وهذه الصور البيانية نفسها حتى حين تكون انفعالات مغرقة فى الحماسة ، كل هذا جذاب ، بل هو جذاب لهذا السبب نفسه . فالقارىء لا يلتمس فى مثل هذه الكتب شخصيات محققة ، وإنما يريد أن يفقد شخصيته هو فيها . ولا يفجؤه أن يتجاوز أشخاص القصة الحجم الطبيعى المألوف ، أو أن تتخذ الألفاظ التى ينطقون بها والمناظر التى يضطربون فيها صورة الملحمة ، بل أن يتشخص الحيوان والنبات وعناصر الطبيعة نفسها . كما لا يفجؤه أن يدخله الكتاب فى بيئة لا تنعكس الحياة فيها إلا مشوهة ، قد شوهتها هذه المرايا المحرفة وهى مرايا التشبيه الشعرى والعبث الغليظ ، والمرايا التى تعكس اشباح الموتى وظلال الوهم . بل لا يفجؤه أن يدفع إلى أغرب ما ينسجه الخيال من ألوان الخلط والقتل والخلاعة والاختطاف والخراب والثروة .

فالقارىء مستعد دائماً لأن يتخذ لنفسه إهاباً غير إهابه (يكاد ذلك يرجع إلى فطرته) وهو مستعد لأن يخلبه السحر ، ويقهره التسلط ، ويستهويه اللعب .

فمن الجائز جداً أن يمتنع القارىء على قصصيين لا يريدون أن ينقلوه إلى أى مكان ، بل يقتصر همهم على أن يبصروه بنفسه وأن يجلوا أمامه مرآة لا رحمة فيها ليس لدى هؤلاء الكتاب لعب يدعون إليه . ليس فى وسعهم أن يحولوا الرجل أو المرأة إلى تمثال من ملح ، أو إلى قطر من ذهب ، أو إلى طائر أزرق ، أو إلى حسناء نائمة فى الغابة ، أو إلى قط منتعل ، أو إلى إهاب حمار [1] . لا يبتغون إلا

---

(١) يشير بهذا كله إلى الأقاصيص والأساطير المعروفة فى الآداب القديمة والحديثة .

أن يرفعوا له الستار عن الوجود مصوراً فى شكله الجديد ، بما ينطوى عليه من اضطراب وإخفاق ، من طموح وانحدار ، من حلم وعمل ، من يأس وخيبة أمل .

ومع ذلك فلن يستسلم هؤلاء الكتاب ، لأنهم يذعنون لمقتضيات الاخلاص والصدق . هم يلتمسون نماذجهم عند أى فرد من الأفراد ، فى أى ظرف من الظروف ؛ لأنهم يرون فى غير تردد أن لا خطر لشىء ، وأن الحياة لا تستحق الإغراق فى العناية بها ، وأن اتساق الحوادث ليس أجل خطراً من الآراء التى تناقش ولا من البدع ولا من الأهواء . وهم من أجل ذلك يضعون يد القارىء على سخافة الحياة التى يذعن لها الفرد أو التى يختارها لنفسه ، وغرور ما يبذل من الجهود للتحرر منها ، ومبلغ ما يصطنعه مع ذلك من مثابرة فى سبيلها ، بل طموحه الرفيع إلى إدراك مستوى إنسانى ممتاز ، ثم تبينه فى الوقت نفسه أن بلوغ هذه الغاية مستحيل .

فأنت ترى ما فى مثل هذه المحاولة من شجاعة ومرارة . فهى حقـًا محاولة من صمم على ألا يتخلص من أى تبعة ، وأزمع على ألا يتراجع أمام أى حادث ، أمام أى استكشاف . فلا شك أن هذا التصميم يفيد آخر الأمر فى تمكين الناس من أن يعرفوا بعضهم بعضاً .

ولنقرر أيضاً أن فى هذه المحاولة مقاومة حاسمة لأولئك الذين يعللون أنفسهم بأوهام السراب ، ويركدون فى سحب الخيال ، ويحتجون بأن الحياة اليومية تبدو لهم غير محتملة فيبنون لأنفسهم ، فى شح ، عالماً صناعيـًا مفتعلا ، عليهم مع ذلك أن يخرجوا منه فى كل لحظة ، رضوا أو لم يرضوا ، لينغمسوا كغيرهم من عباد الله فى ألوان شنيعة من القبح تتركهم متخاذلين مضطربين فى حيرة من أمرهم .

ولنقرر أنها حاجة ملحة تدعو إلى مواجهة الحقـائق المرة ، ويستعان بها لقهرها ، وإلى استبعاد ما يحيط بالأشياء من مظاهر خداعة ليصلوا إلى حقائقها .

ولنقرر آخر الأمر أنها محاولة (لعلها ما زالت فى حاجة إلى الحذق) لإنشاء عالم يشعر الواقع فيـه بما ينطوى عليه من غرابة ومن قوة دلالة فى آن واحد .

وكل من المقاومة هذه ، والحاجة الملحة ، والمحاولة ، يقتضى حتما شيئاً من القسوة ، ويقتضى بطريقة غير مباشرة شيئاً من الحنو .

ينشأ من ذلك بالقياس إلى الكتـّاب الذين يريدون أن يروضوا أنفسهم

على هـذه الأمور فى غير ضعف ، مذهبان فى الفن والأخلاق يتصلان بسلوك الإنسان ويدعمهما فى الأثر المكتوب نفسه تشريح لارفق فيه وابتكار وتجديد فى الأسلوب الانشائى تبعثهما ممارسة الحياة اليومية . ولكن هذا الابتكار وهذا التجديد فى سبيل المحافظة على الحق لا يسترسلان فى تصوير الإنشاء الفنى على شكل مثالى أعلى ؛ فقد يكون هذا التصوير شعريًّا ، ولكنه خداع مغرٍ . لا يضيرهم فى ذلك أن يتهموا بالقصور عن معرفة أسرار الألفاظ والصور ، وعن إدراك سحر الأفكار . فلا يقتصرون إذن على درس نفسية الفرد أو الجماهير ، بل يدرسون الوجود من الناحيتين الفسيولوجية والبسيكولوجية . لا يقتصرون على كائن حيّ فى نفسه أو على جماعة بعينها ، إنما يدرسون الكائن الحى فى نوعه .

وينشأ عن ذلك بصفة خاصة أن هؤلاء الكتّاب سيترفعون فى إباء عن كل ما يشبه أن يكون اغتصاباً للسلطان . فالكائن الحى الذى سيسعون إلى إعادة تصويره يجب أن يظل حرًّا فى التصرف فى نفسه . فلا ينبغى أن يوجه فى اتجاه أو فى آخر عن طريق القهر أو بدافع نزوة ، أو أن يستغل لأغراض نظرية أو لأهداف مغرضة ، أو أن يستعمل لإثبات أمر . كما يجب بلا شك أن يتجنب إخضاعه لمراكز وأزمات وحالات من الاضطراب لا تتفق مع استعداده . وينبغى أن يكون شخص قصتهم مطابقا بالضبط لما هو حقيقة ، وألا يتقدم إلا فى حدود طاقته . كما أن حياته قد تكون خصبة بالانفعالات وقد تكون جدبة ، باختلاف ما يقضى به مركزه فى المجتمع . ومعنى هذا ، على الجملة ، أن من الممكن أن توجد حياة لا تقع فيها أية حوادث ، ولا يحتم أن يحتل فيها الحب والبغض والطموح والمال المركز الأول كما جرت بذلك العادة فى الأدب التقليدى ، وقد تنعدم فيها الدوافع التقليدية للقصص ، ولا يشترط فيها حتما تحقيق الروح القصصية عن طريق تلك الحيل البالية التى كثيراً ما استغلها كتّاب كثيرون مبتذلون ناجحون .

ينشأ منها أيضا أن هؤلاء الكتاب سيشعرون أنهم يدفعون بأنفسهم فى طريق يملؤها الشك والتساؤل . فهم يرفضون الاعتقاد بتبعة « الفرد » ، ولا يجرؤون على إصدار حكم أو على اتخاذ موقف . لا يطرون ولا يذمون ، بل يقتصرون على الافتراض . يعرضون مسائلهم دون أن يستبيحوا لأنفسهم الحق فى احتكار حلها . فلا هم دعاة إلى الأخلاق ولا إلى ما يناقض الأخلاق . يحرصون

على ألا يكوّنوا خصائص الفرد قبل وجوده متأثرين بهذا الرأى أو ذاك ؛ وعلى ألا يفرضوا على هذا الفرد عقاباً ، وألا يهبوا له تعويضاً على غير أساس . يحترمون كل ما يقع تحت الحس من عمل أو لفظ ، وكل ما قد ينبث فى أعماق الأذهان من فكر أو رغبة ، ولكنهم ، إلى هذا ، يعرفون كيف يسبقون إلى الضحك من أنفسهم ، ومن تلك المهازل التى تجمع بين الجد والفكاهة الساخرة والتى يتنافس فيها اللهو والفجيعة بأعين الناس وهم لا يشعرون .

وقد أراد حسن الحظ أن هؤلاء الكتاب لم ينتظموا فى هيئة واحدة ؛ فهم لا يزالون قليلين يمكن إحصاؤهم على أصابع اليدين . ولعل من الأمانة أن نقرر أن أحداً منهم لما يستكمل شخصيته ، وأن كل ما قيل هنا عنهم سابق لأوانه إلى حد ما . ولعله يوجد بينهم فى المستقبل القريب واحد على الأقل يتقدم فى شجاعة إلى نهاية المغامرة .

ولا يعنينا أن تكون قد ذكرت بصدد هؤلاء الكتاب بعض عبارات غريبة تشير إليهم ، منها : المركب الشعرى ، والكتابة القاسية ، والتحليل البسيكولوجى بواسطة المشرط ، وأنتومولوجيا [1] الحوادث الحقيقية الضئيلة التافهة ، وفينومولوجيا [2] العمل ، وفلسفة علل الوجود على أساس ما وراء الطبيعة ، وإبراز الأشياء والألفاظ ، والصياغة الموضوعية ، وأعمال البطولة التى لا علّة لها ، والتطويف الذهنى ، والاعترافات غير المحتملة .

فلا بد مع ذلك أن تكون الضرورة التى دفعتهم فى هذا السبيل مطابقة لحاجة عامة ، حتى إنهم جميعاً قد حاولوا تصوير الانسان على صورة أكثر وضوحاً وأشد رسوخاً من الصور السابقة ، دون أن يتفقوا على ذلك فيما بينهم ، وأن يعتمد كل واحد منهم على غير وسائله الخاصة .

فما عسى أن تكون هذه الضرورة ؟

يجب فى مبدأ الأمر أن نتبيّن بوضوح قصور ما بين أيدينا من وسائل البحث البسيكولوجية . وإذا ألقينا نظرة إلى البسيكوجيا فى عهدها البدائى ، ولنفرض البسيكولوجيا ذات البعدين [3] (تلك التى نجدها عند لابروير وبلزاك) او فى

---

(١) علم الحشرات . — (٢) علم الظواهر . — (٣) يستعير الاصطلاح الرياضى .

عهدها الحديث الراقي حين أصبحت ذات الأبعاد الثلاثة أو الأربعة حين استكشفت أدق نظرياتها في « الزمان والمكان » (وتلك التي نجدها عند ستندال وعند بروست) فاننا نزداد ثقة بألا يمكن تفسير شيء إذا أصررنا على استبعاد هذه الدراسات البسيكولوجية عن مكملها الفسيولوجي الذي لا غنى عنه .

والواقع أنه لا بد من تثبيت الإنسان بالتصور على قاعدة من الفيل (شأن الضفدع التي يشرحها الطالب في قسم الحيوان) حتى يصل الكتاب إلى أن يستخرجوا في آن واحد انفعالات جسمية ونفسية ، وفيضاً غير متوقع من الألفاظ ، ومن الاضطرابات ، ومن التعقيدات العاطفية ، ومن الحرص المستتر ومن الجمجمة الغامضة ، ومن العادات السرية ، ومن الحركات العصبية ، ومن الحوادث التافهة . وهي كلها أمور أشد إفصاحاً عن الطبيعة العميقة الدفينة من أي شيء آخر .

وما عدا ذلك فسخف وتكلف للبيان . ولا يغيب أبداً عن بال هؤلاء الكتاب أن سلوك الإنسان يعتمد أولاً على تكوينه الفسيولوجي . وهم يرون أن أقل قرار ، وأن أتفه عمل ، وأن الاستعداد النفسي مثل الميل الشديد ، وأن الرغبة الشاردة مثل التعنت والإصرار ، كل هذه الأمور خاضعة خضوعاً وثيقاً لحياتنا العضوية . وبعبارة أخرى إن من يتحدث عن طباع رديئة ، أو أحلام رديئة ، أو غرائز رديئة ، عن عيوب أو دوافع محركة ، عن رذائل أو فضائل ، يجدر به أن يتحدث عن تكوين جسم الإنسان . فليست المخلوقات شيئاً في رأي هؤلاء الكتاب إلا بأعضائها الداخلية تسوسها وتبعث الحياة فيها . ومن هنا كان من السخف تقرير مسئولية الفرد أمام غيره . فمن ذا الذي يجرؤ جاداً أن يعاقب عسر هضم ، أو احتقاناً كلوياً ، أو قرحة ، أو انحرافاً في الصحة ، أو روماتزما ، أو أرقاً ، أو حمى ، أو هستيريا ، أو حالة حمل ! ومن ناحية أخرى من ذا الذي يجرؤ أن يثيب صحة موفورة ، أو نشاطاً معوياً مستمراً ، أو نوماً هادئاً ، أو عدم وجود اضطرابات على الاطلاق !... فالحر والبرد والجوع والعطش والحرمان من الهواء أو شدة الهواء وسهولة التمتع بحاسة البصر والشم والسمع واللمس أو صعوبتها ، كل هذه عوامل تفرض نفسها أيضاً على الإنسان وتساعد بطريق غير مباشر على أن يميل إلى السيرة المعتدلة أو المسرفة ، إلى

الجمود أو الهياج ، إلى الحسد أو عدم الاكتراث ، إلى الغباوة أو الحماسة الفكرية ، إلى الابتذال أو الرقة ، إلى الطيبة أو الشر .

واحترام مثل هذه المقتضيات فى ميدان الإنشاء الكتابى معناه إذن بالقياس إلى هؤلاء الكتاب التعمق فى بحوثهم والخروج بها عن الحدود المرسومة لها إلى الآن ، والبدء بانكار الذعر من الحوادث ، كما أنكر جان بولان الذعر من الألفاظ ، لأن كليهما يشل .

ومعناه تأكيد الحاجة إلى فن يقال فيه كل شئ ، هذا اللون من الفن الذى استحدثه ديوجين ، وكان أول أستاذ له فى العصور الحديثة مونتانى ، يشاركه فى ذلك شكسبير وسرڤانتيس ، ويعتبر بروست وجويس أصدق ممثلين له فى هذه الأيام .

ومعناه الإلحاح فى المطالبة بحرية مطلقة أزاء المبادئ التقليدية ، للفن وللكاتب نفسه ، ولما يعرض من فلسفة وما ينشئ من دمى . ومعناه الرغبة فى التحرر نهائيا من الأوامر الباطلة ومن المبادئ الخلقية الملتوية . ومعناه إماطة اللثام عن الخداع المضنى الذى يخفيه الذين يمعنون فى إبقاء الإنسان فى رقه بدعوى الحياء والاحتشام . ومعناه مساعدة كل واحد فى التحرر من الأغلال التى تمسكه ، فيتبين مدى ما يملك من حرية فى تعديل حياته إذا ما رغب فى ذلك وعرف كيف يتحد مع نظرائه وكيف يثبت فى مكانه . ومعناه إنماء حرية النقد التى تشجعه على ألا يذعر من النواطير . ومعناه آخر الأمر إنكار كل ما من شأنه استبقاء الأشياء فى مواضعها والآراء فى مخابئها والأطماع فى أعماق القلوب . معناه مهاجمة الراتعين الراضين الفاترين المسترخين الذين يرون أن كل شئ يمضى على أذلاله ، والذين يمنعون قلوبهم من أن تتأثر بالظلم وسوء النية لأنهم ينتفعون منهما .

ومعناه كذلك ، فى نحو آخر من التفكير ، احتقار الموضوع الذى يمارسه الفن . فكما أن بعض الرسامين اتفقوا على العدول عن نوع اللوحات التى تواضعت التقاليد عليها ، وعن اللوحات التاريخية والرمزية الكبرى ، ووجهوا عناياتهم إلى استخراج القيمة التصويرية أو الشكلية من رسم قيثارة أو برتقالة أو صدفة أو وردة ، بل من رسم مجموعة من البقع والأحجام والأسطر ، معرضين عن حكاية أى شئ . كذلك يرى هؤلاء الكتاب أن لهم ، فى الميدان الأدبى ، أن

يهملوا ما كان مدينا للإطار والقصة والعقدة والموضوع ، وأنه يجب عليهم ، على العكس من ذلك ، أن يعنوا فى تصوير الشكل الإنسانى نفسه ، والأشياء (ملموسة كانت أو غير ملموسة) وغمغمة الحديث والفكر ، والزوايا ، والمعادلات ، والأضواء التى تكشف عنها انفعالات الأحياء فى البيئة الاجتماعية والذهنية التى يضطربون فيها .

ولنسجّل مع ذلك بعض التحفظات .

فمهما قوى البغض للجزع من الواقع ، واشتدّ التمرّد على الأصول السخيفة التى تنظم ما يقال وما لا يقال ، ما يعمل وما لا يعمل ، ما يكتب وما لا يكتب ، فقد نستطيع أن نتبيّن بوضوح مقدار الضرر الذى يصيب الفن من الإصلاح الذى ينشده هؤلاء الكتّاب . فلا شك أن الرغبة المنظمة فى أن يقال كل شىء قد تستتبع ابتذالا فى اللغة ، فتنحطّ الآثار ويقلّ حظها من البقاء . وحسبك بتحريف اللغة وإفسادها كافياً لانحراف الأجيال المقبلة عما كتبوا .

ثم إن الكاتب إذا استبعد الجزع من الواقع حين يكتب ، فانه يتعرض للحدّ من ميدانه فى الشعور وفى التحليل النفسى ، كما يتعرض للابعاد فى التحليل العضوى والإسراف فى القحة ؛ ولا ينكر قصصى الواقع أخطار مثل هذه المحاولة . قد يؤخذ على بروست الإسراف فى الاذعان للغة الأكاديمية الرسمية وفى التقيد بشكل الجملة (وهذا الإذعان يحدّ بلا شك حظه من التوفيق) ولكن يؤخذ على جويس من جهة أخرى أنه حين حرص أشد الحرص على أن يواجه الحوادث ويستقصيها ويزدريها ويقول كل شىء ، قد صوّر الإنسان والعالم المحيط به فى صورة تنحلّ آخر الأمر إلى أعضائه الداخلية وإلى عقله . فكل شىء عنده مركز فى الحواس وفى العقل . وعبثاً نحاول أن نستكشف فى كتابته عاطفة أو ابتهاجاً أو حالة من حالات القلق أو طموحا نفسيًّا أو ترددا شعوريًّا يشبه ما نلقاه عند كتّاب بلغوا حظاً كبيراً من الرقة والدقة أمثال بوشكين أو أرلان . فعند جويس تطغى السخرية والبراعة الجافة للفكر على التأثر واضطراب النفس وتسودان دون غيرهما ، بحيث نشعر شعوراً جليًّا أنه لم يصوّر الإنسان كله بل نقص منه شيئاً .

قصصى الواقع يتمنىّ إذن أن يبدد السراب الذى توجده أساطير الواقع . فهو يريد فنًّا يصل بدقته وجلائه وإفصاحه إلى قهر الأساطير الحديثة . يريد فنًّا

يحفظ للفظ جماله ووضوحه دون أن ينتقص من طرافته أو غرابته . يريد فنًّا يحاول أن يبدّد هذا الإبهام السائد فى الأذهان ، فيهاجم فى غير تردد أو هوادة تسلط الألفاظ والحوادث ، ويكافح فى سبيل إزالة الكابوس الذى يضلل الفكر ويغرقه ، لتقصر المسافة بعض الشىء بين الحق وبين أولئك الذين يلتمسون فى الظلمة منذ عهد بعيد ، أولئك الذين عقدوا آمالهم بالحرية .

مجوبه جبرانه

نقلها إلى العربية الدكتور توفيق شحاته

مغامر

كان ذلك فى القطار الذى قام من روما قاصداً إلى فلورنسة ، وقد جلستُ فى مقعد مقصورة من مقصورات العربة ، وملأ المقاعد الخمسة الأخرى مسافرون آخرون أكثرهم من السيدات ، بل الواقع أنه احتل كل المقاعد السيدات ما عدا مقعدين . وسار القطار مسرعاً فى الطريق إلى فلورنسة ، وكان الجو حاراً والشمس ساطعة والسماء صافية زرقاء عميقة الزرقة ، يقطعها أحياناً قَزَعٌ من السحاب الأبيض المتكاسل ، وهو يتخذ أشكالاً غريبة ، فمن جسد نمر إلى رأس مارد ، وأحياناً تأتى فى الصفاء غمامة داكنة حزينة تجرى مسرعة ولا تلبث أن تغمر القطار بدموعها ثم تهرول فى طريقها ، فتعود السماء صافية باسمة . وكان المنظر يكاد يكون ثابتاً بأشجار الصفصاف الطويلة تمد أعناقها إلى السماء . وهو منظر يعتبر رائعاً فى أى بلد آخر غير هذه البلاد موطن الجمال الطبيعى . ولذلك كان الجالسون الستة لا يلتفتون إلى النوافذ إلا قليلاً ، وأخذ الأصدقاء منهم ، فى حديث طويل .

كان الأصدقاء هؤلاء فتاتين دخلتا معا إلى القطار ، وجلستا ساكتتين فى مبدأ الأمر ترقبان السيدتين الجالستين أمامهما فى انتباه ، وهما سيدة عجوز جاوزت الكهولة إلى الشيخوخة ، وسيدة نَصَفٌ تشبهها ، فهى إما ابنة أو أخت صغيرة . ولا ريب أن الفتاتين كانتا ترقبان ملابس السيدتين وحلاهما بعين نسوية ناقدة ، ثم أخذتا فى الحديث بصوت خافت ، ثم ارتفع صوتهما شيئاً فشيئاً . وكيف يكون الحديث خافتاً ونحن فى إيطاليا !

لم أكن إلى تلك اللحظة مصغياً إلى تفصيلات حديثهما ، إذ كنت فى شغل بمطالعة بعض الصحف الايطالية ، وآثرت قراءتها قبل أن يصبح الحديث عامًّا بين المسافرين ، ففى إيطاليا تتعذر القراءة فى القطار ومضت ساعة ، وحدث ما كنت أتوقع ، وتجاذبت الفتاتان الحديث مع الرجل الجالس أمامى ، وكان هو البادىء بالحديث ؛

إذ أبدت إحدى الفتاتين ملاحظة فأبدى هو ردًا ظريفاً مقابلاً ، فكان ضحك ، وكان حوار .

رأيت أن قد حان الوقت لأترك جريدتى ، ولكننى لم أتركها فى التو ، بل اتخذتها حجة للتأمل فى الجالسين ، وفهمت فى الحال ماذادعا الرجل الذى أمامى إلى التدخل ؛ فقد كانت إحدى الفتاتين صبوح الوجه ، وكانت الأخرى غزلة لعوبا . أما الرجل فقد قدرت له من العمر ما يقل عن الثلاثين قليلاً ، وهو ضخم الجثة متوسط القامة ذو رأس غزير الشعر بين الصفرة والحمرة . ولقد كنت أظنه من الجنس الجرمانى لو لم يكن يتكلم الايطالية فى لهجة بعيدة عن لهجة الأجانب . وليس بمستغرب أن تجد رجلاً أشقر فى إيطاليا فالشقر من الرجال بين أهل شمال إيطاليا كثيرون .

وانتبهت للحديث إذ كانت إحدى الفتاتين تسأله من أى موطن هو . وليس هذا السؤال فى إيطاليا إنكاراً لجنسيته الإيطالية ، وإنما هو سؤال عادى يقصد به معرفة الإقليم ، ففى إيطاليا لاتزال النزعة إلى استقلال الأقاليم قوية .

أجاب الشاب : إنى من نابولى .

قالت الفتاة : نابولى ؟ لا أظن !

قال الشاب وقد أخذ يمد وينغم كلماته على طريقة أهل نابولى فى لهجتهم الثابتة : أؤكد لك أنى ولدت ونشأت فى نابولى ، وأعرف جبلها كما أعرف أعنابها . وأنت من أى موطن تكونين ؟ أجابت وقد ذهب منها كل شك : إنى من أهل فورلى وإن كنت أقيم الآن فى فيرنزى .

قال الفتى : إنها إقليم الورود ، لذلك كانت خدود الفتيات متوردة . ضحكت الفتاة وقالت : تبًا للرجال !

سأل ضاحكا : لماذا ؟

قالت : لا يأبون إلا العبث

قال : إن الرجال يعبثون بالقول ، ولكن الفتيات يعبثن بالقلوب ، وضحك الجميع وشاركتهم فى الضحك .

وسألته السيدة العجوز : كم بقى من الوقت للوصول إلى فيرنزى أى فلورنسة .

أجاب : لا أعرف فإنى أنزل قبل ذلك .

وتدخلت فى الحديث : أظن أنه بقيت ساعة ونصف ساعة .

قالت إحدى الفتيات : هذا كثير .

فقلت : ليس كثيراً مع أن القطار سريع .

وعندئذ تبينت أن الفتى كان يتطلع إلىّ منذ زمن وسألنى : وماموطنك أنت؟

قلت له : مصرى . وحينئذ رأيت فى وجهه شيئاً من الإنكار ، وإن لم تغش عينيه تلك السحابة الخفيفة التى أخشاها ، والتى تعبر عن شعور كامن فى نفس الأوربى ، عندما يكتشف أن مخاطبه من غير الأوربيين .

لم أر فى عينيه تلك السحابة وإن رأيت شيئاً يدل على الإنكار والحيرة ، ولكنه لم يجرؤ على أن يوجه إلىّ سؤالاً كان يريد أن يوجهه .

قال : لقد أقمت فى الاسكندرية ستة أشهر ، وأنا أعرف مغانيها وأعرف لغتها وقال بلغة عربية لابأس بها : سلامات ! أزيك ، فأجبت : الله يسلمك .

وحينئذ لم يبق بد من توجيه سؤاله :

— هل أنت مسلم ؟

قلت : نعم !

قال : هذا غريب !

قلت : وما وجه الغرابة ؟

قال : معذرة فإنى لم أكن أظن أن المسلمين يعرفون اللغات الأجنبية .

قلت : إذاً فاعدل عن هذا الظن بعد الآن ، فنحن كالأمم الأوربية فينا من يعرفون وفينا من لا يعرفون .

ودار بيننا حوار رقيق فى جمال السيدات وتسلطهن ، وكنت قد عقدت العزم على سؤاله عن نفسه كما سألنى هو ، فقلت له : هل أنت حقاً من سكان نابولى ؟

أجاب : ولم لا ؟ فسألته : هل أنت تاجر ؟ فأجاب إجابة مبهمة : فى مثل هذا النوع من العمل ، ولكننى كنت قبل الآن مؤلفاً ومن قبل فى أسبانيا ، وقد وضعت كتابا عن تلك الحرب ، وأود أن أهدى إليك نسخة إذا قبلت الإهداء .

قلت : شكراً لك ، فأخرج نسخة من كتابه وقال لى : ما اسمك الذى أكتبه فى عبارة الإهداء ؟ وكأنه كان يود أن يتأكد للمرة الأخيرة أنى مصرى ومسلم .

فأدليت إليه باسمى : « محمد عادل فاضل » ، فكتب عبارة الإهداء ثم قال لى : « الثمن عشر ليرات » .

فأخرجت نقودى وناولته الثمن ، وأخذت الكتاب وقرأت عنوانه واسمه « سنة بين الحمر » . وجلست أقلب فيه لحظة ثم وضعته فى حقيبة ملابسى .

من ذا الذى يستطيع أن يفتح كتاباً فى فلورنسة ! إن فى كتاب الدهر غنى عن القراءة . فهذه المدينة من المدن القليلة التى لا يحتاج المرء فيها إلى مجهود فكرى كى يعود إلى الزمن الخالى أيام مديتشى وسافونارولا ، وعصور رجال الأدب والفن . فهنا موطن دانتى ، ومكياﭬللى ، وهنا موطن چيوتو ، وميكلانجلو ، ودوناتللو . لتقطع ساحة قصر الحكم ، أليس ذلك المكان الذى كان مسرحاً لحوادث فلورنسة وتاريخها ! ألا تتمثل فى الحال تلك المنصة التى أقيمت لإحراق سافونارولا ، ذلك الراهب الطاهر الذى دانت لدعوته المدينة فحكمها بيد من حديد وهو يعمل على الاصلاح ولكنه نسى أن خطبه الخلابة لا يمكن أن تخضع الناس وتقلب المدينة بِيعة كبيرة واحدة ، وهى مركز الثراء والترف والفن ونسى أن الدين والزهد والتقشف شىء ، والكنيسة بعزها وسلطانها وثرائها شىء آخر .

إنك لتسير فى أضيق منعطف وتدور حول أظلم زاوية فلا تجد إلا مايذكرك بتاريخ حافل أو باسم خالد . وتلك الآيات الفنية الملقاة فى الشوارع إلقاء ، هل تجد مايماثلها فى أى مكان آخر ؟ فأى كتاب أدب تقرأ لتدع مرورك على الجسر القديم مرتين وثلاثا بل مائة مرة ! وأى كتاب تقرأ لتدع نزهة إلى سان منياتو أو زيارة لقصر بيتى أو معرض الصور فى الأوفيزى !

لنختر مدينة أخرى للقراءة ، فما كانت فلورنسة بالمدينة الصالحة .

الواقع أنى ما وطئت أرض فلورنسة حتى نسيت الكتاب وصاحبه ولم أذكره إلا بعد نصف شهر ، وكنت قد انتقلت إلى مدينة پيروچيا القديمة وشبعت من التفرج على آثارها واستيحاء تلك الانتقامات الدموية بين أسرها .

كان اليوم حارا بالرغم من علو المدينة وجثومها فوق قمة جبل وقد تناولت طعاماً شهياً من المكرونة والشواء ، وشربت قدراً من نبيذ الأليآتكو ثم ذهبت إلى غرفتى فشعرت بالنعاس فنمت قليلا ، واستيقظت وأنا أشعر بأنى اصح ما أكون . وبين يدى من الزمن ما بعد الظهيرة بأكمله فماذا أفعل ؟

قد أستطيع أن أذهب إلى متحف أو كنيسة ، وقد أستطيع أن آوى إلى دار كتب الجامعة ، وقد أستطيع الجلوس فى قهوة أتناول من المثلجات مالا يوجد مثله فى بلد آخر. لا ! إننى أريد قبل كل شئ الهواء والنور ، ثم لا مانع بعد ذلك من القراءة . فمددت يدى نحو الحقيبة وتناولت كتابا من الكتب القليلة التى أحملها معى وكان هو كتاب رفيق السفر .

سرت الهوينى لأختار مكانى على مقعد حجرى عند السور القديم الذى ينتهى ببناء الجامعة . جلست أنظر إلى الوهاد العميقة ترتفع وراءها الجبال ، والمنظر تحجبه غلالة شفافة من ضباب أزرق ، ثم بدأت أفض ورق الكتاب وأقرأ تارة وأتأمل فى سكون إلى المنظر أمامى تارة أخرى .

لم يكن الكتاب كبير القيمة ، فهو يحتوى على تفصيلات عدة عن مختلف الفرق التى كانت تقاتل وتناضل فى الحرب الأهلية بأسبانيا من أجل مبدأ الجمهورية أو الشيوعية أو الفوضى أو إن شئت اللادينية ، وما بين هذه الفرق من تنافس وتناحر وهى أمام العدو المشترك . والكتاب يحتوى على حشد من المعلومات ولكنه كتاب ميت لأنه كتب بلا عقيدة ؛ إذ الكاتب لاهم له إلا أن يتلمس نقائص هؤلاء الجمهوريين الذين سماهم الحمر، مع أنه منضم إليهم . وهو يفعل ذلك لأنه يريد أن يعيش أو يكتسب فى أرض إيطاليا وفى ظل الفاشست . ولا أعتقد أنه كان أكثر إخلاصاً للفاشية .

على أن مااسترعى انتباهى بنوع خاص هو المقدمة التى أهملت قراءتها فى مبدأ الأمر ، فاذا لم يعجبنى الكتاب عدت إليها : « كنت وأنا هولندى ، أعيش فى باريس كمئات من الشريدين أمثالى الذين يأوون إلى تلك المدينة وقد عضنى الجوع وضاقت بى سبل العيش ، فإذا بمن يغرينى بالمال فأذهب معه إلى أحد المكاتب العديدة المنتشرة فى باريس ، وأنخرط فى سلك المتطوعين للقتال مع الحكومة الجمهورية القائمة فى اسبانيا »

فى هذه العبارة فقط رنة الصدق بين جميع آراء الكتاب ، وحينئذ تمثلت لى صورة ذلك الفتى الهولندى المغامر بوجهه المكتنز باللحم وشعره الغزير بين الصفرة والحمرة وجسمه القوى الضخم ، ذلك الهولندى الذى عاش فى باريس ولعله زعم أنه فرنسى ، ثم ذهب إلى أسبانيا ثم تركها وجرب الحياة فى مصر ، ثم هو فى إيطاليا يزعم أنه إيطالى ومن أهل نابولى . وفى كل هذه الأحوال يتشكل للحياة

مغامراً غير عابئ وماهو غرضه من مثل هذه الحياة الخطرة : الغنى والثروة ؟ أم لذة الأخطار نفسها ؟ ربما كان هو نفسه لا يعرف مرماه . ولعل مثل هذه الحياة المليئة بالتقلبات هى أكبر غنم فى الحياة نفسها .

ودارت فى خلدى خواطر أخرى ومسائل لا تقل خطورة عن لغز الحياة والموت ، وإذا بى أنتبه فجأة إلى الشمس وهى تغيب من وراء الجبل وقد خنقها الضباب فلم يظهر غير قرصها دون الشفق ، وقمت ألتمس مخرجا من أفكارى التى أخذت تظلم من جوّى النفسانى بأن أقصد إلى القهوة لأجلس بين الناس وأرشف شراباً ذا مرارة .

حسن محمود

چيترا

مسرحية فى فصل واحد

المشهد الأول

چيترا : أأنت رب السهام الخمسة ، إله الحب ؟

مادانا : إنى أنا المولود البكر فى قلب الخالق ، أنا من أربط بروابط من السعادة والألم حيوات الرجال والنساء .

چيترا : أدرى ، أدرى : ماذلك الألم ، وما تلك الروابط . ومن أنت الآخر يا سيدى ؟

ڤاسنتا : أنا صديقه ڤاسنتا ، ملك الفصول . إن الموت والهرم ليختومان العالم حتى العظم ولكنى أدركهما ، وأهاجمهما بثبات ، أنا الشباب الخالد .

چيترا : إنى أنحنى لك يا أيها الاله ڤاسنتا .

مادانا : فما نذرك الخطير يا أيتها المليحة الغريبة ؟ لماذا تذبلين بالزهد والاماتة شبابك الغض ؟ لا يليق بعبادة الحب قربان كهذا . من أنت ، وماذا تلتمسين ؟

چيترا : أنا چيترا ابنة البيت الملكى من مانيبور ، وقد من الاله شيفا برحمته الالهية على أجدادى الملوك فوعدهم أن يرزقهم بسلالة من الأبناء الذكور ، غير منقطعة أبداً . ولكن الكلمة المقدسة عجزت عن تغيير شرارة الحياة فى رحم أمى . ومع أنى كنت أنثى فقد جئت قوية المراس كذلك .

مادانا : نعم ، وذلك الذى دعا أباك إلى أن ينشئك تنشئة البنين . فقد علمك برى القوس ، وواجبات الملك جميعاً .

چيترا : نعم ، وهذا الذى من أجله تزيت بزى الرجال ، ونبذت عزلة المرأة فى خدرها . فأنا أجهل مكر النساء فى اجتذاب القلوب . إن يدى لتقويان على طى القوس ، غير أنى لم أتعلم رماية كيوبيد ولا سحر العيون .

مادانا : لا يحتاج ذلك إلى تعلم ، أيتها المليحة . إذ العين تعمل عملها غير معلمة ، وعند من أصيب فى الصميم من قلبه الخبر اليقين .

چيترا : لقد خرجت ذات يوم للتصيد ، فتجولت وحدى ، فانتهيت إلى الغابة على ضفة نهر البورنا فربطت جوادى إلى جذع شجرة ودخلت إلى حرج كثيف فيها ، مقتفية أثر ظبى ، فوجدت ممشى ضيقاً متعرجاً يمتد فى خلال ظلام الأغصان ، وكانت أوراق الشجر تهتز بصرير الحشرات حينما جئت فجأة إلى رجل قد اضطجع على فراش من الورق اليابس ، قاطعاً طريقى ، فطلبت منه بعجرفة أن يتنحى جانباً عن الطريق ، ولكنه لم يكترث ، فوخزته عندئذ بالطرف الحاد من قوسى فى شىء من الاحتقار ،

فانتفض من فوره قائماً ، وكانت أطرافه مستقيمة وافية ، فكأنه لسان من اللهب قد اندلع من كومة من الرماد ؛ وارتسمت على زوايا فمه بسمة عابثة قد تكون من جراء رؤيته طلعتى الصبيانية ، فأحسست حينئذ — أول مرة فى حياتى — حس امرأة ، وشعرت بأن رجلا كان أمامى .

مادانا : فى الساعة المباركة أعلم الرجل والمرأة هذا الدرس البليغ ليعرفا نفسيهما . وماذا تم بعد ذلك ؟

جيترا : وفى شىء من الوجل والتعجب سألته قائلة : « من أنت ؟ » فأجابنى : « إننى آرجونا من بطن كورو العظيم » ، فجمدت جمود الصنم ، وفاتنى ان أخر ساجدة له .

أكان ذلك حقاً آرجونا ، معبود أحلامى ؟

أجل ! فقد طرق سمعى منذ أمد بعيد أنه نذر على نفسه التزام العزوبة إثنا عشر عاماً . ولقد طالما ساقنى طموح صباى إلى تحديه ، ودعوته إلى مبارزتى بالرمح لانازله متنكرة فى جولة واحدة فأثبت له براعتى فى منازلته بالسلاح .

آه ، أيها القلب الأحمق ، إلى أى مدى ذهب ادعاؤك ؟ أواه لو أتيح لى أن أستبدل حفنة تراب تحت قدميك بشبابى وأمانيه كلها ، إذاً لكانت تلك نعمة عظمى . ولست أدرى فى أى لجة من الأفكار كنت غريقة حين رأيته يختفى بين الأشجار .

أيتها الحمقاء ! لا حييته ، ولا كلمته بكلمة ما ، ولا طلبت منه الصفح ! بل وقفت أمامه وقفة امرأة متوحشة ، إذ كان ينطلق عنك زارياً .

وفى اليوم التالى خلعت عنى ثياب الرجال ، وتحليت بالقلائد والخلاخل والأساور ، ولبست ثوباً من الحرير الأرجوانى . فكان هذا اللباس الذى لم أعتده يحتاط بعارى الزائل . إلا أنى بادرت إلى البحث عن سؤلى فألفيت آرجونا فى معبد غابة الاله شيفا .

مادانا : قصى على القصة حتى نهايتها ، فانى أنا الاله ابن القلب ، وإنى لأفهم سر هذا الاغراء .

جيترا : لست أتذكر ما قلت وما تلقيت من أجوبة عليه إلا تذكراً غامضاً ، فلا تسألنى أن أقص عليك الأمر بحذافيره . لقد انقض العار على انقضاض الصاعقة ، ولكنه لم يستطع أن يحطمنى ، فها أنا ذى فى غاية القسوة ، وفى شبه الرجل تماماً . كانت كلماته الأخيرة : « لقد نذرت العزوبة على نفسى ، فلست أصلح أن أكون لك زوجاً » . كانت تلك الكلمات كالابر المحارة من شدة الاحماء تخرق أذنى وأنا فى طريق قافلة إلى الدار .

فيا لنذر الرجل ! إنك — وأنت إله الحب — لتعرف يقيناً أن قديسين وحكماء لا يحصيهم عدد قد وضعوا الثمار التى جنوا من حياة التقشف الطويل عند قدمى امرأة .

لقد كسرت قوسى ، وأحرقت سهامى ، وكرهت ذراعى القوية المرنة المدربة على القوس . فيا أيها الاله ، يا أيها الحب ، لقد أذللت زهو رجولتى الباطل إلى الأرض ، وسحقت دربتى التى هى دربة الرجال ، فسقطت آثارها ذليلة عند قدميك . فلمنى الآن دروسك . أمددنى بقوة الضعيف ، وأعطنى سلاح اليد العزلى .

مادانا : سأكون رفيقك ، ولأجيئن بقاهر الدنيا آرجونا أسيراً بين يديك ليسمع منك حكم تمرده .

چيترا : لو اتسع لى مجال الوقت لاستطعت أن أخضع قلبه شيئاً فشيئاً ، بغير استعانة بالآلهة . كنت إذا ألزم جانبه على أنى رفيقه ، وأقود جياد مركبته الحربية الشرود ، وأقف على حراسة باب خيمته آناء الليل ، وأعينه فى كل واجبات الجندية الجليلة ، منقذة الضعفاء ، ومقيمة قسطاس العدل حيث يجب . لا شك أنه كان سيجىء يوم ينظر إلى فيه ويتعجب قائلا : « من هـذا الفتى ؟ لعل عبداً من عبيدى الذين خدمونى فى سالف أيامى اقتفى أثرى اقتفاء أعمالى الصالحة ؟ » ما أنا بالمرأة التى تغذى بصمت الوحشة قنوطها ، وترضعه بدموعها فى الليل ، وتغطيه بابتسامتها الصابرة فى النهار ، فكأنها أرملة منذ الولادة . لن تسقط زهرة املى على الأرض قبل أن ينضج ثمرة إلا أنه لكى يتمكن المرء من تعريف الناس بحقيقة نفسه ، وحملهم على احترامها ، فعليه أن يسعى إلى ذلك طوال عمره . لذلك فقد وقفت ببابك أنت يا إله الحب ، قاهر العالم . وببابك أنت يا أيها الاله الفتى ڤاسنتا ، إله الفصول ارفعا من جسمى هذا الجور الآبد ، هذا القبح الشنيع ، واجعلانى يوما واحداً جميلة ، رائعة الجمال ، فى مثل جمال الحب المزدهر فى قلبى فجأة . هبا لى من لدنكما يوماً واحداً قصيراً من الجمال الكامل ، ولكما منى الطاعة فى الأيام القابلة .

مادانا : لقد استجبت دعاءك يا أيتها السيدة .

ڤاسنتا : لا يوماً واحداً فحسب ، بل ستكسو روعة أزهار الربيع أطرافك سنة كاملة .

المشهد الثانى

آرجونا : أكنت أحلم ، أم كان ما رأيت عند البركة هناك حقيقة ؟ لقـد كنت جالساً على الخميلة مسرحاً الذهن فى السنين الماضية ، فى ظلال المساء المائلة ، حين بدت بين طيات ورق الشجر القاتم ببطء هيأة من جمال اتخذ شكل امرأة سوية التكوين ، ووقفت على لوحة بيضاء من الرخام عند ضفة الماء ، فكأن قلب الأرض كان يخفق شدة فرح تحت قدميها البيضاوين العاريتين ، فحسبت أن أقنعة بدنها متقشعة ، من النعطة فى الهواء تقشع ضباب الفجر الذهبى من أعالى الربى الشرقية الكاسية بالثلوج . وقد انحنت على مرآة البركة الوضيئة ورأت انعكاس وجهها عليها ، ثم نهضت محزونة ، ووقفت جامدة ، ثم تبسمت ومدت ذراعها اليسرى إلى شعرها فأصلحته بحركة لا تنم على اهتمام وتركته ينسدل فيصل الى الأرض محاذياً قدميها . وقد كشفت عن صدرها ونظرت الى ذراعيها فكانتا فى أحسن تكوين ، زاخرتين بقوة عناق عنيف . ولما حنت رأسها رأت نضرة شبابها ، وطراوة أديمها وغضارته ولونه الوردى ، فأشرق وجهها إشراق السرور والعجب . أفكانت — لو فتحت عينيها فى الصباح على براعم اللوتس البيض تطوق جيدها ورأت صورتها فى صفحة الماء — تقضى سحابة نهارها بالتعجب ؟ غير أنه بعد لحظة غاضت تلك الابتسامة من وجهها ، وظهرت فى عينيها غشية الحزن . ثم إنها عقدت ضفائرها

وأسدلت الحجاب على ذراعيها وتحسرت حسرة بطيئة وسارت مثل مساء جميل يغيب في ظلام الليل . وقد خيل لى أن إدراك غاية المنى قد كشف عنه لى فى طرفة عين ثم ما لبث أن زال . ولكن من ذا الذى يدفع الباب ؟

[تدخل جيترا فى زى امرأة]

واعجبا ! ها هى ذى . فاطمئن يا قلبى . لا تخيفينى أيتها السيدة فانى جندى !

جيترا : سيدى الكريم ؛ أنت ضيفى . وأنا أعيش فى هذا الهيكل ، ولست أدرى كيف أستطيع أن أكرمك .

آرجونا : أيتها السيدة الطيبة ، رؤيتك فى الحقيقة هى غاية الاكرام التى ما بعدها غاية . وإن لم ترى أن من قلة اللياقة أن أسألك سؤالا ، فعلت .

جيترا : ذلك لك .

آرجونا : ما نذرك الخطير الذى يجعلك رهينة هذا الهيكل المنعزل ؛ حاجبة عن أعين البشر جميعاً هذه الملاحة ؟

جيترا : إنى أضم فى قلبى أمنية خفية ، أصلى من أجل بلوغها للرب شيفا كل يوم .

آرجونا : واحسرتاه ! وأى شىء تستطيعين أن تتمنى أنت ، يا منية العالم بأسره ؟ لقد سافرت من أقصى قمم الربى الشرقية التى تطبع عليها الشمس أول آثار أقدامها النارية ، إلى نهاية مغرب الشمس ، ورأيت كل نادر على وجه الأرض وكل جميل وعظيم ، فقولى ماذا تطلبين وعمن تبحثين ، أفض إليك بكل ما عندى من العلم .

جيترا : من أبحث عنه ، معروف لدى الجميع .

آرجونا : أحق ذلك ؟ ترى من يكون ذلك السعيد الذى اصطفته الآلهة ، واقتنصت شهرته فؤادك ؟

جيترا : إنه منحدر من أرفع أرومة ملكية . إنه لأعظم الأبطال .

آرجونا : لا تقدمى — يا سيدتى — ثروة كالتى أوتيت من الجمال إلى مذبح الشهرة المتغيرة الكاذبة . فالشهرة الكاذبة تنتشر على الألسنة انتشار ضباب أول الفجر قبل الشروق . خبرينى من ذلك البطل العظيم ، سليل أسمى البيوتات المالكة ، الذى تبحثين عنه ؟

جيترا : أراك — يا أيها الناسك ، تغار من شهرة غيرك من الرجال . ألم تعلم بأن بيت كوروس الملكى أرفع البيوت المالكة فى العالم وأبعدها شهرة ؟

آرجونا : بيت كوروس ؟

جيترا : ثم ألم تسمع بأعظم اسم فى ذلك البيت الذى طبقت شهرته الآفاق ؟

آرجونا : دعينى أسمع ذلك من شفتيك أنت .

جيترا : يا آرجونا ، يا غالب العالم بأسره ، لقد اخترت ذلك الاسم الخالد من أفواه الناس ، وأخفيته بعناية فى قلبى . أيها الناسك ، مالك بادى القلق ؟ أليس فى ذلك الاسم من شىء غير البريق الكاذب ؟ قل ذلك ، فلن أتردد فى كسر هذا الحق من قلبى لأرمى بجوهرته الكاذبة فى التراب .

آرجونا : كونى أنت اسمه وشهرته ، وكونى أنت بطولته وشجاعته ، إن حقاً وإن كذبا ؛ ولا تبعديه عن قلبك رحمة به ، لأنه جاث عند قدميك الآن .

چيترا : أأنت آرجونا ؟
آرجونا : نعم ، أنا هو ، الضيف الطارق بابك ، الظامىء حباً .
چيترا : إذاً فليس حقاً أن آرجونا قد نذر العزوبة على نفسه أحد عشر عاما .
آرجونا : ولكنك قد بددت نذرى تبديد القمر نذر الليل فى الاظلام .
چيترا : صه ! يا للعار ! ما الذى رأيت فى حتى كذبت نفسك ؟ عمن تبحث بهاتين العينين السوداوين ، وهاتين الذراعين البيضاوين إن كنت باذلا لها ثمن استقامتك . إنى على علم بأنها ليست تلك نفسى ؛ فلا ريب أن هذا لن يكون هو الحب ؛ وليس هو أسمى احترام الرجل للمرأة . إنه لمن دواعى الأسف أن هذا التنكر العاجز ، أعنى الجسد ، يعمى الانسان عن نور الروح الخالد . لقد عرفت الآن ، أصدق معرفة ، أن صيت بطولتك يا آرجونا صيت مكذوب .
آرجونا : عجباً ، إنى لشاعر بتفاهة الصيت الذائع والافتخار بالشجاعة . ويخيل إلى أن كل شىء موهوم ، وأنك أنت وحدك الكاملة . أنت ثراء هذا العالم ، غاية الغايات كلها ، وهدف المساعى جميعها ؛ أنت المرأة الوحيدة . إن فى العالم غيرك لا يعرفهن الناس إلا ببطء ؛ فى حين أن رؤياك لحظة واحدة هى رؤية الكمال الأعلى سرعة وللأبد .
چيترا : واحسرتاه يا آرجونا ! لست أنا هذه ، وإنما هذا خداع إله ؛ فاذهب ، إذهب عنى يا بطلى . لا تنازل الكذب ، ولا تقدم للوهم الخادع قلبك العظيم . هيا انصرف .

المشهد الثالث

چيترا : كلا ، مستحيل ، مستحيل مجابهة تلك النظرات التى تمسك بخناق المرء إمساك يدى روح جائع فى داخله . مستحيل الشعور بأن قلب المرء ينبض فى داخله نبضاً جاهداً ليقطع نياطه ، وليستحث الصرخة المؤلمة لتسرى فى البدن كله ، ثم يصرفه صرف شحاذ . كلا ، لن يكون ذلك .

[يدخل مادانا و ڤاسنتا]

آه ، يا إله الحب ، ما أروع هذا اللهب الذى ضربت نطاقه حولى ، فأنا أشتعل وأحرق كل ما أمس ؟
مادانا : أريد لأعرف ماذا تم البارحة ؟
چيترا : لقد اضطجعت فى المساء على فراش من العشب انتثرت عليه أوراق أزهار الربيع ، وتذكرت جميع ما قد سمعت من عجيب إطراء آرجونا بجمالى ، مترشفة قطرات العسل الذى خزنته طوال النهار المديد قطرة فقطرة ، وقد نسيت تاريخ أيامى السالفة ، نسيان تاريخ أدوار حياتى الاولى ، فشعرت شعور الزهرة إذ لم يبق لها غير ساعات عابرة لتسمع فيها جميع المداهنات الطنانة والهمسات الخافتة من الغابات ، ثم تغض طرفها وتحنى تويجها ، وتسقط بنفس واحد إلى التراب بغير صراخ . وبذلك تنتهى القصة القصيرة ، قصة اللحظة الكاملة التى لا ماضى ولا مستقبل لها .

فاسنتا : قد تزدهر حياة المجد غير المحدودة ثم تنتهى فى صباح واحد .

مادانا : كمعنى لا نهائى فى مدى أغنية ضيق .

جيترا : لقد دفعتنى مداعبة النسيم الجنوبى إلى أحضان النوم ، وتساقطت على جسمى قبلات صامتة من ظلة « المالاتى » الزاهرة فوق رأسى ، فاختارت كل زهرة منها على شعرى وعلى صدرى وقدمى لنفسها فراشا تموت عليه . وقد أغفيت ، وإنى لفى أعماق نومى إذ شعرت بغتة كأن نظرة قاسية متعطشة أشبه ماتكون بأصابع مستدقة من اللهب قد مست بدنى الناعس ، فنهضت فرأيت الناسك واقفاً تجاهى . وكان القمر قد جنح إلى الغرب ولاح من بين أوراق الشجر ليرقب أعجوبة الفن المقدس المركبة فى هذا الأطار البشرى السريع انكساره ؛ وكان الجو معطراً ، وسكون الليل مسموعا من صرير الجنادب ، وكانت صور الأشجار فى البركة بغير حراك . فوقف وعصاه فى يده : مديد القامة ، مستقيمها ، ساكناً كأنه شجرة من أشجار الغابة . وقد خيل إلى حين فتحت عينى أنى قد تقطعت بينى وبين هذه الحياة الأسباب ، وأنى أولد ولادة خيالية فى أرض من الخيال . وقد سقط الحياء إلى قدمى سقوط ثياب محلولة الوثاق . وسمعت نداءه : « أيتها الحبيبة ، يا أعز حبيبة ! » فاتحدت أدوار حياتى المنسية فى واحدة ، ولبيت نداءه قائلة : « خذنى على علاتى إليك » ، وبسطت له ذراعى . وكان القمر قد غاب وراء الأشجار ، فانسدل غطاء ظلام لف شمل الكون . وكانت السماء والأرض ، والزمان والمكان ، والمسرة والألم ، والموت والحياة قد غاصت جميعها فى وجد غالب .

ومع أول شعاع من النور وأول لحن من الطير استيقظت وجلست متكئة على ذراعى اليمنى .

ولبث هو نائماً ، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة غامضة كأنها هلال على صفحة الصباح . وكانت حمرة نور الفجر الوردية تتساقط على جبينه الكريم ، فتحسرت وقمت وأمطت أوراق الكرم التى حجبت عن وجهه أشعة الشمس الساقطة عليه ، وتلفت حولى فرأيت الأرض القديمة بعينها ، فتذكرت ما كنت أن أكون ، وعدوت مثل ظبية نفرت مذعورة من ظلها فى ممشى غابة قد انتثرت عليه أزهار «الشفالى» . وقد انتبذت زاوية قصية فجلست منطية بكلتا يدى وجهى ، وحاولت أن أجهش بالبكاء والعويل ، ولكن الدموع لم تترقرق فى عينى .

مادانا : وا أسفا يا ابنة البشر ؛ لقد سرقت من المخزن المقدس الشراب السماوى العطر ، وأترعت به ليلة أرضية ، ووضعتها فى يدك لتشربى ، ومع ذلك فهأنذا أسمع صرخة الألم هذه !

جيترا : من ذا الذى شربها ؟ لقد بلغت غاية المنى فى حياتى ، وهى وصال الحب الأول ، إلا أن ذلك انتزع منى . وسيسقط عنى هذا الجمال المستعار ، هذا الكذب الذى يكتنفنى ، آخذاً معه أثر ذلك الاتحاد الحلو ، سقوط أوراق الزهرة المعراة . وستجلس المرأة الخجلى من فقرها العارى باكية ليل نهار . يا إله الحب ، إن هذا المظهر اللعين ، الذى يرافقنى مرافقة الشيطان ، يسلبنى كنوز الحب جميعا — وهى جميع القبلات التى يظمأ قلبى إليها .

مادانا : وا أسفا ! يا لعقم لمتك الليلة الواحدة تلك ! إن سفينة السرور قد ظهرت للعيان ، ولكن الموج حال دون بلوغها الشاطئ الأمين .

چيترا : لقد دنت السماء من يدى دنواً أنسانى ، لحظة واحدة ، أنها لم تلدنى . ولكنى وجدت — إذ استيقظت من حلمى فى الصباح — أن بدنى قد أصبح منافسى ! فواجبى البغيض يحتم على أن أزينه كل يوم ، لأرسله إلى معبودى ، فأراه فى أحضانه . فيا إلهى استرجع منى نعمتك التى أنعمت على .

مادانا : وكيف تستطيعين الوقوف أمام حبيبك إذا أنا استرجعتها منك ؟ أليس من القسوة أن تخطفى من شفتيه الكأس وهو لم يكد يجرع جرعة اللذة الأولى ؟ بأى غضب معرض سيلقاك حينذاك !

چيترا : لذلك أفضل من هذا بكثير . سأكشف له عن نفسى الحقيقية التى هى أسمى وأنبل من هذا المظهر ، فإن رفضها وطردنى وكسر قلبى ، احتملت ذلك فى صمت أيضاً .

فاسنتا : اتعظى بنصحى ، إنه متى انتهى فصل الازدهار بمجىء الخريف فحينئذ تأتى دولة جنى الثمار الناضجة . ولا بد من يوم يأتى عفواً فتذبل الزهرة المفعمة بالحرارة ، زهرة الجسم ، فيه ، ويتقبل آرجونا مسروراً الحقيقة المثمرة الباقية فيك . فيا أيتها الطفلة عودى إلى عيدك المجنون .

المشهد الرابع

چيترا : لماذا تنظر إلى أيها الجندى الحبيب ؟

آرجونا : إنى أشاهد كيف تنسجين ذلك الأكليل . إن التوأمين المهارة والسلام ، يتراقصان فرحين على أطراف أصابعك ، فأنا أنظر وأتأمل .

چيترا : وفيم تفكيرك ياسيدى ؟

آرجونا : أفكر فى أنك بهذه الخفة ، خفة اللمس ، والعذوبة تنسجين أيام منفاى فى إكليل خالد لتتوجينى حين أعود إلى الوطن .

چيترا : إلى الوطن ؟ ولكن ليس هذا الحب لوطن ما .

آرجونا : أليس هو لوطن ما ؟

چيترا : كلا ، لا تتكلم فى هذا أبداً . خذ إلى وطنك كل قوى لا يزول . ودع الزهرة البرية الصغيرة حينما ولدت ، دعها تمت جميلة فى نهاية اليوم بين الزهر الذابل والأوراق المتساقطة . لا تأخذها إلى قاعة قصرك لترميها إلى أرضه الصخرية التى لا تعرف الرحمة بالأشياء الذابلة المنسية .

آرجونا : وهل من ذلك النوع حبنا ؟

چيترا : نعم ، وليس من نوع آخر غيره . ومالك تأسف عليه ؟ فما خصص لأيام البطالة يجب ألا يعمر أكثر منها . لأن السرور ينقلب إلى ألم حين ينغلق عليه الباب الذى كان يجب أن ينفذ منه . خذه ، واحتفظ به إلى حين ينتهى ، ولا تأذن لـلحظة مسائك أن تطلب أكثر مما تستطيع رغبة صباحك نيله . لقد مضى النهار ، فالبس هذا

الاكليل ؛ إنى تعبة . خذنى بين ذراعيك أيها الحبيب ودع عنك هذه الجهود الضائعة عبثاً فى ألا تنفصل ، تمت فى التقاء شفاهنا العذب .

آرجونا : صه ! واصغى يا حبيبتى إلى رنين أجراس المصلين فى هيكل القرية البعيد ينسل محمولا على متن الهواء عابراً الأشجار الصامتة .

المشهد الخامس

فاسنتا : لا أطيق مجاراتك يا صديقى . إنى تعب ، وإبقاء النار ، التى أضرمت ، موقدة واجب عسير . فهذا النعاس يغشانى ، وهذه المروحة تسقط من يدى ، وهذا الرماد البارد يغشى سعير النار . ولقد أفقت من نعاسى ثانية وأنقذت اللهب التعب ، بكل ما أوتيت من قوة ، غير أن هذا لن يدوم .

مادانا : إنى لأعرفك طائشاً كالطفل . فأما لعبك فدائم الحركة ، على الأرض ، أوفى السماء . وأما الأشياء التى بنيت منذ أيام بعناية لا حد لها فها أنت تعصف بها ، غير آسف ، فى لحظة واحدة . غير أن عملنا المشترك يواشك الانتهاء ؛ فأيام السرور المجنحة تطير طيراناً سريعاً ، والعام وهو على وشك الانتهاء يرتمى مغمى عليه فى أحضان السعادة الغامرة .

المشهد السادس

آرجونا : لقد نهضت فى الصباح فوجدت أن أحلامى قد ولدت جوهرة ، ومع أنه لا صندوق لدى أودعها إياه ، ولا تاج ملك عندى أضعها عليه ، ولا سلسلة لى أعلقها فيها ، فانى لا أملك القلب المطاوع على رميها . وهذه ذراعى العسكرية اليمنى تمسكها عابثة ، ناسية ما عليها من الواجبات .

[تدخل جيترا]

جيترا : حدثنى بأفكارك ، يا سيدى .

آرجونا : ذهنى اليوم مشغول بخواطر الصيد . أنظرى إلى المطر كيف ينهمر هتونا ، فينحدر بغزارة على جوانب الرابية ، وانظرى إلى السحب المدلهمة إذ تطبق كثيفة على الغابة ، وإلى المجارى المتدفقة تدفق الشباب الطائش إذ تجتاز الحواجز ضاحكة ضحكة الاستهزاء . فى يوم ماطر كهذا ، علينا — نحن الأخوة الخمسة — أن نخرج إلى غابة جيتراكا لصيد الوحوش الآبدة . ولقد كانت تلك الأيام أيام سرور ، فكانت قلوبنا تتراقص على قرع طبول السحاب القاصف ، وكانت الأحراج تردد أصوات صرخات الطواويس ؛ ولم يكن الظبي الخجول ليميز وقع أقدامنا إذ تقترب ، لاشتداد ضوضاء المطر وخرير المياه . وقد تترك النمور آثار سيرها على الأرض الرطبة ، فتنم على مخابئها ، فاذا آن لرياضتنا أن تنتهى جرأ بعضنا بعضا على العودة إلى البيت عابرين تلك الغدران الراغية سباحة . ولقد استولى على ذلك الروح الذى لا يعرف الاستقرار الآن . فأنا أشتهى الخروج للصيد .

چيترا : عليك أولا أن تنزل فى المقام الذى تجد فى تتبعه الآن ؛ هل أنت واثق ثقة تامة أن الظبي المذعور الذى أنت فى طلابه فى حاجة إلى أن يصاد ؟ كلا ! ليس كذلك. فهذا الحيوان الآبد كالحلم يخدعك أدنى ما يكون منك منالا . أنظر إلى الرياح كيف يطاردها المطر المجنون الذى يسدد خلفها ألف سهم وهى مع هذا تمضى حرة لم تقهر . كذلك رياضتنا أيها الحبيب . إنك لتطارد روح الجمال السريعة الخطى ، مصوباً نحوها كل سهم فى يديك . إلا أن هذا الظبي السحرى ما انفك يعدو حراً دائماً لم يمسسه أحد .

آرجونا : أليس عندك ، يا حبيبتى ، موطن تنتظر عودتك فيه قلوب شفيقة ؟ موطن كنت قد زينته بخدمتك الرقيقة ، ثم لما تركته خبا ضوءه ؟

چيترا : ولم هذه الأسئلة ؟ هل انقضت ساعات السرور الطائش ؟ ألم تعلم بأنى لا أزيد على ما ترى أمامك شيئاً ! أما أنا فلست أرى وراء ذلك شيئاً أبداً ؛ لأن قطرة الندى التى تتعلق على ذؤابة زهرة « كنسوكا » لا اسم لها ولا وطن ، وهى لا تجيب على أى سؤال . وشأن من أحببت كشأن تلك القطرة السوية من الندى .

آرجونا : أليس لها بهذا العالم من صلة ؟ أفى مستطاعها أن تكون مثل كسر من السماء وقع على الأرض من قلة اهتمام إله طائش ؟

چيترا : نعم .

آرجونا : آه ، وهذا هو السر الذى يشعرنى دائماً بأنى على وشك أن أضيعك . إن قلبي قلق ، وذهنى لا يعرف السلام . اقتربى منى يامن يستحيل وصالها ؛ أسلمى نفسك وأذعنى لقيود الاسم والوطن والنسب ، وأحسى قلبي من كل جوانبه بوجودك ، ليعيش معك فى طمأنينة الحب وسلامه .

چيترا : لم هذه المحاولات الضائعة فى إمساك أصباغ السحاب والاحتفاظ بتراقص الأمواج وروائح الأزهار ؟

آرجونا : سيدتى لا تؤملى أن تخدعى الحب بالأوهام ، أعطينى ما اضمه وما يستطيع أن يستمر أطول من السرور ، وأن يدوم ولو على المكروه .

چيترا : يا بطلى ، إن السنة لما تنته ، وها أنت ذا منهوك القوى . وإنى لأعرف أن من رحمة السماء أن جعلت أمد الزهرة من الحياة قصيراً . فلو مات بدنى هذا وذوى مع أزهار الربيع الأخير إذاً لمات ميتة الشرف ولا ريب ، ومع ذلك فان أيامه معدودة أيها الحبيب ، فلا تدخره واضغطه حتى يجف رحيقه ؛ لأن الفزع يراجع قلبك الملحاح ثانية وثالثة برغبة شديدة لا تشبع ، مراجعة النحلة أزهار الصيف الساقطة ذاوية فى التراب .

المشهد السابع

مادانا : هذه ليلك الأخيرة .

فاسنتا : فجمال جسمك سيعود إلى مذاخر الربيع الدائمة وحمرة شفتيك قد تحررت من ذكريات قبل آرجونا ، وسوف تتفتق من جديد تنتق زوج من ورق « آسوكا » الجديدة ، وغضارة أديمك وبضاضته سوف تولد ثانية فى مئات من أزاهير الياسمين العطر .

چیترا : يا أيها الالهان : استجيبا لى دعائى ، واجعلا جمالى هذا يشرق الليلة فى ساعته الأخيرة . بأسطع سنائه مثل آخرة ارتجاف اللهيب إذ يخبو .
مادانا : لقد أوتيت سؤلك .

المشهد الثامن

القرويون: من سيحمينا بعد الآن ؟
آرجونا : لماذا ؟ أى خطر يخيفكم ؟
القرويون: إن اللصوص لينحدرون علينا من التلال الشمالية انحدار السيل من جبل ، لتدمير قريتنا .
آرجونا : أليس لكم فى هذه المملكة من حارس ؟
القرويون: كانت الأميرة چيترا فزع الأشرار جميعاً ؛ فانها حين كانت بهذه الأرض السعيدة لم نخف غير الميتات الطبيعية . وقد ذهبت الآن إلى الحج ، فلا يدرى أحد أين يراها ؟
آرجونا : وهل حارس هذه الأرض امرأة .
القرويون: نعم ، فهى أمنا وأبونا . مجتمعين فى شخص واحد .

[يخرجون . تدخل چيترا]

چيترا : لماذ تجلس وحدك ؟
آرجونا : إنى أحاول أن أتخيل من أى نوع من النساء تكون هذه الأميرة چيترا .
إنى لأسمع كثيراً من القصص عنها من الرجال على اختلاف مشاربهم !
چيترا : آه ، ولكنها ليست بحسناء ؛ فليس لها عينان كعينى الجميلتين السوداوين اللتين كأنهما فى سوادهما الموت . وفى طوقها خرق كل هدف تشاء غير قلب بطلنا .
آرجونا : إنهم يقولون عنها إنها رجل فى البسالة ، وفى الرقة امرأة .
چيترا : وتلك فى الواقع مصيبتها العظمى ؛ إذ حين تكون المرأة امرأة فحسب وتلف نفسها حول قلوب الرجال لفاً ، بابتساماتها وتحسراتها وبخداتها وعناقها المتحبب ، فانها تكون إذ ذاك سعيدة . ما فائدة التعليم ، والمآتى العظمة لها ؟ إنك لو رأيتها البارحة فى ساحة معبد الاله شيفا عند ممشى الغابة ، إذاً لمررت من غير أن تكرم بالنظر إليها .
ولكن هل أضناك جمال المرأة بحيث إنك تبحث فيها عن قوة الرجل ؟
لقد صنعت فراش قيلولتنا من ورق الشجر الأخضر المرطب برذاذ الزبد المتناثر من مسقط الماء فى كهف مظلم كأنه الليل . فبرودة العشب الأخضر الناعم المتكدس على الصخور التى يقطر الماء منها ، تقبل عينيك لتنام فدعنى أقدك إلى هناك .
آرجونا : ليس اليوم أيتها الحبيبة
چيترا : ولم لا يكون ذلك اليوم ؟
آرجونا : لقد ترامى إلى أن عصابة من اللصوص قد شارفت السهول فحتم على أن أذهب لأعد السلاح فأحمى القرويين المذعورين .

چيترا : لا حاجة بك إلى الخوف عليهم ؛ فإن الأميرة چيترا قد أرسلت قبل أن نبدأ حجها حراساً أشداء إلى ممرات الحدود كافة .

آرجونا : ومع ذلك فاسمحي لى هنيهة أن أبدأ عملى الحربى ، لأشرف هذه الذراع العاطلة بفخر جديد ، وأجعل منها وسادة تليق برأسك .

چيترا : فما قولك إن رفضت السماح لك بأن تذهب ، واحتفظت بك مطوقة إياك بذراعى ؟ أتختطف نفسك متحرراً بفظاظة وتغادرنى ؟ إن كان ذلك فتذهب إذاً . ولكن اعلم حق العلم أن الكرمة التى قد تنقسم إلى جزأين لن تتحد ثانية أبداً . اذهب إذاً كان فى ذلك رى غلتك ، ولكن إذا لم تكن كذلك فتذكر أن إلهة السرور مترددة وأنها لا تنتظر رجلا . إجلس هنيهة يا مولاى واقصص على : أى الخواطر الصعبة يزعجك ؟ من ذا الذى شغل ذهنك اليوم ؟ أهى چيترا ؟

آرجونا : أجل إنها چيترا . وإنى لأعجب العجب كله ، من أنها إيفاء لأى نذر تكون قد حجت . ما عسى أن تكون حاجتها ؟

چيترا : حاجتها ؟ ولماذا ؟ وأى شىء كان عندها ؟ عند تلك المخلوقة التاعسة ؟ إن صفاتها الخاصة كجدران سجن تضم قلب امرأة فى خلية عارية . إنها خاملة جدباء . وحبها النسوى لابد له من الاكتفاء بثوب خلق ؛ هى محرومة الجمال . فمثلها مثل روح صباح غام ، جالس على قمة الجبل الصخرية وكل أضوائه قد محتها الغيوم السوداء . لا تسلنى عن حياتها فلن تنغم لنا جميلا لأذن الرجل !

آرجونا : إنى متلهف إلى معرفة كل شىء من أمرها ، شأنى فى ذلك شأن غريب قدم بلداً فى جوف الليل ؛ فقصورها وأبراجها ، وأشجار جنانها تبدو له مبهمة مظلمة ، وأنين البحر الكئيب يجىء فى دفعات من خلال سكون النوم ، فهو ينتظر مطلع النهار بلهفة ليكشف له عن أعاجيبها الغريبة كافة ، فقصى على بالله قصتها ،

چيترا : وماذا بقى ليقال عنها ؟

آرجونا : إنى لأتوهمها ممتطية صهوة جواد أشهب ، وممسكة مسكة اختيال بالعنان فى يدها اليسرى ، وبالقوس فى يدها اليمنى ، فكأنها إلهة النصر تنثر من حولها الأمل السار ، وهى كاللبؤة المتيقظة إذ تحافظ على أشبالها فى مخبئها بالحب الشرس . إن ذراعى ولو أنهما لم تزينا إلا بالقوة المفلتة فإنهما جميلتان . أيتها الحسناء إن قلبى قلق كأنه ثعبان قد استفاق من إغفاءته الشتوية الطويلة . تعال ودعينا نتسابق على فرسين سريعين جنباً إلى جنب مثل نجمين صنوين يجريان فى الفضاء ؛ لنخرج من هذا السجن ، سجن الظلمة الخضراء الذى يبعث السبات ، من هذا الغطاء الكثيف العفن ، غطاء الثمل العطر ، من هذا النفس الخانق .

چيترا : أصدقنى يا آرجونا أو لو تمكنت الآن من فورى واستطعت بقوة سحرية أن أحرر نفسى من هذه النعومة الشهوانية ، من الاشراقة الخجلى ، إشراقة الجمال المستطير فرقاً من مسة العالم القوية الصحيحة هذه ، فأرميها عن جسمى رمية الثياب المستعارة أكنت تطيق إذاً ما أصنع ؟ أو لو أنى وقفت الآن منتصبة قوية بجرأة القلب الجسور بعيدة عن المكر ، وفنون الاغراء بالضعف ؛ ورفعت رأسى عالياً عالياً رفيعاً كأنى جبل سرو شامخ صنير ، غير عائدة إلى التراب مثل الكرمة ،

أكنت أحلى فى عين الرجل ؟ كلا ، كلا ، لن تطيق ذلك . خير لى أن أنشر دوماً حولى جميع ألاعيب الشباب الزائل اللطيفة وأنتظرك صابرة ؛ فان سرك أن تعود فسأصب لك شراب السرور باسمة الثغر فى كأس هذا البدن الجميل . وحين تتعب أو تصيب كفايتك من ذلك الشراب ففى وسعك الذهاب للعمل أو اللعب . وإذا ما أدركتنى الشيخوخة فسأقبل بتواضع وشكر أية زاوية تترك لى . فهل فى هذا سرور لبطولة نفسك لو أراد أن يكون رفيق لعبك فى الليل شريك مساعيك فى النهار ، وتعلمت الذراع اليسرى مشاطرة الذراع اليمنى الفخور على حمل العبء .

آرجونا: ما أرانى عرفتك حق معرفتك قط ؛ إنما تتراءين لى آلهة مخبوءة فى صورة من الذهب . لا أستطيع أن أمسك ولا أستطيع أن أوفيك ديونك على هباتك التى لا تقدر بثمن . وهكذا فان حبى ناقص . ولقد أحظى أحياناً فى قرارة نظراتك الغامضة الحزينة ، وفى كلماتك المرحة ذات المعانى الساحرة ، بلمحات من مخلوقة تحاول أن تشق جمال جسمها الذابل لتخرج عبارة من خلال غشاء البسمات السديمى نار الألم الدفينة . إن الوهم هو أول صور الحقيقة ؛ إنها تتقدم نحو عشاقها متنكرة . ولكن سيجىء الوقت الذى ترمى فيه حليها وأقنعتها فتقف فى وقار عريان . وإنى لألتمس فيك تلك النهاية ، تلك البساطة المجردة ، بساطة الحقيقة .

لم هذه الدموع يا حبيبتى ؟ لماذا تغطين وجهك بيديك ؟ هل آلمتك يا عزيزتى ؟ تناسى ما قلت .. سأكتفى بما هو موجود . ولتأت كل لحظة منفصلة من لحظات الجمال إلى جيئة طائر غامض من عشه غير المنظور فى الظلام ، حاملا رسالة الموسيقى . دعينى أجلس أبداً بأملى على حافة الحقيقة ، وهكذا أنهى أيامى .

المشهد التاسع

[چيترا وآرجونا]

چيترا (وقد لبست عطافاً) : — مولاى هل افرغت الكأس حتى آخر قطرة فيها ؟ أحقاً أن هذه هى النهاية ؟ كلا ! فانه حين ينتهى كل شىء ، فلابد من شىء واحد يبقى ؛ وهذا آخر قربان أقربه تحت قدميك . لقد جلبت معى من الجنينة أزهاراً لا نظير لها فى الجمال أريد أن أعبدك بها يا إله قلبى . فاذا انتهت الشعائر ، وذوت الأزهار ، فلأرمها خارج المعبد . تكشف عن ثيابها الأصلية ثياب الرجال . أنظر الآن إلى عابدتك بعينيك النبيلتين ؛ لست بالجميلة تامة الجمال ، جمال الأزهار التى أتعبد بها ، ففى جملة عيوب ولطخات . ما أنا سوى مسافر فى طريق العالم الكبير ، خللى قذرة ، وقدماى تنزف الدم مما فيهما من أشواك . أنى لى أن أتم صنع زهرة الجمال الظافر من حياة لحظة . إن الهدية التى أنا فخور بتقديمها إليك هى قلب المرأة ، فيه تتجمع الآلام والأفراح كلها ، وفيه تتجمع آمال ابنة التراب فى مخاوفها وحيائها . هنا ينبعث الحب مكافحاً الحياة الخالدة ، هاهنا النقص المنطوى على النبل والعظمة . فاذا انتهت خدمات الأزهار ، فتقبل هذا يا سيدى خادماً فى الأيام القابلة .

جيترا

إنى أنا جيترا بنت الملك ، لعلك تذكر يوما جاءتك فيه امرأة إلى معبد الاله شيقا محملة الجسم بالزينة والتهاويل ، تلك المرأة الجسور ، جاءت إليك لتداعبك كأن لو كانت رجلا ، فنهرتها وقد أحسنت صنعاً ، مولاى : إنى أنا تلك المرأة وكانت هى نفسى متنكرة . . . ثم إنى بنعمة الآلهة أصبت غاية ما يستطيع البشر تقمصه من البهاء ، وأتعبت قلب حبيبى البطل بذلك الحمل من الخداع . فأنا على التحقيق لست تلك الحسناء . أنا جيترا ، لا أنا بآلهة تعبد ، ولا أنا كذلك موضع الشفقة الممتهن الذى ينبذ نبذ الهوام بلا اكتراث . فان تفضلت بأن أبقيتنى بجنبك فى ممر الخطر والاقدام ، وسمحت لى أن أشاطرك أعباءك فى الحياة ، فستعرفنى ، حق معرفة عندئذ . إن جاء ولدك الذى فى رحمى الآن ذكراً فسأعلمه بنفسى كيف يكون آرجونا آخر ، وسأرسله إليك متى آن الأوان . وعندئذ ، وأخيراً ستعرفنى المعرفة الحقة . إنى لا أستطيع إلا أن أقدم لك اليوم جيترا ، آتية معك .

آرجونا : يا حبيبتى ، لقد اكتملت حياتى .

طاغور

تعريب فخرى شهاب

من هنا وهناك

رسالة من لندن

العالم فى مهاب الريح

تنفس الصعداء

تنفس الناس فى أرجاء العالم كلها الصعداء، يوم انعقدت هيئة الأمم المتحدة فى لندن منذ أسبوعين اثنين، فسمعوا خطب الافتتاح من جانب ممثلى الثلاث الدول العظمى تشيد بالاتجاه الجديد للسياسة الدولية الجديدة، وتبشر العالم فى عهده الجديد بالأخوة والمساواة والهناءة العميمة. وحسب المتفائلون أن ما احتمله البشر خلال الست السنوات التى عمت فيها نكبات الحرب وويلات الخراب والدمار، قد علم الانسان الرحمة بأخيه الانسان وأقنعه بأن التعاون والتضامن هما خير نظام لهذا الكون المتطور.

لكن ...

لكن ما كاد الرئيس المؤقت — وكان هو رئيس اللجنة التحضيرية — يعرض أمر انتخاب الرئيس الدائم حتى تكشف الحال غير الحال، وتبين أن الانسان لا يزال هو الانسان، وأن المصالح لا تزال هى المصالح، وأن التنافس بين الدول لا يزال هو التنافس، وأن إساءة الظن بخاصة لا تزال هى إساءة الظن المتبادلة. وتعاقبت الجلسات بعد الجلسات، وتعاقب الخطباء إثر الخطباء، فاذا الاحساس يتجلى بأن الدول الكبيرة لا تزال تحرص على أنها الدول الكبيرة، وبأن الدول الصغيرة لا تزال تحس أنها الدول الصغيرة، فتقول الأولى من باب الطمأنة : إن المساواة فى السيادة بين الدول الكبيرة والدول الصغيرة هى المبدأ الأساسى الذى يقوم عليه العهد الجديد ويستند إليه ميثاق الأمم المتحدة. وتقول الأمم الصغيرة إنها ترجو أن تكون تلك المساواة عند ما يجىء دور التطبيق حقيقة مادية لا مجرد حكم مكتوب من أحكام الميثاق النظرية، وتذكر تدليلا على خشيتها أن حق الرفض والاعتراض الممنوح للدول الكبرى، ولكل واحدة منهن على انفراد، إنما يتنافر تنافراً جلياً مع مبدأ المساواة الذى يلح خطباء الولايات المتحدة والمملكة المتحدة والاتحاد السوفيتى فى إبرازه.

وأخيراً ...

وأخيراً لا يجىء يوم السبت التاسع عشر من شهر يناير لسنة ١٩٤٦ وهو اليوم العاشر

من أيام اجتماع هيئة الأمم المتحدة ، وهو اليوم الأخير من أيام فترة الجلسات العامة التى تسبق فترة أعمال اللجان والمجالس — لا يجىء مساء ذلك اليوم حتى يعلن أن الوفد الايرانى قد انتهى إلى إبلاغ السكرتيرية العامة المؤقتة شكوى حكومته من التدخل السوفيتى فى شؤون إيران الداخلية الخاصة ، قصد عرض الأمر على مجلس الامن وفقاً لأحكام مادة من مواد الميثاق الذى لم يجف بعد حبر التوقيع عليه فى « سان فرنسيسكو » . وراحت الصحف وراح المعقبون فيها وفى محطات الاذاعة ، يكتبون ويقولون إن الأمر المعروض إنما هو من الأمور « الكبيرة » لأن أحد الطرفين فيه دولة كبيرة ، لها حق الاعتراض والرفض ، ولها بهذا الحق ، وقف مفعول كل قرار يصدر فى غير مصلحتها من جانب مجلس الأمن أو من جانب الجمعية العامة ، وأخذوا يتساءلون من الآن : ترى هل يستعمل الاتحاد السوفيتى حقه إذا صدر قرار ضده ؟ وترى ماذا سيكون أثر موقفه فى سمعة المنظمة الدولية الجديدة وهى لا تزال بعد فى مهدها ، وهى فى شدة الحاجة إلى الدعم ، ولا سيما بعد كل تلك الهجمات التى وجهت خلالها إلى « عصبة الأمم » البائدة التى لم يكن لها من السلطان مثل ما للهيئة الجديدة فى سبيل تقدير الحق وتنفيذ القرارات ؟

الحوادث تتداعى

ولم ينقض يوم على ذلك الحادث الايرانى ، بل لم تنقض ساعات ، حتى تداعت بعده الحوادث المماثلة له فى الطبائع المخالفة فى الاتجاه . فقد جاءت الأنباء تترى بأن قيامة قد قامت فى إيران أيضاً ، ولكن فى القسم الجنوبى منها هذه المرة . والجزء الجنوبى لا تزال تحتله القوات البريطانية ، كما لا تزال تحتل الجزء الشمالى القوات السوفيتية ، وبأن القيامة ترجع إلى تدخل سلطات أجنبية فى شأن من شؤون « محافظ الاقليم » الذى ترضى عنه القبائل أو لا ترضى .

وجاءت الأنباء بعد ذلك أو فى الوقت عينه ، بأن قيامة قد قامت فى بلاد اليونان ، وأن الأحكام العرفية قد أعلنت فى غير واحد من أقاليمها ، وأن الدعاية ضد الملكية تجرف قبيل إجراء الانتخابات ، وأن هناك تدخلا أجنبياً متعرضاً يناصر الملكية ويناوئ الجمهورية .

ثم لم تلبث الأنباء أن جاءت آخر الأمر بأن الحكومة البريطانية قد أوفدت فى مهمة خاصة إلى جاوة سفيرها فى موسكو ليحاول تهدئة خواطر الأندونسيين والوصول إلى التوفيق بينهم وبين الحكومة الهولندية .

ومعنى الحادثين الأولين أن فى غير « أذربيجان » تدخلات من سلطات أجنبية (ولنقرأها انجليزية) وأنه إذا كان التدخل السوفيتى قد وصل إلى أن ينظر فيه مجلس الأمن فى هيئة الأمم المتحدة ، فليس هناك ما يمنع — نزولا على مبدأ المساواة المقرر — من أن يصل التدخل البريطانى فى شؤون إيران الجنوبية وفى شؤون اليونان إلى المجلس ذاته أيضاً . ومعنى الحادث الثالث أن انجلترا ، وقد أحست ذلك الاتجاه فى الجو ، تريد أن تبادر إلى تهدئة الأندونسيين وإقامة التفاهم بينهم وبين هولندا حتى لا يضاف إلى الحادثين السابقين حادث تدخل بريطانى ثالث فى الشؤون الجاوية يقول القائلون بأنه يستدعى هو أيضاً أن يعرض على مجلس الأمن كما عرض الحادث السوفيتى الايرانى .

وبالإجمال

ثم لم تنقض ساعات معدودات على هذه الأقوال التى تواترت فى دهاليز « سنترال هول » و « تشرش هاوس » اللذين تجتمع فيهما هيئات الأمم المتحدة ، حتى عرف أن الوفد الأكرانى قد تقدم بمذكرة يطلب فيها أن ينظر مجلس الأمن فى الحوادث الجارية فى أندونسيا ، وأن الوفد السوفيتى قد تقدم بمذكرة أخرى يطلب فيها أن ينظر المجلس ذاته فى الحوادث الجارية فى اليونان .

وقد استندت المذكرتان إلى ما استندت إليه المذكرة الايرانية من اعتبار ما يجرى تهديداً للأمن الدولى ، ورجعتا إلى ما رجعت إليه من حكم المادة الخامسة والثلاثين من مواد ميثاق الأمم المتحدة الذى « يحرص الجميع الحرص كله على قيامه واحترامه » .

وإذن

ولا يدرى أحد مدى التطور الذى يبلغه الحادثان اللذان تداعيا أخيراً فى جنوب إيران وفى اليونان . ولا يدرى أحد نتيجة المسعى الذى راح سر أرشيلد كلارك كار — وقد أنعم عليه اليوم بلقب اللوردية — يبذله فى جاوة . ولا يدرى أحد بماذا يتمخض الغد فى غير إيران واليونان وجاوة . وسيكون لهذه التطورات كلها أثر فى تكييف الجو الذى ينعقد فيه مجلس الأمن للنظر فى المشاكل التى صادفته غداة انتخاب أعضائه .

وإذن فالاستقرار لم يكتب للعالم بعد ، بل إنه لفى مهاب الرياح من جديد . وإذا كانت رياحه الآثمة ليست مما يهدد بعواصف عسكرية ، فهى بلا ريب مما يؤذن بزوابع دبلوماسية على الأقل . وسترى .

فى ٢٢ يناير سنة ١٩٤٦ محمود عزمى

رسالة من باريس

الثقافة الفرنسية فى الخارج

[نلفت القراء إلى هذه المعلومات والمقترحات الدقيقة . فقد يكون فى تدبرها نفع كثير ، لأن مصر تستوفد الأجانب ، كما توفد المصريين إلى بعض البلاد العربية]

هذه المحاضرة الثانية من سلسلة المحاضرات التى ألقاها الاستاذ جان توما فى مدرسة المعلمين العليا عن انتشار الثقافة الفرنسية فى الخارج .

بدأ المحاضر حديثه بلفت مستمعيه إلى أن محاضراته ستقتصر على سرد بيانات ومعلومات ، وغرضه من هـذا الحديث أن يبين نظام التعليم الفرنسي في الخارج ، والطابع الخاص الذي يمتاز به هذا النظام ، وهو التنوع .

التزم مسيو جان توما خطته المنتظمة التي درج عليها في البحث ، فعمد إلى تقسيم موضوعه إلى أربعة أقسام كبرى ينطوي كل منها على أقسام داخلية ، وانتهى إلى نتيجة استخلصها من هذه الدراسة المركزة .

القسم الأول خاص بالتعليم الثانوي

وهذا التعليم يشتمل على المدارس الآتية :

(أ) المدارس الثانوية التي تعينها الدولة الفرنسية . ووجود مثل هـذه المنشآت على أرض دولة أجنبيـة من دواعي الاعتبار والاعجاب . فتجد في روما مدرسة ثانوية فرنسية هي « الليسيه شاتو بريان » ، وأخرى في براج ، واثنتين في أسبانيا . ومعظم طلبة المدارس من أبناء الجاليات الفرنسية المقيمة في تلك المدن ، هـذا إلى أن عدداً من الشبان الوطنيين يختلفون إليها . فالليسيه الفرنسي في لندن يشتمل على ستمائة طالب ليسوا جميعاً فرنسيين ، لكن بينهم كثيراً من الأجانب ، بل من الانجليز . وإذا كان عدد الطلبة الأجانب في هذه المدارس محدودا فرجع ذلك إلى أن شهادة الدراسـة الثانوية الفرنسية ليس من شأنها أن تيسر أمر الطالب الايطالي أو الأسباني كل التيسير حين يريد أن يتخذ لنفسه مهنة .

(ب) وتوجد إلى جانب ذلك المدارس الثانوية للبعثة العلمانية الفرنسية ، وهـذه المدارس تعينها الحـكومة الفرنسية .

(ح) وتضم جمعية « الاليانس فرانسيز » بعض المدارس ، ولـكن ليس لها حظ من الاتساع والرواج .

(ى) وتوجد في أمريكا اللاتينية معاهد لدراسة التجارة ، ويطلق عليها خطأ اسم « المدارس الثانوية » ، وتعينها الجاليات الفرنسية في تلك البلاد ، والسـفارات أو المفوضيات الفرنسية في دول أمريكا الجنوبية .

(هـ) وعلينا أن نشير هنا إلى مدرسة لها حالة خاصة ، وهي مدرسة جالاتا ـ سراي في استامبول ؛ فهي معهد وطني تركي يطلب من فرنسا أساتذة من ذوي المؤهلات الدراسية .

القسم الثاني

إذا ما تركنا التعليم الثانوي وجدنا المعاهد ، وهي في مستوى التعليم العالي ، والالتحاق بها مباح مبدئياً للجميع . وتلقى فيها دروس ومحاضرات عامة تتجه بصـفة خاصة إلى الذين

يشغلون ببعض الفراغ من الوقت ، كالسيدات المتقدمات فى السن ، وآنسات الطبقة الراقية ، وأرباب المعاشات . وليس معنى هـذا أنها محظورة على الطلاب . وعلينا أن نعـترف بأنه يلاحظ فى مختلف أنحاء العالم شىء من « التكلف المتوارث لتذوق الأشـياء الفرنسية . » وهذا الميل هو ماقصدت المعاهد إلى الانتفاع به . وطبيعى أن مديرى هذه المعاهد وأساتذتها يجب أن يكونوا على مايرام من العلاقات مع زملائهم الذين يتولون التدريس فى جامعات البلاد التى يوجدون بها . فالأمر أمر تعاون لا تنافس ، ويجب أن يفهم على هذا الوجه . هـذه على الأقل الروح التى دفعت إلى أن ينشأ فى الوقت الحاضر معهد فرنسى فى كوبنهاجن . وينبغى أن تكون جميع هذه المعاهد أماكن اتصال ومراكز للثقافة الفرنسية ، تنظم فيها أحاديث ومعارض وحفلات موسيقية وحفلات استقبال الخ . . . ومن هذه المعاهد واحد فى انجلترا وآخر فى اسكتلندا ، واثنان فى أسبانيا وعدد منها فى إيطاليا ، وواحد فى كل من المدن الآتية : أثينا ، بلجراد ، زاجريب ، سوفيا ، براج . وهناك ثلاثة منها فى بولاندا لم يستأنف افتتاحها بعد ، ومنها ما كان موجوداً فى ليتوانيا واستونيا . ويرى مسيو توما أن الوقت ليس مناسباً لاستئناف فتح هذه المعاهد الأخيرة . ومن هذه المعاهد ما هو موجود فى الدول السكندناوية . وقد وجد منها فى ألمانيا والنمسا . ويفكر أولو الأمر فى إعادتها أو فى إنشاء معاهد جديدة فى هذه البلاد . ومجمل القول أن جميع هذه المعاهد الفرنسية تؤلف فى مختلف أنحاء العالم شبكة ذات حظ كبير من الخطورة والتشعب . وهذه المعاهد منوعة يجب أن نميز بينها :

(أ) فمنها المعاهد الدراسية .

(ب) ومنها معاهد البحوث .

(ح) ومنها المعاهد المختلطة ، أى تلك التى تجمع بين الدراسات والبحوث .

وليست هذه المعاهد الفرنسية مقصورة على القارة الأوربية ، فيوجد منها فى مكسيكو وريودى جانيرو وبوانوز ايرز ومونتفيديو . ولم يذكر مسيو توما المعهد الفرنسى بالقاهرة . ولعل ذلك كان سهواً منه . وسينشأ واحد فى الهند . وأخيراً معهد نيويورك ويعتبر مقراً لعدد كبير من الشباب الناشئين بالبحوث ، يقضون فيه فترة تمرين تتراوح بين عام وعامين (وهم رجال الاتصال) . وبديهى أن يكون لذلك مقابل ، وهو فى الواقع مقابل طبيعى ، وهو إنشاء معاهد أمريكية فى باريس . والمعاهد الفرنسية فى الخارج هى خير مكان يستطيع فيه خريجو مدرسة المعلمين المحدثون أن يتولوا التدريس ، أو أن يواصلوا بحوثهم . ومما يجدر التنبيه إليه أنها جميعاً ملحقة حتما باحـدى الجامعات . ولو أن الأمر كان على غير ذلك لأصبحت موضع شبهة ، وصارت مثل هذه المنشآت التى كانت تطلق على نفسها اسم « المعاهد الايطالية أو الألمانية » والتى لم تكن إلا مراكز للدعاية والاستعلامات . وما دامت هذه المعاهد تمنح درجات علمية فهى تمنحها باسم إحدى الجامعات . مثال ذلك معهد لندن وأندبره فهما متصلان بجامعتى كان وليل ، ومن ثم فهما متصلان فى نهاية الأمر بجامعة باريس .

القسم الثالث

بعد المعاهد تأتى المدارس الكبرى . وعددها محدود جداً . نذكر منها مدرسة الحقوق الفرنسية فى القاهرة ، ومصيرها التحول عاجلا أو آجلا إلى معهد للدراسات القانونية حتى لا تنافس كلية الحقوق المصرية . ومنها أيضاً جامعة سان جوزيف فى بيروت . وهذه الجامعة تابعة للفاتيكان ؛ لأن الذين يتولون إدارتها آباء يسوعيون ، ولكنها خاضعة لرقابة جامعة ليون .

القسم الرابع

وهو خاص بأعضاء هيئة التدريس الذين يختارون شخصياً ويوضعون تحت تصرف جامعات أجنبية . ويجب هنا أيضا أن نميز بين فئات من أعضاء هيئة التدريس هذه .

(أ) فنهم أولا المدرسون . وهم إما مساعدون (وفى هذه الحالة يتولون دراسة عملية فى لغة بلادهم) ، وإما مدرسون فعلا (جنسيتهم ولغتهم أجنبيتان) . ولدى هولاندا مثلا وظائف تحت تصرف « مدرسين » فرنسيين .

(ب) ومنهم الأساتذة ذوو الكراسى فنى ريو دى جانيرو مثلا توجد كراسى جرت التقاليد بإسنادها إلى الأجانب ، وللفرنسيين من بينهم مركز ممتاز . وهذه هى الحال أيضاً فى جامعتى القاهرة والاسكندرية، وفى ذلك شىء من الاحتفاظ ببعض التقاليد القديمة . على أن نظام « الاختيار الحر » قائم أيضاً ، ويلاحظ بصفة خاصة فى الولايات المتحدة . وكأن الأمر هنا يتصل بسوق حقيقية للأساتذة . ومن الأمثلة البالغة الدلالة بهذا الصدد شغل مسيو بير منصب رئيس القسم الفرنسى فى جامعة يايل منذ ست سنوات . وقد توقفت هذه التقاليد بعض الشىء من جراء الحرب ، إلا أنها أخذت تعود وتعم فى معظم البلاد . ولا زال فى بريطانيا العظمى بعض الأساتذة الفرنسيين ، فى اكسفورد وليفربول وبرستول . ولكننا بدأنا نفقد هذه المراكز ، لأن الانجليز أخذوا شيئاً فشيئاً يشعرون فى أنفسهم بالكفاية لشغل كراسى اللغة الفرنسية والأدب الفرنسى ، وهذا أمر طبيعى . بقى أمامنا أن نقترح تعيين أساتذة مساعدين تتحمل حكوماتهم رواتبهم ، ويعيد تبادلهم بغيرهم ما انقطع من تيار فكرى بين فرنسا والبلاد الأجنبية .

ولا شك أن كل هذا يقتضينا مفاوضات طويلة ودقيقة فى معظم الأحوال ، وهو ما يجرى الآن مع البرازيل . وهنا تظهر فئة من الاخصائيين يسمون الملحقين الثقافيين أو المستشارين الثقافيين . وتختلف درجة اتصالهم بالسفارات والمفوضيات الفرنسية فى الخارج . فهم ليسوا منتظمين فى سلك موظفى الدولة ، ولا تعترف بهم وزارة المالية ، ويمكن وصفهم بأنهم مكلفون « مؤقتاً » ببعض المهمات . وكثيرا ما يكونون أساتذة من ذوى المؤهلات الدراسية أو كتاباً ، أو من رجال الأدب . ولهم بعض السلطان على الفرنسيين من أعضاء هيئة

التدريس فى البلد الذى يوجدون به . ونستطيع اعتبارهم موظفين ثقافيين ذوى صفة تنفيذية . وهم أدوات اتصال دائم بين بلدهم والخارج فى الميدان الفكرى . وفى الحق أن مهمتهم من أشق المهام، ولكنها من أنفعها .

والنتيجة التى استخلصها مسيو جان توما أنه لا يرى من مصلحة الشبان الفرنسيين أن يقضوا حياتهم فى الخارج يمارسون مهنتهم ، وأنه يرى من ناحية أخرى أن من المصلحة الملحة تجديد الأساتذة المنتدبين إلى الخارج بين حين وحين . على أن من دواعى الأسف أن الأساتذة يتعلقون بالحياة التى كونوها لأنفسهم وألفوها . ثم إنه يجب أن نواجه مايصادفهم من مشاكل إدارية عند عودتهم : فهل يعتبرون حين يرجعون إلى فرنسا فى نفس المركز الذى كانوا عليه عند سفرهم ؟

فى أوائل شهر نوفمبر سنة ١٩٤٥ صدرت لائحة تنظم مركز الأساتذة الفرنسيين المنتدبين للخارج ، وتقرر أنهم سيتمتعون بنفس الحقوق التى يتمتعون بها لو أنهم عملوا فى فرنسا ، سواء من حيث العلاوات والترقيات وما إلى ذلك ، فيمكن ترقيتهم إلى وظيفة جامعية فى إحدى الكليات فى فرنسا مهما طالت غيبتهم . ويبين أحد نصوص اللائحة الحكم الخاص الذى يجب تطبيقه على هؤلاء الأساتذة سواء عينوا مدة انتدابهم للخارج ، أم عينوا عند عودتهم « على وظائف » لا تزال مشغولة حتى تخلو هذه الوظائف فينقلوا إليها نهائياً . أما الناحية المالية للموضوع فقد حلت على الوجه الآتى : يمنح الأستاذ المنتدب إلى الخارج راتباً أساسياً مساوياً للراتب الذى يمنحه فى فرنسا ، ثم يعامل معاملة موظفى السلك القنصلى أو السياسى باختلاف الوظيفة التى يشغلها . وأخيراً تمنح إعانة خاصة غير ثابتة .

على أنه يجب اليوم ان ننظر إلى الأمر من حيث إنه امر تبادل . واختتم المحاضر حديثه ذاكراً أنه يجب لذلك إعداد الأساتذة إعداداً خاصاً . فينبغى أن يقف الأستاذ الموفد إلى الخارج على ماسيلقى فى البلد الذى يندب إليه من مسائل دينية وسياسة واجتماعية واقتصادية ولغوية وخلقية الخ . . . بذلك فقط يتجنب الأخطاء التى كثيرا ما تقع حتى اليوم والتى تضر بمصلحة فرنسا ضررا بالغاً . فاذا ما وصلنا إلى تزويد الأستاذ بهذه المعلومات ، وتولى البلد الذى يرسل لنا بديلا له تزويده بمثل هذه المعلومات قبل إيفاده إلى فرنسا ، حينئذ نكون قد حققنا للطرفين فائدة فكرية وعلمية ممتازة فى سبيل فرنسا وفى سبيل ثقافتها التى ما زالت منتشرة .

مؤنس طه حسين

ادجار آلن پو

كان الأدباء الأمريكيون ، وما زالوا حتى اليوم ، يعتمدون كل الاعتماد فى النهضات الفكرية والتطورات الحديثة فى الأدب على الأمم الأوروبية . ولم يعرف للأمة الأمريكية فى تاريخ الأدب مذهب اجتماعى يؤثر فى الأدب أو حركة فكرية تغير من اتجاه الكتاب والشعراء أو حتى مدارس فنية إلى منتصف القرن التاسع عشر حين ظهر من بينهم كاتب وشاعر عظيم كان له شأن كبير فى توجيه الأدب الأمريكى ، لما أنشأه من مدرسة فنية جديدة تبعها كثيرون من الكتاب الأوروبين أولا ، ولأسلوبه فى فن القصة ثانياً ، وذلك هو أدجار آلن پو .

غير أن الأمة الأمريكية ، لما اعتادته من نقل دون ابتكار أو خلق ، لم تقدر الشاعر حق قدره فأنزلته فى مرتبة ثانية من بين مراتب أدبائها ، ولم ينفق النقاد الأمريكان من جهدهم لدراسة حياة هذا الشاعر إلا جزءا يسيرا لا يقارن بالجهود التى بذلها الأوروبيون لدراستها مع أن حياة پو خليقة بدراسة عميقة لما فيها من أحداث خطيرة ولما اعتراه من مؤثرات قوية وتيارات عنيفة جارفة كثيرا ما غيرت مجرى حياته وجعلت منه مخلوقاً تعساً يكتنف شخصيته كثير من الغموض ، ويحيط الابهام بكثير من تصرفاته فى حياته الخاصة وحياته الفنية . غير أن دراسة حياة الشاعر يجب ألا تطغى علينا فتمنعنا من دراسة آثاره الفنية التى أدت إلى اعتباره مؤسساً للحركة الرمزية فى الأدب ، وإلى اعتباره — وهى ناحية أخرى لا تقل عن الأولى خطرا إن لم تكن أبعد أثرا — أنه مبتدع القصة القصيرة .

ولد پو سنة ١٨٠٩ من أبوين اعتليا خشبة المسرح ، وبسم الحظ لأمه فنجحت فى هذا الميدان ، وأخفق أبوه بعد أن كان قد ترك دراسة القانون ليتفرغ للتمثيل . كانت حياة پو سلسلة من المآسى ، بدأت بفقد أمه وهو ما يزال فى الثانية من عمره . وقد تركت الأم بين يدى القدر أطفالا ثلاثة وهى لا تدرى ما يكون مصيرهم بعد أن هجرها زوجها وهى فى نيويورك . ولا نعرف بعد ذلك كثيراً أو قليلا عن حياة داڤيد پو : كيف عاش أو كيف مات ، مع أننا نعرف أنه كان مصاباً بالمرض الذى توفيت به زوجته وهو مرض الرئة . ويحدثنا پو عن موت أبيه حديثاً لا نركن إليه ولا نطمئن إلى تفاصيله ، شأن كل ماحدثنا به پو عن حياته الخاصة أو عن أسرته . ونحن لا يهمنا من داڤيد پو ومن حياته شيئاً ، غير أن هذا الغموض الذى اكتنف حياته استمر صفة خاصة لازمت حياة الشاعر . كما أن الظروف المؤلمة التى استهل بها پو فجر حياته جعلته لا يثق بنفسه ولا يطمئن إلى من حوله ، فأفسد عليه ذلك حياته العملية .

نشأ پو وهو لا يعرف أبويه ، ولكنه ورث عنهما صفات كثيرة ، أخصها ضعف البنية ورقتها ، وإن لم يكن مصابا بمرض فى رئته . ولقد أثار مرض الأم كثيراً من الشفقة والألم بين جيرانها ، فما كادت تلفظ أنفاسها الأخيرة حتى توزع أطفالها كل منهم فى رعاية أسرة من الأسر . وكان أدجار من نصيب أسرة تاجر موسر ، يدعى جون آلن وزوجه التى لم ترزق منها أطفالا . ولكن حياة پو بين هذه الأسرة لم تكن مريحة ، بل قد يستطيع الروائى أن يخلق منها قصة . فهذا طفل ضعيف البنية مرهف الشعور دقيق الحس وقاد

القريحة ، بل لقد بدأت مخايل النبوغ تظهر عليه ، هذا الطفل عاش مع أب فظ غليظ القلب ضيق الصدر لا يفهم نفسيته . ولم يكن هناك من يلطف من حدة هذا الأب وقسوته إلا أم عطوف كثيراً ما حنت على صغيرها لتحاول أن تزيل آثار وحشية جون آلن . غير أن القدر يتدخل مرة أخرى فلا يترك بو ينعم بهذا العطف والحنان طويلا ، فماتت الأم وما زال بو فى أشد الحاجة إلى أن تكون بجانبه . ولم يكد جون آلن يرث عماً له حتى بادر بإرسال بو إلى جامعة فرجينيا ، ولكن العلاقة توترت بين الأب وابنه بحيث اضطر بو إلى ترك أسرته غاضباً معلناً استقلاله . ومرت فترة من الزمن قبل أن يلتحق بمدرسة « وست بوينت » (الكلية الحربية) لا نعرف خلالها عن حياة بو إلا ما رواه لنا من أنه رحل إلى أوربا وانضم إلى الجيش اليونانى لمحاربة الأتراك . ويقص علينا بو مغامراته فى أوربا وما وقع له من حوادث فى فرنسا وسانت بيترزبورج .

وتدل سجلات المدرسة الحربية التى التحق بها بو على أنه كان تلميذاً مجداً . وقد كانت هذه الفترة التى قضاها بو فى المدرسة الحربية هى الفترة الوحيدة التى عاش فيها عيشة منتظمة . ولم تظهر عليه علامات التبرم من النظام العسكرى القاسى ، بل كان قانعاً به وراضياً عنه ، مما يدل دلالة واضحة على أن بو كان تواقا إلى العيشة المريحة . وكان موت مسز آلن فى هذه الفترة سبباً لرجوعه إلى اسرته واستئناف العلاقات ، حتى إن أباه وعده بالمساعدة المادية حين عرف أنه التحق بالمدرسة الحربية وأنه مجتهد فى الدراسة . غير أن جون آلن لم يف بوعده . ولا ندرى لذلك سبباً اللهم إلا أنه مخلوق شاذ لا يعتمد عليه . فيدفع هذا بو إلى الخمر كما دفعه الضعف الذى شعر به فى جامعة فرجينيا إلى القمار . وقيل عن بو إنه لم يكن يرى إلا وهو سكران بعد أن نفض أبوه يده منه وانه استدان حتى اضطر آخر الأمر إلى ترك المدرسة . وقد ألهمته الطبيعة الجميلة التى تحيط بهذه المدرسة إحدى قصصه ، وهى قصة « الحشرة الذهبية » . وكان بو يعتمد على أبيه فى وفاء ديونه فكان هذا سبباً فى اندفاعه فى هذا التيار . ومن ذلك الوقت إلى موت بو تسلط على مجرى حياته ثلاثة عوامل كان لها أبعد الأثر فى انتاجه الفنى . أما العامل الاول فهو الفقر ، دفعه الفقر ومرارته الأليمة إلى الدين ، وكلما استدان ازداد فقره وشعر بالرق والعبودية مما دفعه إلى السخط على العالم وما فيه . والعامل الثانى الذى لا يقل عن الأول قوة إن لم يفقه فى التأثير من الناحية الفنية هو الخمر ، بل المخدرات أحيانا ، وأثرهما القوى فيه . وأخيراً علاقته بعمته مسز « ماريا كليم » التى عاش معها بعد تركه وست بوينت . والذى لا شك فيه أن العاملين الأولين متداخلان ، فكلما اشتد فقر الشاعر ، هذا الفقر الذى كثيراً ما بلغ أقصى حدود الحرمان أحياناً ، رمى بنفسه بين أحضان الخمر لينسى أو يحاول أن ينسى آلام العالم وهمومه التى تكالبت عليه . غير أن اللذة التى كان يجنيها من وراء الشراب كانت وبالا عليه ، لأنها أضعفت بنيته كما أثارت حوله جواً من الانتقاد المر .

أما تأثير مسز كليم فى بو فقد كان عظيما ، فان العلاقة التى قامت بينهما تختلف أشد الاختلاف عما كانت عليه حياته فى أسرته ، إذ نشأ بينهما رباط عاطفى قوى ، حتى إنه لم يستطع أن يعيش بعيداً عنها بعد موت زوجه « فرجينيا كليم » ابنتها .

ولقد كان لهذا الجو الذى كان يعيش فيه بين أحضان الأم وابنتها وما غمرتاه به من عطف ومحبة أثره القوى فى إيقاظ الشعور بالتبعة ، مما جعله يخجل من ضعفه أشد الخجل .

ولم تكن المعونة التى كانت تتلقاها منه مسز كليم ذات قيمة مادية كبيرة ؛ إذ ظل النحس حليفه حتى فى أشد أوقات الضيق والمرض ، أى مرض زوجته بالسل . غير أن آماله فى الكسب كانت واسعة ، وكثيراً ما كان يحدثها عن هذه الآمال وهى تصغى إليه وتشجعه بكل صبر وهدوء وعطف . وكثيرا ما أمضيا سهرات يقرأ لها شيئاً من كتاباته وهى تسمع لها مبدية إعجابها به وبمؤلفاته .

ولم يكن أحد من النقاد أو القراء حتى ذلك الوقت قد التفت إلى مؤلفات بو . وأخيراً أعلنت إحدى جرائد بلتيمور عن جائزة قدرها خمسون دولاراً لأحسن قصة ، وجائزة أخرى قدرها خمسة وعشرون دولاراً لأجمل قصيدة . فتقدم بو بمجموعة من القصص القصيرة ؛ اختار المحكمون واحدة من بينها هى « مخطوط وجد فى زجاجة » ومنحت هذه القصة الجائزة الأولى مع الاعجاب الشديد ، بل أوصى المحكمون بنشر هذه المجموعة لأنها « تمتاز بخيال فطرى قوى شعرى ، كما تمتاز بأسلوب قوى وتفكير خصب مبتكر ، وعلم متنوع عجيب » .

ومع أنه لم يظفر بنجاح مادى من وراء هذه التوصية ، كان هذا الحكم بداية جديدة لحياة بو الفنية ؛ إذ ساعده أحد المحكمين فقدمه إلى أحد أصحاب الصحف . وهنا بدأ حياة صحفية عظيمة الشأن بعيدة الأثر ، ولأول مرة أصبح له راتب ثابت . ولا شك أن بو كان صحفياً بارعاً ممتلئاً نشاطاً وحيوية . فما من صحيفة تولى رئاسة تحريرها إلا تضاعف عدد القراء من خمسة أضعاف إلى عشرة أضعاف .

وكان بو يأمل أن يمتلك مجلة يسميها « القلم » فيصل بها إلى الارستقراطية الوحيدة التى اعترف بها وهى أرستقراطية العقل . واعتقد أن تحقق هذا الأمل سيجعله من أهم الرجال لا فى أمريكا فحسب بل فى العالم أيضاً . غير أن إخراج فكرة كهذه على النحو الذى أراده لها بو كان سابقاً لأوانه . فلم يكن الجمهور الأمريكى مستعداً لقبول مثل هذه الأفكار الجديدة مع أنه تقبل التجديد الذى استحدثه بو فى الصحف بقبول حسن . وقد حاول بو عدة مرات أن يكون شريكا لأصحاب الصحف التى اشتغل فيها ، غير أن الخمر كانت السبب الأساسى فى رفضهم مثل هذه الشركة . وكما كانت الخمر سبباً فى إفساد حياته الفنية وحياته الخاصة فقد كانت السبب المباشر فى وفاته ، إذ أسرف فى الشرب فى دعوة انتخابية للبرلمان الأمريكى حتى مات . واستمر بو يعمل صحفياً حتى موته دون أن يحقق أمله فى الحياة . وليس من شك فى أنه لو كان جون آلن قد عطف على هذا المخلوق الضعيف ذى الحس الدقيق لتغير مجرى حياة بو ولما اختار الأدب سبيلا إلى تحقيق آماله .

كانت حياة بو الفنية مضطربة ، وتدلنا آثاره على ذلك ، كما كانت حياته الخاصة . فبينما نجده يسمو ويرتفع فى إحدى قصصه حتى يبلغ ذروة الكمال دون أن يستطيع الناقد أن يأخذ عليه خطأ فنياً ، إذ نراه فى أخرى مشتت الذهن ، مضطرب الفكر يكاد يهذى . ولا يعلل هذا الاضطراب إلا بتأثير الخمر الشديد فيه بل تأثير المخدرات أحياناً . فقصة « قناع الموت الأحمر » . قصة ممتازة لا أثر للخطأ فيها من الناحية الفنية ؛ وهى تدل على مهارة صانعها ومقدرته كما تمتاز بطرافة الفكرة التى تقوم عليها .

ويقال عن بو فى هذا الميدان إنه مخترع القصة القصيرة ، وإنه أول من حمل لواءها . والحقيقة التى لا جدال فيها أنه لو لم يكن بو ، ما كانت المجلات على شكلها الحالى . والحق أن القصة البوليسية بدأت فى التوراة كما تذكرنا بذلك دوروثى سايرز . وقد اكتشف بو

القصة المفزعة عند الألمان . وتاريخ القصة العلمية التحليلية يعود إلى سيرانو دى برجراك ، أو إلى لوشيان ، غير أن بو قام بعمل عظيم وخطوة واسعة ، لأنه قرب كل هذه الأنواع المختلفة من القصص إلى الجمهور وحببه لها ، كما وصل بها إلى درجة الكمال . أما من الناحية الفنية فقد اخترع طريقة فعالة مؤثرة لرواية القصة فى قليل من الكلمات يتراوح بين ثلاثة آلاف وخمسة آلاف كلمة . وكان بو أول من أدرك أن على القاص أن يرمى إلى هدف معين ، وأن كل ما يقال فى هذا المجال يجب أن يكون له علاقة بهذا الهدف ، حتى يستطيع القارئ أن يرى كل الحوادث مجتمعة كالبرق الخاطف ، فمن الأسطر الأولى لقصة « سقوط آل اشر » يشعر القارئ بالجو القابض الذى تخلقه الكلمات ، كما يتوقع الأحداث الفاجعة التى تدور عليها القصة . ولا يمكننا أن نتصور طريقة أخرى أروع ولا أجمل من تلك التى كتب بها قصتا « الهوة والبندول » و « مخطوط وجد فى زجاجة » .

ولقد كان تأثير بو فى القصة البوليسية عظيما . ومن العسير أن ترى فنا من فنون القصة له من الاتباع ما لفن بو ، فقد احتذاه عدد عظيم من الفنانين أمثال جابريو وكونان دويل الخ ، أولئك الذين ساعدوا على تطور القصة ونموها . وقد اعترف كونان دويل صراحة بفضل بو عليه ، كما أن التراجم الفرنسية لقصصه حركت الفن وألهبته عند جابريو . وكان بو واضع أقوى تقليد فى هذا النوع من القصص ، وهو وجود شخصية أخرى إلى جانب البوليس السرى تتأثر وتدهش وترتبك من حوادث القصة حتى يكشف لها البوليس عن الحقيقة . وإليه أيضاً يعود الفضل فى بدء القصة بحادث تام فى ذاته يظهر قوة إدراك البوليس السرى للأمور حتى يهيأ القارئ للمعجزات التى ستتابع فى القصة نفسها . ففى « جريمة فى شارع مورج » نرى دوبان ، رجل البوليس السرى ، يرد على أفكار صديقه التى لم يكن قد حدثه عنها شيئاً ، ثم يفسر له دوبان بعد ذلك الطريق الذى اتبعه فى رده على تأملاته . وهذا يظهر عبقرية بو الطبيعية من ناحية بنيان القصة القصيرة . وهكذا ساهم بو بأهم نصيب فى هذا الفن من تسلية القارئ مع مساهمته فى ميادين أخرى للقصة . ويجب أن نقف قليلا عند القصة البوليسية من ناحية أنها مظهر من مظاهر عقلية بو وطبيعته ، فهى تمثل على شكل قوى رغبته الملتهبة فى إظهار تفوقه على الآخرين . وكثيراً ما قال فى كتاباته إنه يستطيع أن يحل أى رسالة مبنية على ألغاز حرفية تكون مكتوبة باللغة الفرنسية أو الايطالية أو الاسبانية أو الألمانية أو اللاتينية أو اليونانية أو أى لهجة من لهجات هذه اللغات . وقد اختبره أحد القراء فأظهر براعة فائقة بالرغم من أن الطريق الذى سلكه يبدو الآن بسيطا ، ولكنه يدل دلالة واضحة على إعجابه بقوة ذكائه ومقدرته .

وقصة « وليم ويلسون » قصة رمزية . وهذا ميدان جديد فى القصص طمح إليه بو . وكان يأمل أن يوفيه حقه . ولا شك أن الفكرة التى دارت حولها القصة كانت نواة لأسكار ويلد عند ما كتب « صورة دوريان جراى » . غير أن بو فى وليم ويلسون تكلم عن شخصية مزدوجة ، لا صورة ، ينشب بينهما صراع عنيف ينتهى بقتل الشخصية الشريرة ، ولكن بعد تحطيم حياة بطل القصة . وفى هذه القصة بعض الحقائق الواقعية ، إذ أن النقاد وجدوا صلة بين حياة وليم ويلسون المدرسية وبين ذكريات بو عن هذه الفترة ، وتعبر هذه القصة جميعها عما كان يشعر به بو . حقا أنه لم يرتكب جريمة كما لم يقم بأفعال مزرية كما فعل وليم ويلسون ، ولكنه أتلف قواه ومقدرته على العمل ، وباستسلامه لأهوائه خيب آمال الذين كانوا يعتمدون

عليه ، فرأى خطاياه بصورة مجسمة وشعر بندم عظيم وألم عبر عنه بكل قوة وجمال .
ولا نجد فى قصص بو خيالا أخصب مما نجد فى « سقوط آل أشر » . فالقصة هنا صورة لما كان يعانيه بو من آلام أزعجته . وما الصورة التى تصورها لنا هذه القصة إلا مرآة لروحه . وهنا نجد خلاصة لأقصى مساهمة ساهم بها بو فى الأدب العالمى . والقصة عنوان للضعف ، غير أنه من إغراق النفس فى الضعف إلى هذا الحد استمدت قوتها وروحها . ولا شك أن روح بو تجلت فيها على أكمل وجه مما حببها إلى المعجبين بها من غير الأمريكان . فلهذا ولقوتها ولإسرافه فى الوصف المبدع وطريقة عرضه للأمور ، تعد هذه القصة القصيرة من أسمى وأعظم ما كتب .

لم يكن بو قاصاً من الطراز الأول وشاعراً وناقداً فحسب ، بل كان كذلك حلقة اتصال أساسى للتطور العقلى ، كما أنه يعد رمزاً أو ، على وجه أصح ، مصدر إلهام للحركة الروحية التى قامت بعد موته واستمرت زهاء نصف قرن . ولا شك أن منزلة بو فى الأدب الأمريكى لا ينافسها فى هذا الميدان إلا والت ويتمان الشاعر .

ترجمت مدام اليزابث مونيه بعض قصص بو . ومن هنا بدأت الحركة الرمزية التى يعد بو منشئها : إذ أنه وجد فى بودلير تلميذاً متحمساً قصر حياته على نشر حكمة أستاذه وتعاليمه . ويستطيع مؤرخو الأدب الرجوع ببداءة الحركة الرمزية إلى ذلك الوقت . ومع أن عناصر هذه الحركة وجدت أثناء الحركة الرومانتيكية ، لوجودها عند كولردج مثلا ، فانها لم تتقو وتظهر إلا على يدى مبدعها بو وتلميذيه بودلير وڤيرلين ، وقد كانا سبباً فى نشرها فى داخل فرنسا وخارجها . ولم تكن الحركة الجديدة إلا رد فعل لكل أحداث ذلك العصر ؛ فهى ثورة على الثمرات التى جنيت بفضل الثورة الفرنسية ، وهى ثورة على الثورة الصناعية وعلى العلوم وما أشبه . وترمى الحركة الرمزية إلى تحريك العاطفة والشعور عن طريق الاشارة . وتأثير بو فى ڤرلين فى « فنون الشعر » Art Poétique واضح . ولم يكتف ڤيرلين بمحاولة اقتفاء آثار بو الأدبية ، بل حاول تقليده فى طرق معيشته وفى استسلامه لأهوائه وإشباع رغباته . وقد أينعت مجهودات بو وآتت ثمارها بعد موته بفضل تلامذته العظام ڤرلين وبودلير ، فاندفع الكتاب الأوربيون وراءهم فى هذا التيار الجديد . ونجد مالارميه فى « حلم لذيذ » rêve caressant يترجم أشعار بو ترجمة جميلة . وكانت عناية بو باللفظ وبالناحية الفنية وقوداً ألهبت الكتاب من بعده ، حتى إن عناية رمبو باللفظ فاقت عناية واضع هذا التقليد . وضمت الحركة إليها ماترلنك فى بلجيكا وغيره آخرين فى البلدان الأوروبية . وأخيراً يعد ميتس الشاعر الايرلندى ، وهو أعظم شعراء عصره ، وريث بو الوحيد .

وعلى هذا النحو تتجلى عظمة بو وتلامذته ؛ فهم قوم استسلموا لأهوائهم وأشبعوا رغباتهم ، فانغمسوا فى الشراب والملذات ، وحاربوا وتألموا ، ولكنهم أخرجوا إلى العالم جمالا جديداً رآه فى حياتهم ومؤلفاتهم . ولا شك أن فى آثار بو لطريق من طرق الجمال ما جعله أحد هؤلاء القلائل الذين يؤدون أجل الخدمات للأدب والانسانية .

راجية فهمى

شهريات

شهرية السياسة الدولية

لعل أهم أحداث السياسة العالمية أن كل شيء فيها لايزال معلقاً على رغم ماكان من اجتماع هيئة الأمم المتحدة وانتخاب مجلس الامن واجتماعه وإثارة كثير من المشكلات أمام الهيئتين. فلم يتخذ قرارقاطع في مشكلة من المشكلات التي أثيرت ، ولم يكن من الممكن أن يتخذ قرارقاطع ؛ لأن طبيعة السياسة الدولية لم تتغير بعد ، وليس من اليسير أن يتنبأ أحد بالوقت الذي يمكن أن تتغير فيه . وطبيعة السياسة الدولية هذه تقتضي أن تحل المشكلات العالمية بالاتفاق والتراضي أو بالقوة والعنف . والدول التي يمكن أن تتفق وتتراضى أو أن تختصم وتحترب لم تصل بعد إلى أن تقارب بين آرائها ومذاهبها ، وهي ليست مستعدة للحرب ولا راغبة فيها ، بل هي تبغضها أشد البغض وتنفر منها الآن أشد النفور ؛ لأنها لم تخلص بعد ولا ينتظر أن تخلص قبل وقت طويل من أعبائها الثقيلة وإثمها البغيض .

والمشكلات التي كان العالم يظن أنها ستحل في أثر انتهاء الحرب نوعان : أحدهما يتصل بالصلح بين المنتصرين والمنهزمين ، ولم يكن من شأن هيئة الأمم المتحدة ولا مجلس الامن أن يقضيا فيه ، وإنما أمره إلى مؤتمرات الصلح . وقد اجتمع مجلس وزراء الخارجية للدول الخمس الكبرى في الخريف الماضي محاولا أن يمهد لبعض هذه المؤتمرات فلم يصنع شيئاً ، لأن أعضاءه لم يتفقوا . واجتمع ممثلو الدول الكبرى الثلاث في موسكو ليضيقوا مسافة الخلاف ويصلوا ما انقطع من أسباب الخلاف ، وقرروا أن يعقد أول مؤتمر من مؤتمرات الصلح في شهر مايو المقبل بباريس ، وأن يستأنف التمهيد لهذا المؤتمر .

وأهم ما سيعنى به هذا المؤتمر إمضاء الصلح مع إيطاليا . وسنرى أيتفق المنتصرون على شروط هذا الصلح أم يختلفون . فهناك مشكلة المستعمرات الايطالية أترد إلى إيطاليا أم توضع تحت الوصاية . فاذا كانت الثانية فلمن تكون هذه الوصاية ؟ الدولة بعينها أم للجنة التي تمثل هيئة الأمم المتحدة أم لجامعة الأمم العربية بالقياس إلى بعضها دون بعضها الآخر . وإذا وضعت تحت وصاية دولة بعينها فما عسى أن تكون هذه الدولة بالقياس إلى هذه المستعمرة أو تلك ؟ فالناس يعرفون أن مصر مثلا تريد الاستقلال للوبية ، فاذا لم يكن من الوصاية بد فهي لا تكره أن يعهد إليها بهذه الوصاية . والناس يعلمون أن روسيا تريد أن تكون وصية على طرابلس . على أن هناك مشكلات أخرى أوربية تتصل بايطاليا ، أهمها ما بينها وبين يوجسلافيا من خلاف على بعض الأقاليم . وكانت روسيا تؤيد يوجسلافيا ، ولكنها تحولت فجأة عن موقفها ذاك وأخذت تداعب إيطاليا . وجعل بعض الساسة الانجليز يشفقون من عواقب هذه المداعبة الطارئة . فكل ما يتصل بالصلح معلق إذن إلى شهر مايو على أقل تقدير .

أما النوع الثاني من المشكلات فهو الذي يتصل ببعض الأمم المحررة والدول التي أعانت

الحلفاء على الحرب أو شاركتهم فى احتمال أثقالها . وقد أثير بعض هـذه المشكلات أمام مجلس الأمن ، ولـكن مجلس الأمن لم يقض فيها بشىء ، ولم يكن يستطيع أن يقضى فيها بشىء حاسم دون أن يقضى على نفسه ؛ ولذلك آثر العافية وطلب إلى المختصين أن يحلوا مشكلاتهم بالمفاوضات . فهناك مفاوضات بين روسيا وإيران ، ومفاوضات بين سوريا ولبنان من ناحية وبريطانيا العظمى وفرنسا من ناحية أخرى ، ومفاوضات بين هولندا والأندينوسيين . وقد تركت مسألة اليونان معلقة ، وأشيع أن هناك مفاوضات خفية تجرى بشأنها بين بريطانيا العظمى وروسيا وإن كان الانجليز ينفون هذه الاشاعات . وقد احتاطت تركيا فلم تعرض شؤونها على مجلس الأمن وإنما وقفت قوية تستعد للطوارئ . أما مصر فقد أعلن وزير خارجيتها أن شؤونها لن تعرض على مجلس الأمن ثقة منه بحسن نية البريطانيين ، بل يقال إنه أعلن أن مجلس الأمن ليس مختصاً بالنظر فى شؤون مصر . وقد خالفته الحكومة التى كان يتضامن معها فى ذلك ، فأعلن رئيسها فى البرلمان أن الحكومة المصرية ترى من حقها الالتجاء إلى مجلس الأمن إذا اقتضت الظروف ذلك . على أن المسألة المصرية قد أثيرت بين الحكومتين المصرية والبريطانية ، فأرست الأولى إلى الثانية مذكرة رقيقة رفيقة تطلب فيها تحديد موعد للمفاوضات ، وردت الثانية بمذكرة رقيقة رفيقة أيضاً تقبل فيها مبدأ المفاوضات بعد محادثات تمهيدية تجرى فى مصر مع السفير البريطانى .

وفى المذكرة المصرية مبالغة فى الرفق ، وفى المذكرة البريطانية مبالغة فى الالتواء . ولذلك ثار الرأى العام المصرى وحدثت اضطرابات نشأت عنها استقالة وزارة وقيام وزارة أخرى .

فكل شىء فى العالم معلق إذن ينتظر أن يتفق المختصون ، والمختصون هم الذين يمثلون الدول الثلاث الكبرى . فهل يتاح لهم أن يتفقوا ؟ وعلى أى أساس يمكن أن يتم هذا الاتفاق ؟

هذا هو السؤال الذى لا يستطيع أحد أن يجيب عنه وإنما الأيام وحدها هى التى ستجلو وجه الحق فيه .

ط

شهرية المسرح

صراع الحب والموت تأليف رومان رولان[1]

كتب المؤلف الفرنسى الشهير رومان رولان سلسلة من المسرحيات عن الثورة الفرنسية منها تلك المسرحية التى قدمتها إلينا فى الشهر الماضى فرقة التمثيل الفرنسية . وهى مسرحية تصور لنا حالة الشعب أبان الثورة وحالة الفرد أيضاً فى تلك الفترة المضطربة من تاريخ فرنسا . وكان الحوار يدور حول الشخصيات الكبرى التى لعبت دوراً مهماً أثناء عصر الثورة ومنهم روبسبيير ودنتون أو حول الجمعيات التى تكونت وتنشد . وكان حظ الحوادث فى المسرحية ضئيلا . فهى مناقشات متواصلة بين أشخاص الرواية عن حالة الشعب النفسية أو المادية وحكم

(١) Romain Rolland, *Le Jeu de l'Amour et de la Mort.*

هؤلاء الأشخاص على الثورة نفسها أو على من تولى قيادتها من كبار الساسة الفرنسيين .
والمسرحية كما قدمها لنا المؤلف لا تصلح مطلقاً للتمثيل لأن أهم عنصر فيها هو الحوار والمناقشات بين أشخاصها . ولو أنه لم يدخل عليها قصة ذلك الرجل الذى ضحى بحياته لينقذ من أحبته امرأته لاخفقت تماماً فى المسرح . ولو أن المؤلف قدم إلينا أفكاره وخواطره التى يعرضها علينا فى « صراع الحب والموت » فى صورة قصة أو بحث لكان ذلك أقوى وأصلح .

اما التمثيل ، فقد أخفق بالطبع ولم ينجح فى إبراز بعض الشخصيات إلا قليل من الممثلين فمدام ميشيل برجيه مثلا لم تحفظ دورها ، بل لم تحاول أن تخفى هذا على النظارة . كان واضحا تماما فى ايماءاتها أنها تطلب إلى الملقن أن يفتح عليها بما نسيته أو أهملت استذكاره وترتب على كل هذا أنها لم تمثل إنما تلت علينا دورها كما يتلو التلميذ أمام معلمه ما حفظ من الدروس .

ولم تكن مدام إيفلين قولنى خيرا من مدام برجيه فى تمثيلها مع أن عهدنا بها ممثلة قديرة حقا . كانت تتلو هى الأخرى دورها دون أن تظهر لنا أنها تحيي على المسرح الشخصية التى تمثلها .

أما مسيو جان هرقيه فلم يغير من أسلوبه التمثيلى شيئاً ما ، بل هو استمر فى المحافظة على إيماءاته المعهودة ، وحركاته المتصلة وتعبيراته العنيفة المضحكة .

ولم يحسن حقاً فى أداء دوره إلا مسيو جان ڤالكور ، وكان يمثل شخصية رجل هرب من المقصلة إلى الريف ، ولكن اضطره حبه لامرأة باريسية إلى العودة إلى باريس ليراها مرة أخيرة قبل أن يموت . كان يعبر بحركاته وتقاطيع وجهه ونبرات صوته عما يجول فى فؤاده من غرام لعشيقته وبغضه للساسة الذين كانوا يحكمون فرنسا واحتقاره لتلك الشرذمة من الجهلة التى أرادت قتله .

ولم يجود ڤالكور وحده . بل لقد أثبت مسيو روبير أوبرى هو أيضاً أنه ممثل قدير ، إذ أنه أخرج لنا شخصية كارنو بلا تصنع ولا تكلف ، والتزم طول المشهد الذى ظهر فيه الهدوء التام فى تعبيراته وحركاته . فبدى طبيعياً للغاية .

هدوء السر تأليف كورتلين (١)

وانتهت الحفلة التمثيلية بمسرحية ذات فصل واحد تأليف كورتلين الكاتب المسرحى المعروف . وهى مسرحية «هدوء السر» لا داعى لتلخيص موضوعها لأنها شهيرة جداً ، وقد مثلت مراراً فى القاهرة خلال سنوات الحرب . ونحا مسيو جان ڤالكور نحواً فريداً فى تمثيل دور الزوج فأخرجه لنا إخراجاً بديعاً نال كل الاعجاب والتقدير الخليق به .

أما مدام جيلبرت جوبير فلم تخرج لنا شخصية الزوجة كما رسمها المؤلف ، بل كانت فى تمثيلها كأنها تمثل دور فتاة صغيرة لا امرأة شابة متزوجة . وعلى كل حال فقد توصلت إلى اضحا كنا فى كثير من الاحيان ، وهذا دليل على أنها قد أحسنت فى الاداء .

(١) Courteline, *La Paix chez soi.*

ليلة أكتوبر من شعر الفريد دى موسيه(۱)

وليلة أكتوبر هى حوار شعرى بين الشاعر وآلهة الالهام قام بتمثيلها مسيو جان مارسان ومدام إيڤلين ڤولنى . وقد كان تمثيلهما رديئاً مملا أفقد كثيراً من روعة شعر موسيه وجماله . وقد كان واضحاً من حركات مسيو جان مارسان المتكلفة ان الذى قام باخراج هذه التمثيلية هو مسيوجان هرڤيه . وكانت مدام إيڤلين ڤولنى جامدة لم تحرك يداً ولاقدماً . أما إلقاؤها للشعر فكان شديد الرداءة . وقد بدت هذه القطعة الشعرية جد مملة .

انتيجون تأليف جان انوى(۲)

ليست هذه المسرحية مأساة سوفوكليس وإن كان المؤلف احتفظ فيها بالشخصيات نفسها والموضوع نفسه . فان الكاتب الشاب أدخل عليها عناصر جديدة مستحدثة كما أدخل تغييرات على الشخصيات نفسها . فكريون ليس هو الطاغى المستبد فى حكمه بل هو ملك رحيم لم يصدر حكمه على انتيجون لا لأنها خالفت أوامره بل لأنها أرادت هى أن تموت . لقد حاول كريون أن ينقذها من مخالب الموت ، ولكنها أبت إنقاذ نفسها مؤثرة الموت على الحياة . ولم نر على المسرح شخصية أوريديس امرأة كريون ولكن سمعنا عنها وعلمنا بوفاتها حينما علمت بما أصاب ابنها هيمون . ولم نر أيضاً تيريسياس الذى ينبىء كريون فى مأساة سوفوكليس بما سيحل عليه من مصائب . وكان الحوار فى المسرحية يدور حول أشياء لم تظهر إلا فى عصرنا هذا مثل السيجار والبار ولعب الميسر والقهوة الممزوجة باللبن وأشياء أخرى . وقد رأى بعض النظارة أن المؤلف لم يحسن فى ادخال هذه الأشياء فى المسرحية ، وهؤلاء هم أبناء الجيل القديم ، وأنصار المدرسةالقديمة ، فى حين قدأعجب الشبان أبناء جيلنا هذا بتلك العناصر المستحدثة واستساغوها وقدروا جرأة المؤلف على مزج القديم بالحديث فى المسرحية . ومهما وجه إلى هذه الآية الفنية الرائعة من نقد وما أخذت به من معايب ، فهذا كله لم يحل بينها وبين النجاح .

لم يكن التجديد فى المسرحية فحسب بل كان فى الاخراج أيضاً . فعندما رفع الستار كانت شخصيات المسرحية كلها موجودة على المسرح فى فناء بين قصر كريون والمدينة . وكان المنظر فى غاية البساطة : ستار من المخمل على هيئة نصف دائرة فى نهاية المسرح وأمامه درجتان أو ثلاث ، وعلى الجانبين مدخلان أحدهما مدخل القصر والآخر مدخل المدينة . وبينما كان الصمت يسود الحاضرين أخذ من يقوم مقام الجوقة يقدم لنا شخصيات المسرحية ويحللها وينبئنا بما سيحدث لكل منهم . ثم استخفوا جميعاً وابتدأت المأساة .

وقد قام بدور الجوقة مسيو جان هرڤيه . ومع أن هذه الشخصية من الشخصيات الجادة لقد أباح مسيو جان هرڤيه لنفسه أن يحولها إلى شخصية هازلة كثيراً ما أثارت ضحك جمهور

---

(۱) Alfred de Musset, *La Nuit d'Octobre.*

(۲) Jean Anouilh, *Antigone.*

ليس له دراية بهذا النوع من المسرحيات . وحسبنا أن نقول إنه أفسد من ملامح الشخصية كما رسمها المؤلف .

وأخرج لنا مسيو جان فالكور شخصية كريون ملك ثيبه . وقد أجاد وأحسن فى تمثيله هذا الدور كما عهدنا فيه حسن الاداء وعدم التكلف فى التعبير والحركة .

وقامت بدور أنتيجون مدام برناديت لونج . ولولا أنها خالفت بين تمثيلها فلم تؤد دورها على وتيرة واحدة وغيرت من نبرات صوتها وعنف تعبيراتها فى بعض المواقف ، لقلنا إنها أجادت كل الاجادة فى هذا الدور .

وقد راقنا أيضاً تمثيل مدام جيلبرت چنسان فى دور مربية أنتيجون إذ أخرجت هذه الشخصية بما فيها من سذاجة وحنان وعطف على الأميرة الاغريقية التعسة .

وفى القصة عنصر هزلى ساهم فى نجاحها ، وهو دور رئيس الحرس . فقد أعجبنا حقاً بأسلوب مسيو دوبير أوبرى الذى قام بتمثيله .

ومع كل ما أخذ به المؤلف من منهجه الحديث فى هذه المأساة القديمة ومع كل المعايب التى نأخذ بها الممثلين فليس لنا بد من أن نعترف بأن مسرحية انتيجون كانت أجمل مسرحية قدمت إلينا فى الموسم التمثيلى الفرنسى .

بريتانيكوس تأليف جان راسين (١)

واختتمت الفرقة الفرنسية موسمها التمثيلى بمأساة بريتانيكوس . وهى المأساة الثانية التى قدمتها إلينا الفرقة . ولم يكن حظها أحسن من الأولى ، فقد كان الاخراج والتمثيل جد رديئين .

تجرى حوادث المسرحية فى قصر نيرون . ففى الفصل الأول نعلم من حديث يدور بين أجريبين ورفيقتها ألبين أن نيرون قد أبعد أمه عن شئون الحكم مع أنه لم يول إمبراطورا إلا بفضل جرائمها . ولم تكن أجريبين راضية عن سياسة نيرون : فلقد اختطف چونى عشيقة بريتانيكوس وأنه ولابد شارع فى تدبير مؤامرة أخرى . وما تكاد تجرى مشاهد الفصل الثانى حتى نعرف أن نيرون يهيم حبا بچونى وأنه يفكر فى طلاق امرأته اكتاڤى ويشجعه على هذا نارسيس العتيق الذى كان مكلفاً مراقبة بريتانيكوس . ويضطر الامبراطور محبوبته چونى إلى أن تظهر الجفاء لعشيقها . ولكنها فى الفصل الثالث تعلن لبريتانيكوس أن هذا الجفاء كان مصطنعاً لأن الامبراطور كان قد أمرها بذلك . وبينا هما يتبادلان عبارات الحب يحضر نيرون وقد أنبأه نارسيس بالتقاء العاشقين ، فيأمر بالقبض على غريمه وعلى والدته أجريبين . وتستطيع أجريبين فى الفصل الرابع أن تقابل ابنها نيرون فتذكره بالدسائس والجرائم التى اقترفتها من أجله . فاتهمها بأنها ذات مطامع ولامهالأنها كانت تريد أن تنصب بريتانيكوس إمبراطوراً مكانه . ولكن أجريبين أدلت بما يسوغ سلوكها فاقتنع نيرون ببراءتها وعفا عن بريتانيكوس وأعرض عن حبه لچونى . لم يكن هذا الصلح إلا خدعة فقد كان موت بريتانيكوس محتوماً . وقد ثبت نيرون على عزمه هذا مستشاره نارسيس . ويحدث فى الفصل الأخير أن يدعو نيرون غريمه إلى وليمة ويدس له السم . ولما داع

(١) Racine, *Britannicus*.

خبر وفاة بريتانيكوس صبت أجريبين اللعنات على ابنها القاتل وذهبت جونى إلى معبد فيستا لتصبح كاهنة فى هذا المعبد على حين يغرق نيرون فى يأس شديد.

ومامن شك فى ان الاهمال فى الاخراج كان من أهم عوامل إخفاق المسرحية. فكانت تتوالى المشاهد بسرعة لاحياة فيها ولاحركة. وكان أكثر الممثلين يتلون مقطوعاتهم وهم جامدون فى أماكنهم. وبذلك جاء العرض مملا ثقيلا. هذا مع أن الفرقة قد وقفت فى اختيار منظر لاتكلف فيه: استار من المخمل ترى من خلالها سماء صافية الزرقة رائعة الجمال.

وما كنا لنذكر الاهمال فى الاخراج لو أن الممثلين أجادوا تمثيلهم. ولكن هل يمكن أن تنجح مسرحية ما ومسيو چان هرفيه يضطلع فيها بالدور الرئيسى؟ فهذا الممثل لا يبالى بجمهوره ويثقل ما لهذا الجمهور من حقوق عليه. فمن الواضح أن مسيو چان هرفيه فقد الضمير المهنى لأنه مثل شخصية نيرون تمثيلا مزريا تناسى فيه أنه يقدم مأساة كلاسيكية فرنسية وتناسى فيه أيضاً ما يلزم لمسرح راسين من رقة فى التعبير والحركات. وقولنا إنه مثل شخصية نيرون اجتراء إذ لم يمثل إلا شخصية مهرج.

ولم تكن مدام سوزان دلڤيه أحسن منه تمثيلا. فقد كان أداؤها لشخصية أجريبين شنيعا وكان اداؤها لشعر راسين أشد منه سوءا.

وما كنا لنتصور أن يعهد إلى مدام ميشيل برچيه بالتمثيل فى مأساة ما دام يوجد فى الفرقة ممثلة بارعة مثل مدام برناديت لونج. ومن الأفضل أن تدخر مدام برچيه مواهبها الضئيلة للڤودڤيل أو الكوميديا الخفيفة. فهما تبذل من جهود فى الدراما أو فى المأساة — هذا إذا افترضنا أنها تأتى بمجهود ما فى تمثيلها — فانها تبدو لنا ممثلة قليلة الغناء.

ولم توفق الفرقة فى إسناد دور بريتانيكوس إلى مسيو چان مارسان بعد أن اتضح أن فنه الأصيل هو الكوميديا.

وأخفق مسيو جوتييه — سيلا فى شخصية بوروس مؤدب نيرون. جاء تمثيله وحركاته فى فصول المسرحية الخامسة على وتيرة واحدة.

ولم ينجح حقاً فى هذه المأساة إلا مسيو چان فالكور وكان يمثل شخصية نارسيس المتملق إذ قام بهذا الدور خير قيام مشعراً إيانا بما يجرى فى فؤاده من مكر تستره طيبة قلب كاذبة ودهاء يخفيه ادعاء إيثار الغير.

ومع أننا نقدر استئناف الممثلين الفرنسيين حضورهم إلى مصر وتمثيلهم بها، ونقدر ما لذلك من قيمة ثقافية وما فيه من ترفيه على النظارة من أهل مصر بعرض آيات الفن الفرنسى علينا فليس لنا بد من أن نتمنى على الذين يختارون الممثلين فى الأعوام المقبلة أن يذكروا أن للنظارة فى مصر ذوقاً وحكماً وتمييزاً بين الجيد والردئ، وأن يصطنعوا الدقة فى اختيار الممثلين. فى ذلك النفع كل النفع لفرنسا ومصر جميعاً.

رشدى كامل

من كتب الشرق والغرب

قصة عشرين قرنا (١)

لقد نشر أخيراً فى بريطانيا كتاب عجيب هو من نسج الخيال، ولكنه ليس برواية قصصية. وسلسلة الحوادث التى يتألف منها الكتاب تمتد إلى ألفى سنة تمر على قسم خاص من بريطانيا.

وفى هذا المقال نريد أن نصف موضوع الكتاب وأسلوبه إذ ينتظر أن يكون نجاحه كبيرا.

نشر فى شهر فبراير كتاب هو من نسج الخيال ولكنه ليس برواية قصصية، بل هو فى الحقيقة سلسلة قصص تختلف كل منها عن الأخرى، ولكنها مرتبطة بعضها ببعض؛ لأنها حدثت فى مكان واحد من أقسام انجلترا على مر عصور تبلغ ألفى سنة. فالحوادث حدثت فى شمال لانكشير فى تلك البلاد الوعرة الموحشة التى تكتنف نهر لون. ففى تلك البلاد فتح المهندسون الرومانيون الطريق سنة ٨٥ بعد الميلاد ليربطوا حصون ديفا ومانكونيوم بقواعد أجريكولا والمستودعات الحربية فى أطراف كاليدونيا. ويبدأ الدكتور ادوارد فرانكلاند مؤلف هذا الكتاب قصته برجل يعمل فى غابة تنحدر تدريجاً نحو نهر لون، وهنا يصف المنظر الذى تقع فيه الحوادث فى أثناء العصور المختلفة إلى سنة ١٩٣٧. فهو يكتب:

« كان طنين الذباب الغاضب فى الجو يختلط بالخرير الرقيق لمياه النهر. وفى داخل الوادى تسمع النقير المنتظم لوقع الفؤوس وصوت تكسر الأحجار والصخر، وبين حين وآخر دوى سقوط إحدى الأشجار. وكانت الشمس تميل نحو التلال الوعرة فى الغرب، وهى التى غطتها الغابات إلى القمة وكان الجو ثقيلا وعطنا بين أشجار البلوط القديمة يخالطها عبق زهور المراعى والأشجار المتكسرة ».

وقد أظهر المؤلف مهارة كبيرة فى اختيار منظر كتابه فى ذلك القسم من انجلترا الذى ظل محتفظاً بطابعه إلى اليوم؛ فشمال لنكشير لم يتغير كثيراً منذ عشرين قرنا، وهنالك سبب أقوى من مجرد اختيار بضعة أميال من الأرض تكون فى سنة ١٩٣٧ مماثلة لما كانت عليه فى سنة ٨٥ بعد الميلاد.

(١) *The Story of Twenty Centuries*, by Frank Tilsley.

ذلك أن المؤلف أراد أن يبرهن أن الناس فى وجوه كثيرة متشابهون فى هذه الفترة الطويلة من التاريخ ، وأن جذورهم واحدة وإن بعدوا فى الزمن والعادات والبيئة والأخلاق ، وأن بعض الصفات والنزعات استمرت قائمة بحكم عناد الخلق الانجليزى ، وأنها قوية الآن بل هى أقوى مما كانت من قبل ، ولم يكن مجرد مصادفة أن سمى هذا الكتاب « انجلترا فى النمو »(١) .

كان الدكتور فرانكلاند حكيما جداً فى أنه لم يعمل على التأثير فى قرائه ؛ فقد كان من السهل عليه أن يخلق أشخاصاً متشابهين فى الظاهر من جيل إلى جيل ، ولكن دكتور فرانكلاند يعمل ما هو أهم من هذا كثيراً ، فهو ينصرف إلى بيان السبب الذى حمل هؤلاء الرجال والنساء على المسلك الذى سلكوه ، وهو يبحث عن هذه الأسباب فى الأرض التى عاشوا وعملوا فيها وفى تاريخ الأزمان التى كونتهم والتى كونوها هم بدورهم .

ووصفه فى كتاباته للمناظر الريفية قوى وبعيد عن العاطفة وخال من التصنع ، فهو لا يكتب إلا لغرض :

> « كان ذلك فى مساء أحد أيام الخريف فى سنة ٥١٥ . وظهرت التلال المجللة بالنابات على جانب الوادى كأنها بساط من البلوط النحاسى اللون والزان الأصفر وشجر الروان الأحمر . وقد نما البلوط الصغير الآن حتى صار مارداً يغطى جوانب الوادى . وربما كان هذا علامة على تقلص المجهود الانسانى لا فى وادى نهر لون وحده بل فى ولاية بريطانيا الرومانية القديمة بأسرها . وكانت القرية لا تزال قائمة هنالك ، ولكن لم يبق منها إلا بضعة عشر من الأسقف المدببة ترتفع فوق الحائط الذى يكاد يغطيه اللبلاب والنباتات المتسلقة . وكان الطريق مرسوما بدقة وهو يمر بين الحشائش . وقد صار المستنقع مجرد أثر أخضر صغير تقلص أمام انحسار المياه » .

ونرى الطريق الرومانى القديم قائما على مر القرون ولو أنه صار فى أماكن منه مجرد ممر ، والقرية تنمو ثم تضمحل ويدمرها المغيرون ويحرقها الاسكتلنديون .

وفى القرن الرابع عشر يتعب صاحب الأرض من البيوت الخشبية التى احترقت خمس مرات فى مدى ذكرى البشر ، فيبنى قاعة متسعة ذات برج من الحجر ، وهذه تظل قائمة كجزء من دار صاحب الضيعة الذى تحدث له تغييرات كثيرة فى القرن الحالى . وبما أن الكثير من الحجارة التى بنى بها البرج هى من حجارة منازل قديمة فى القرن الاول فبذلك وجدت صلة تربط عصور الرومان والسكسون والدانمركيين والنورمان بعصور أسرة تيودور الماكرة وعصور الفرسان الشجعان والرجال الذين عاشوا فى أول حكم الملكة فكتوريا وفى القرن العشرين .

وتجد زوجة ناظر المدرسة مرتبطة إلى دار أجداده برباط عميق سرى هو نداء الدم ، وهذا الرباط يستعصى فهمه وتحليله حتى على المنطق العادى المجرد .

ورجال هذا الوادى هم خليط خشن ، فمنهم أسرة « أوتويت » التى بنت دار صاحب الضيعة الأول ، ومنهم المزارع بريت وهو رجل غليظ ولكنه يمثل روح ذلك الاستقلال العنيد

---

(١) *England Growing.*

والتحدى غير المعقول الذى يدفع بالرجل الانجليزى إلى سلاحه ، ومنهم فرانسيس أوثويت الذى قاتل أنصار كرومويل الحديديين فى سبيل الملك شارل ، ولم يكن ذلك عن اعتقاد بأنه يدافع عن جانب الحق بل لأنه لا يريد ان يرى الرجال يقاتلون فى معركة وهو واقف موقف المتفرج . وإننا لنجد متأصلة فى الخلق الانجليزى تلك الكراهية للسلامة على حين يبذل الآخرون دماءهم ، ولقد بذل فرانسيس أوثويت دمه فى هذا السبيل .

ولقد عرضت لوسى أوثويت نفسها للمنفى من أجل اليعقوبيين فى حين طورد زوجها وهو رجل شجاع من رجال أعالى أسكتلندة ، حتى لقى حتفه ، وذلك فى زمن كانت الحياة فيه فى الوادى مستقرة وأكثر رخاء من أى زمن سابق .

حتى إذا ما جاء دور مسز بنتام السيدة المهذبة التى عاشت فى لندن فى عصر ڤيكتوريا نجد أنها كرهت ذلك الموقع « فهنا فى الشمال نجد الطبقات الدنيا تتدخل بوقاحة فى حياة الانسان ، فأصواتهم العالية المتوحشة لا تنخفض فى حضرة السادة . والواقع أنهم يكادون يظهرون استقلالا ثورياً فى مسلكهم ويظهرون من الاحتقار أكثر من التطلع عند رؤيتهم أجانب تبدو عليهم مظاهر الرخاء » .

ولكننا نرى أن بيت أوثيت آخذ فى الاضمحلال وأنه صار مهجوراً، إلى أن تأخذ زوجة ناظر المدرسة فى القصة الأخيرة فى ترمه .

وليست إنجلترا فى القرن العشرين بالعصر الذهبى للدور الأثرية ، ولكن من المستحيل ان نقرأ كتاب الدكتور فرانكلاند من غير أن نصل إلى نتيجة هى أنه عصر مزدهر للرجال والنساء، إذ أن هنالك صفة أساسية فى جميع أشخاص هذا الكتاب يشتركون فيها من قرن إلى قرن ،وهى أن المحن تظهر فضائلهم ، وهى نوع من التحدى ترفع من نفوسهم وكأنهم يتقبلون جزءاً من مصيرهم .

فكتاب الدكتور فرانكلاند إذا كان يصف زمناً يمتد عشرين قرناً فانه كتاب هذا الزمن ، وأعتقد أنه سيكون محط الانظار فى هذا الشهر .

(مقال خاص للمجلة ترجمة ح. م.) **فرانك تاسلى**

الأدب الفرنسى فى عهد الاحتلال

عاشت فرنسا بأسرها أكثر من أربعة أعوام طوال ترسف فى القيود تحت نير الاحتلال . فمنذ شهر يونيو سنة ١٩٤٠ خيم صمت عميق على باريس مدينة اللهو الصاخب والعلم الزاخر والفكر الرفيع ، وأصبحت بين عشية وضحاها مدينة الأتراح بعد أن كانت موطن الأفراح . حط عليها صمت رهيب ثقيل وخفت صوتها ، وانقطعت كل صلة بينها وبين العالم الخارجى ، فلم يسمع عنها أولا إلا ذلك الأنين الحزين أنين شعرائها المنتحبين ، فعرف الناس أن الحياة لم تفارقها بعد وأن أنفاسها لا تزال تردد صيحة الحرية والأمل . ثم ارتفع ذلك الأنين الذى ظنه الغزاة حشرجة ، ارتفع رويداً رويداً حتى ملأ أجواز الفضاء وعم فرنسا كلها ، فأضحى صرخة تدوى فى السماء تصم الآذان وتهتف بزوال الذل وبشن حرب عوان على الخونة والغزاة الفاتحين .

أخذت فرنسا تفيق شيئاً فشيئاً من ذهول الصدمة الأولى وهول الكارثة التي حلت بها، فاجتمعت فئة من الكتاب الذين لم يذعنوا لسلطان القوة الناشئة ولا لأمر تكميم الأفواه، وأسسوا في الخفاء داراً للطباعة والنشر لاصدار الكتب وتوزيعها، للحض على المقاومة وبث الأمل في النفوس، ولحمل شعلة الفكر التي إن ذوى وهجها بخذوتها لا تنطفىء أبداً. تألفت تلك الجمعية من كتاب وشعراء عديدين مختلفي المشارب مؤتلفي المآرب ينتسبون لكل الأحزاب السياسية، ولكنهم يبتغون جميعاً الوصول إلى المقاصد القومية، فكان منهم الشيوعي مثل الشاعر آراجون، وكان منهم الكاثوليكي مثل الروائي فرانسوا مورياك طووا الجوانح على الحزازات القديمة ووحدوا كلمتهم على الخلاص من ربقة الاستعباد. أقاموا داراً للنشر سموها « دار منتصف الليل » *Les Editions de Minuit* وقد أرادوا بهذه التسمية أن تكون رمزاً لعملهم في الخفاء تحت ستار الليل ليل الاحتلال الحالك؛ وقد وطدوا العزم على تبديد ظلماته حتى يظهر نور الحق ساطعاً متألقاً في سماء الحرية.

قامت هذه الدار بأعمال جليلة تطلبت شجاعة نادرة ورباطة جأش فائقة واستخفافاً بالأخطار الداهمة؛ إذ كانت تطبع الكتب في الخفاء وتنشرها بين الناس في الخفاء بل توزعها عليهم أحياناً دورهم رغم مطاردة الجستابو لهم ورغم صرامة العقاب الذي يهددهم؛ إذ كان الاعدام جزاء من يقع منهم في قبضة العدو. وكم من دماء طاهرة أريقت! وكم من نفوس بريئة أزهقت في سبيل القيام بهذا العمل الجليل! وما فتئت هذه الدار تنشر روائع الأدب الخفي من شعر ونثر بين قصة وبحث وقصيدة حتى جاء يوم التحرير، فظهرت بين الناس مجللة الهام وضاءة الجبين فخوراً بما أسدته من تشجيع وقت الذل، وبما أحيته من آمال وقت اليأس، وبما قدمته من تحف أدبية أثناء ضياع القيم الروحية، فخوراً لتردد صدى صوتها أيام الصمت.

وأنا الآن أعرض على القارىء العربي صفحة من روائع ذلك الأدب الخفي كانت مطوية، وأحدثه عن كتاب صدر لأول مرة في باريس في ٢٠ فبراير سنة ١٩٤٢ كان له أثر عميق في نفوس الفرنسيين فهز مشاعرهم وأثار هممهم، وعمت شهرته فرنسا كلها بل تعدتها إلى العالم الخارجي، فنشر الكتاب في انجلترا باللغة الفرنسية أولا — وقد تسربت نسخة منه إليها أثناء الاحتلال — ثم نقل إلى الانجليزية فذاع صيته في العالم بأسره، وبادرت مجلة « لايف » الأمريكية بتقديمه إلى ملايين القراء الأمريكيين فأعجبوا به إعجاباً جماً.

أما عنوان هذا الكتاب فهو «صمت البحر» *Le Silence de la Mer* وأما مؤلفه فقد انتحل لنفسه اسم «فركور» Vercors وهو اسم مقاطعة فرنسية تسمى المؤلف باسمها إذ كان يقوم فيها بأعمال المقاومة السرية ضد الألمان. وغني عن القول أن جميع الكتاب الذين أسسوا دار « منتصف الليل » انتحلوا شتى الأسماء المستعارة لاخفاء شخصياتهم الحقيقية حتى لا يعرضوا أنفسهم للخطر.

وقد ظلت شخصية «فركور» سراً مكتوماً أثناء الاحتلال، ولم يهتد أحد من القراء إلى معرفة الرجل الذي يتستر تحت هذا الاسم المستعار، وقد ذهب الجمهور في سبيل التحقق منه مذاهب مختلفة، وظن أغلب الناس أنه لا بد كاتب معروف أو شاعر من الشعراء النابهين، مدللين على ذلك بطول باعه في الكتابة وجمال أسلوبه ورقة حسه. وقد خيبت الحقيقة هذا الاعتقاد فظهر أن « فركور » رسام لا كاتب، وأن كتابه « صمت البحر » أول عهده بالكتابة والتأليف؛ إذ لم يسبق له قبل الحرب أن خط حرفاً، فزاد هذا قراءه إعجاباً به.

ألف « فركور » قصته فى شهر أكتوبر من عام ١٩٤١ ، وهى قصة قصيرة إذ لا تزيد عن ستين صفحة يضمها كتيب صغير الحجم مفعم رقة وروعة .

أما هذه القصة فيرويها شيخ هرم يقطن مع ابنة أخيه الشابة منزلا بسيطاً فى إحدى المدن أو القرى الفرنسية قصد المؤلف عدم تعيينها ، فهى مدينة أو قرية تقع فى الريف ، وقد فرض عليه أن يضيف فى بيته المتواضع ضابطاً ألمانياً ؛ إذ كانت القيادة الألمانية تفرض النزلاء فرضاً على السكان الفرنسيين فى المدن الصغيرة التى لا يتوافر فيها مسكن مريح لرجالها .

جاءه ذات يوم ذلك الضابط الألمانى وأقام فى المنزل واستقر . كان « ورنرفون أبرناك » رجلا طويل القامة جميل الطلعة حسن الهندام . وقد اعتاد طوال مدة إقامته أن يقضى بعض الوقت فى المساء فى غرفة الاستقبال حيث كان يجلس الشيخ يدخن غليوناً وبجانبه ابنة أخيه تطرز ثوباً أو تقرأ كتاباً ، وكان « ورنرفون أبرناك » يظل واقفاً بقرب المدفأة يتحدث الليلة بعد الليلة حديثاً طويلا متنوعاً إلا أنه كان يتحدث دائماً وحده فلا يسمع إطلاقاً صدى لصوته كأنه يقوم بدور تمثيلى فى مسرح خلو من النظارة ؛ إذ لم يشاطره الحديث أحد ولم يلتفت إليه أحد ، كأن لم يكن ثمة متكلم . والاصغاء إليه عبء يتحمله الشيخ والشابة دون حراك أو همس ، وكل منهما منهمك إما فى التدخين وإما فى التطريز إلى أن ينقطع الضابط عن الكلام من تلقاء نفسه ، ويختمه بقوله « أتمنى لكما ليلة سعيدة » ثم يأوى إلى فراشه .

ظل « ورنرفون أبرناك » يسترسل فى الحديث العذب يوماً بعد يوم ، يتناول تارة حبه لبلده ومسقط رأسه يصف جماله ، وتارة إعجابه بفرنسا وشغفه بأدبها وأمله فى نهضتها من عثرتها ووئامها مع ألمانيا ، وتارة أخرى يتحدث عن الموسيقى وولعه بها ولوعاً حدا به إلى أن يؤلف قطعاً موسيقية . هذا والشيخ منصرف إلى التدخين والفتاة لا تعيره — أو بالأحرى تبدو كأنها لا تعيره — أى اهتمام ؛ إذ كانت منكبة على تطريزها مطأطئة الرأس لا ترفع بصرها . ويظل شبح الصمت حائماً فى الغرفة لا يبدده إلا صوت الألمانى وحده إلى أن تحين ساعة النوم فيقول عبارته المألوفة : « أتمنى لكما ليلة سعيدة » .

اعتاد الألمانى أن يتحدث كل ليلة كأنه يحدث نفسه دون أن يعتريه كلل أو ملل . وكان أثناء حديثه يرمق الشابة بنظرات عميقة بل ينشب نظراته فيها آملا أن تفوه بكلمة واحدة أو ترنو بطرفها إليه وهى هى لم يتغير موقفها كأنها تمثال جميل لا أثر للحياة فيه تتمسك بأهداب صمت مطبق رهيب يشبه ظلام غابة موحشة ، لا تنفرج شفتاها عن كلمة أو ابتسامة .

كان ورنر رجلا عذب الحديث حلو الشمائل رقيق الشعور مرهف الحس ، كان موسيقياً يتحدث عن باخ ويتهوفن حديثاً يدل على أن الموسيقى تملأ جوانبه وتهز مشاعره . كان يعتقد أن ألمانيا بعد أن هزمت فرنسا فى معركة شريفة سوف تمد لها يد الصداقة والمساعدة ، وأنها تنوى أن تعيش معها حياة هادئة مبنية على حسن الجوار ، كما كان يأمل أن تهذب فرنسا قليلا من غطرسة الألمان وتشذب غصونهم فتجعلهم يقلعون عن القسوة والعنف . وكان يعتقد بل يؤمن أن الحرب التى شنها هتلر فى أوربا يقصد بها خلق جو من الوئام والسلام بين القطرين المتجاورين ، فيكمل أحدهما الآخر وتتوثق أواصر الصداقة والحب المتبادل بينهما .

ثم حدث أن تغيب ورنر فون أبرناك بضعة أيام وسافر إلى باريس ، واستمرت حياة الشيخ والفتاة كما كانت ، إلا أن شعوراً غريباً غامضاً خالجهما أثناء غياب الضابط الألمانى ولم يصارح أحدهما الآخر بأنه يفكر فى الغائب ويشعر بشىء من الأسف والقلق لانقطاعه عنهما ، وكان

الفتاة كانت ترقب عودته بلهفة فى قرارة نفسها . وفى ذات يوم عاد الضيف وطفق يرمقها بنظرات ملؤها الأسى واللوعة والخيبة وهى منحنيــة الرأس تلف حول أصابعها خيوطاً من الصوف ثم قال بصوت عميق : « أريد أن أدلى بكلام خطير » فكفت الفتاة عن لف الخيوط ولأول مرة — نعم لأول مرة — رفعت رأسها وألقت على الضابط نظرات فاحصــة فألفته مضطرباً يحرك يديه حركات عصبية وتعلو وجهه أمارات الحزن وخيبة الأمل ، ثم فتح فاه وقال بصوت متهدج أجش : « إنى قابلت القوم المنتصرين فى باريس وتحدثت معهم فهزءوا بى وبددوا أوهامى وأفهمونى بعد أن أشبعونى سخرية وتهكماً أنهم يقصدون بهذه الحرب إخضاع فرنسا للأبد والقضاء على قوتها وروحها بل على روحها بنوع خاص ، إذ يرون الخطر كل الخطر فى بقاء روحها . أفهمونى أنهم ينوون خداعها بالوعود والابتسامات حتى تخضع لهم كما تخضع الكلبة الزاحفة . نعم قالوا هذا ، وقالوا إن مهمتنا الآن تنحصر فى تنفيذ هذه الخطة» ثم سكت الضابط منهوكا وقد تقلص وجهه وتنضنت أساريره وأخذ يحدق فى الفتاة بنظرات جامــدة واستطرد بصوت خافت : « لا أمل ، لا أمل » . ثم عاوده الصمت من جديد وأجال بصره على صفوف من الكتب المرصوصة على رفوف المكتبة — كتب راسين وروسو وبروست وبرجسون — وقال صارخا : « إنهم سوف يطفئون الجذوة نهائياً ولن يضيء أوروبا هذا النور » . ثم قص مقابلته لأخيه فى باريس وقد كان شاعراً رقيق الحس قبل الحرب فألفاه الآن رجلا قاسياً لا يعرف للرحمة معنى ، وقد قال له ضمن ما قال عن الشعوب المغلوبة عامة والفرنسيين خاصة : «إننا سوف نجعلهم يبيعون لنا روحهم مقابل طبق من العدس . إن واجبنا الآن أن نشيد لألف سنة مقبلة ، ولكن علينا أن نبدأ بالهدم» . ثم صرخ الضابط « إنه كفاح ، إنه كفاح جبار بين الجسد والروح » . ثم أطرق هنيهة وقال : « إنى طلبت من القيادة العليا نقلى إلى خطوط القتال الأمامية فى الميدان الشرق وغداً أسافر . . . إلى الجحيم » . فاصفر وجه الفتاة وامتقع لونهــا واضطربت شفتاها وتصبب جبينها عرقا . ثم فتح ورنر فون ابرناك الباب واستند على الحائط وقال بصوت لا نبرة فيه : « أتمنى لكما ليلة سعيدة » . ثم رد طرفه إلى الفتاة وظل يمعن فيهــا النظر طويلا وتمتم : « وداعا » وعيناه الجامدتان شاخصتان إلى الفتاة إلى أن حركت أخيراً شفتيها فلمع فى عينيه بريق غريب وسمعها تتمتم أيضاً « وداعا » ، فافتر ثغره عن ابتسامة حائرة وانصرف .

تلك قصة « فركور » ، وهى قصة رائعة لم يقصد من ورائها التهجم على الألمــان ورميهم جميعاً بالوحشية ، وإنما كشف فيها الستار عن شخصية شاب ألمانى رقيق الشعور صقلته الموسيقى فهذبت نفسه وملأت جوارحه عطفاً ونبلا ، وخدعته الدعاية المغرضة . ولما تبين الحقيقة سافرة وأدرك مبلغ الخداع الذى انطوت عليه جوارحه ، آثر أن يقذف بنفسه فى أتون الحرب فى الميدان الشرق — فى الجحيم كما قال — حيث قد يلقى حتفه على أن يحيا ليرى انتصار القوة الغاشمة . أظهر المؤلف سجايا الضابط الحميدة وسعة آفاقه فى الحياة وسمو أفكاره ، كى يقيس بها بل يعكس عليها صورة سائر الغزاة وأغراضهم الحقيقية من الفتح ، قاصداً بذلك أن ينبه أذهان مواطنيه ويرفع عن أبصارهم غشاء الخداع الذى طفق الألمان ينسجونه بمهارة فائقة ليدخلوا فى روع الفرنسيين أنهم لا يضمرون لهم شراً ولا يكنون لهم ضغينة ، حتى تنطلى عليهم الحيلة فيصدقوا وعودهم المعسولة ويستسلموا لهم آمنين . وادعين وحينئذ ينقض عليهم الغزاة انقضاض النسر

على فريسته ، يسلبون الأرواح ويعملون على إفناء تراث فرنسا الخالد وتشتيت شملها وتقطيع أوصالها إرباً إرباً . أراد « فركور » أن يميط اللثام عن حيل الألمان النادرة حتى لا يُخدع بها الشعب الفرنسى كما خدع بها الضابط الألمانى نفسه ، لكى يعتصم الفرنسيون بحبل الصبر ويغذوا نفوسهم بالآمال وكى يشحذوا هممهم ويقاتلوا العدو ما بقى فيهم رمق ، ويجتازوا محنتهم موفورى الكرامة .

وهى أيضاً قصة فرنسا المتألمة التى قهرتها القوة المادية الناشئة فلم تخضعها ، بل احتفظت بروحها سليمة لم ينل منها العسف الذى أصاب جسدها ، ولم تمهد للظافر طريقاً للقضاء على فكرها الرفيع أو لافناء كنزها العقلى المجيد ، ولم يتطرق إليها الشك فى مصيرها أو فى مستقبلها ، ولم تتخل عن مثلها العليا ولم تترك لليأس سبيلا إلى قلبها ، وإنما صبرت وتجلدت وقاومت مقاومة سلبية وإيجابية مادية وروحية تجاوزت حدود طاقة البشر ، وتألمت وكافحت وتحملت وناضلت فى صمت رهيب يخفى تيارات جارفة كصمت البحار .

وقد بين المؤلف أن العاطفة قد تغير الأفئدة فتملكها حيناً ، ولكن العقبات والحوائل الدنيوية لا تلبث أن تعوق نموها وتمنع ظهورها . فقد حاولت الفتاة بادئ ذى بدء كبت شعورها نحو الفتى الألمانى لأنه كان ينتمى إلى قوم فاتحين ، ولأنه أحد الأعداء المتعصبين الذين جرعوا الفرنسيين كؤوس الذل والمرارة حتى الثمالة ، ولكن روحها هامت به إذ شغفت بشاعريته ورقة إحساسه وأعجبت بميوله الموسيقية الرفيعة ، فقبلها نبل أخلاقه وسمو تفكيره وسعة آفاقه فاستسلمت لحبها بعد أن كافحته طويلا ولكنها أسرته فى نفسها وطوته فى قلبها لم تفش به للفتى وهى موقنة بأن الفتى مدله فى غرامه بها . وكلاهما لا يبوح للآخر بسره ، وكلاهما يشعر أنهما مؤتلفان روحاً وعقلا وأن أحدهما يكمل الآخر ، ولكن الفتاة لم تذعن لهواها ولم تخضع لغريزتها ، وآثرت أن تكتم حبها وتطويه فى صمت عميق كصمت البحار . . .

فؤاد رصفى أبو الدهب

من وراء البحار

أحاديث ألمانية بعد الهزيمة

يتساءل العالم الآن دائماً ماذا يجرى فى ألمانيا ؟ وكيف يعيش الألمان ؟ وفيم يفكرون ؟ فلقد خفت الصوت الألمانى بعد أن ظل ست سنوات مطمح أنظار العالم .

وقد اطلعنا أخيراً على مقال للأديب الانجليزى ستيفن سبندر ، نشره فى مجلة هورايزن (عدد ديسمبر) وصف فيه رحلة قام بها إلى بلاد الراين ، فذكر ما وجده فى مدينة كولونيا الكبيرة من تخريب عجيب ، حتى بدا له لأول وهلة أنه لم تبق فيها دار قائمة ، ولكنه علم فيما بعد أنه لم تبق فى تلك المدينة العظيمة غير ثلاثمائة دار جديرة بالسكنى ! وقد يمر المرء فى شارع بعد شارع فاذا النوافذ مفتوحة قد أحاط بها سواد الحريق، ويرى الشوارع مليئة بأفواج من الناس سائرين من غير مقصد ، وكان هؤلاء يمضون أوقاتهم منذ سنوات قليلة فى التفرج على نوافذ الحوانيت وما فيها من معروضات ثمينة أو فى الذهاب إلى السينما .

على أن ما نريد أن ننقله من وصفه ، هو زيارته لأستاذ ألمانى فى مدينة بون ، كان يعرفه منذ نيف وعشر سنين ، وهو رجل كان معادياً للنظام النازى قبل أن يتولى هتلر السلطة ، ولكنه لم يهجر ألمانيا بعد ذلك بل عمد إلى العزلة . وكانت داره مجتمع أولئك الذين ينتقدون النظام القائم فى ألمانيا وقتئذ وبخاصة من الوجهة الكاثوليكية .

ذهب « سبندر » إلى زيارته ، فوجد غرفته التى كانت مليئة بالأثاث حسنة الاضاءة ، عارية من هذا الأثاث وتكتنفها الظلمة . وبدأ سبندر الحديث بأن قال إنه جاء إلى هذه المدينة ليقف على ما فيها من حياة عقلية ، فرد عليه صاحب الدار قائلا : لم تعد هنالك حياة عقلية فى سائر أنحاء ألمانيا ، ولكنه من المهم أن يتحدث أديب مثلك إلى الناس كى يعلموا ما هو حادث فى ألمانيا . وانتقل بهما الحديث سريعاً إلى الحرب ، فأبدى الأستاذ أن من الخطأ الظن بأن الألمان المناهضين للنازى كانوا يستطيعون وقف الحرب ، ثم قال يظهر أنكم كنتم تتوقعون منا أن نقف أو نخرج إلى الشارع قائلين إننا نعارض فى الحرب وتناهض الحزب . فماذا تكون نتيجة ذلك غير القضاء علينا ؟ ومن المؤكد أن هذا العمل لم يكن ليقف الحرب . فلسنا نحن ، أبناء ألمانيا ، بل أنتم ، أعنى الديمقراطيات من إنجليز وفرنسيين وأمريكيين ، الذين كانوا يستطيعون وقف الحرب عند احتلالهم للراين . لقد كنا نأمل أن تفعلوا ذلك وقتئذ ، ولكن ماذا تنتظرون أن نظن عند ما نراكم تسمحون لهتلر بالدخول إلى أرض الراين ؟

— إذن أنت تظن أن ألمانيا غير مسئولة عن هذه الحرب ؟

— هذا طبيعى ! فمن الواضح جداً أن هتلر هو الذى بدأ الحرب ، ولا ريب فى ذلك ، وهو الأمر الذى يجب أن يعترف به كل ألمانى . وبالرغم من دعاية جوبلز يجب أن يعتبر الألمانى الذى يقول غير ذلك إما جاهلا وإما كذوبا . والواقع أن كارثة الألمان هى أنهم بعيدون عن التجارب فى الحرية السياسية ، فقد ظلوا حتى القرن الماضى محكومين بطغمة من

أصاغر الأمراء ، ثم حكتهم العسكرية البروسية ويجبان يتحرروا من عادة الاستسلام ؛ إذ هم لم يسبق لهم أن حكموا أنفسهم .

ولما أبدى سبندر دهشته من أن الطبقة المثقفة لم تظهر أية مقاومة ، وضرب مثلا بالأساتذة الذين كانوا يلقنون التعاليم النازية عن تفوق الجنس الجرمانى ، وأمثال ذلك من ضروب المذاهب النازية ، أجيب بأن مهنة التعليم كانت تسودها الأفكار النازية . فقال سبندر :

— إذا كنت تتهم مهنة التعليم بأسرها فإن ذلك لأمر خطير جداً معناه اتهام الأمة بأسرها . فأجيب :

— إنكم قطعتم رأس ملك منذ مئات السنين ، وقام الفرنسيون أيضا على ملكهم والطبقة الارستقراطية فيهم . فأساس الحرية فى الديمقراطيات هو أنهم يستطيعون فى أى وقت أن يثوروا على الطاغية . والألمان لم يثوروا قط على طاغية ، وليسوا هم الذين ثاروا فى الأيام الأخيرة على هتلر ، فالألمان يستسلمون دائماً .

وقد قابل سبندر عدداً من رجال الجامعة فى بون منهم مديرها الدكتور كونن وهو رجل فى السبعين من عمره ، وجرت بينه وبينهم أحاديث . وكان فى هذه الأثناء يتردد على صاحبه الأستاذ . وفى ذات مرة انتقل بهما الحديث إلى مساوئ الألمان فى البلاد المحتلة ، فقال له الأستاذ : عند ما تكلمت منذ ليال فى أمر تبعة الحرب كنت أريد أن أقول لك شيئاً هو أن الألمان مذنبون وقد ارتكبوا جرائم فظيعة ، وأنهم لا يستطيعون أن يقيموا شيئاً جديداً دون أن يأسفوا على جرائمهم . لقد كنت بعد الحرب الأولى شابا وكنت مليئاً بالآمال فى قيام ألمانيا جديدة ، ولكننا أخفقنا . وفى هذه السنوات الأخيرة شعرت بازدياد كراهيتى لبنى جنسى ولم أعد أثق بهم . وإنى لأعلم بأنى سأصبح رجلا فانيا متهدماً قبل أن نبرأ من هذا الداء .

أنباء الأدباء فى فرنسا

فاز الروائى ريمون جابربيل بالجائزة الكبرى للتحرير وقدرها خمسون ألف فرنك عن قصة اسمها « الأخوان من الأنصار » ، وحصل جون بيرو على جائزة قدرها عشرة آلاف فرنك .

وأخذ الأديب هنرى موندور فى جمع مقتبسات من رسائل لمرميه لم تنشر بعد ، واختار منها ماله علاقة بالشعر والشعراء ، وأخذ ينشرها تحت عنوان « ملاحظات عن الشعر » وهى توضح لنا تطور هذا الشاعر وتكوينه .

واتصل ترستان تزارا بالجمهور بعد انقطاع خمس سنوات ، إذ قرأ فى مسرح ڤييه كولومبييه قصيدته التمثيلية المسماه « الفرار » وقد كتبها على أثر جزع الفرنسيين وفرارهم أمام الألمان فى سنة ١٩٤٠ وسينشر تزارا مجموعة من خمس وعشرين قصيدة تعتبر بدء الحركة المعروفة باسم « دادا » .

ونشر لويس دى ڤيلفوس كتاباً عن لامنيه أو « الفرصة المضاعة » . وفى هذا المؤلف يصف العراك الداخلى فى نفس لامنيه ، و « مأساة الكنيسة وهى فى مفترق الطرق » . وهذا الكتاب هو قصة الكاثوليكية أمام تغلب الصناعة وسيطرة رأس المال . وقد أظهر المؤلف فى كتابه براعة فى فن الرواية مع سعة الاطلاع .

وكتب هيدجر زعيم المدرسة الوجودية نقداً لجان پول سارتر ، فقال إنه لم يسمع عنه إلا منذ شهرين أو ثلاثة ، وإنه لم يجد فى كتابه « الكائن والعدم » إلا كثيراً من الاضطراب ، وهو يفضل عليه موريس مارلو بونتى .

وتكلم إميل هنريو عند انتخابه عضوا فى الأكاديمى فرانسيز عن مارسيل بريفوه مفصلا حياة هذا الأديب المتخرج فى مدرسة الهندسة . ورد عليه جيروم تارو باسم زملائه واصفاً حياة العضو الجديد ومجهوده الأدبى ، وانتهى من خطبته قائلا : « إن مساعدتك ستكون قيمة فى وضع القاموس » .

وقد أخذت موجة من الكتب السياسية تظهر فى عالم التأليف فى فرنسا .

فأصدر جان تكسييه كتاباً أسماه « كتب فى الليل » وهو مجموعة خواطر مؤلمة سجلها فى زمن المحنة وتحلو قراءتها اليوم . كما أصدر فنسان أوريول كتاباً أسماه « الأمس والغد » فيه آراء سديدة عن التنظيم الدولى فى المستقبل . وكان مسيو جان پول بونكور قد أخذ فى زمن الاحتلال فى نشر كتاب « بين حربين » وقد ظهر الجزء الثانى من هذا الكتاب وفيه يبين الفرص التى أضاعها الحزب الاشتراكى وأضاعتها جمعية الأمم المتحدة ، وهو يقول : « إن ما كان ينقص هذه الجمعية هو قوة مسلحة ضرورية للمحافظة على احترام قراراتها » . ويحمل بيير هرفيه فى كتابه « خيانة الحرية » على الأخلاقيين المشبعين بآراء الطبقة البورجوازية ، وهو لا يرى خلاصاً إلا فيما يقوم به الشعب ويقرره .

وجمع موريس توريز التقارير التى قدمها للحزب الشيوعى فى كتاب سماه « سياسة العظمة الفرنسية » وهو كتاب مفيد يدل على حياة .

وجمع ليون بلوم المقالات التى نشرها فى جريدة « البوبيولير » بين يناير سنة ١٩٣٢ ويونيه سنة ١٩٤٠ فى كتاب تحت اسم « التاريخ سوف يحكم » . ولاريب فى أن بلوم مثالى النزعة ولكنه واقعى المنطق ، فقد كان دائماً يأخذ على الحكومة الفرنسية شدتها نحو بلاد النمسا ، ثم ينتقد تخاذلها وضعفها أمام ألمانيا وإيطاليا واليابان .

مسرحية جديد لجيرودو

كتب الناقد الفرنسى بيير لا نسرير مقالا تكلم فيه عن مسرحية « مجنونة شايو » التى مثلت أخيرا لأول مرة على مسرح أثينيه فى باريس ، وهى من تأليف الكاتب جان چيرودو ولم تكن مثلت فى حياته . ويرى الناقد أن هذا الحادث كان من أهم حوادث المسرح فى السنوات الأخيرة ، وكان الجمهور شديد الترقب له ، أولا ليعود إلى سماع مؤلف « إلكترا » و « حرب تروادة » و « سجفريد » مرة أخرى بعد أن شبع من المسرحيات الضعيفة التى تقدم له ، ثم ثانياً ليرى جان جوفيه لأول مرة بعد غيبته الطويلة فى أمريكا .

ولقد سحر الجمهور من مسرحية چيرودو منذ أول منظر ، إذ ما لبث الكاتب أن اجتذب الجمهور ببراعته فى العبارة المسرحية وسبك الحوادث وقوة خياله ، وهذا معهود فى مسرحياته السابقة ، إلا أنه جاء بجديد هو أننا نرى فى هذه المسرحية جيرودو الثائر ، فهو يرسم لنا صورة من الهيئة الاجتماعية القديمة التى « تغزل خيطاً من قطن ردىء » حيث المال هو

المسيطر عليها . وهذه الهيئة أيامها معدودات إذ أنه محكوم عليها بأن تذهب إلى غير رجعة . ويسيطر فى هذه الهيئة الاجتماعية رجال سماهم « الملك » وهى كلمة عامية رفعها الكاتب إلى مصاف اللغة الصحيحة . ولعلها مأخوذة من اللقب الذى يتمتع به بعض زعماء القبائل فى أواسط إفريقية . وهو يقصد بها رؤساء مجالس الادارة والمديرين والمنتدبين والسكرتيرين العامين للاعمال وأمثالهم . ثم هنالك زعماء أقل شأناً مثل متعهدى اللحوم وغيرهم .

والقصة قائمة على أنه تألفت جماعة من أصحاب المصارف وقررت تدمير حى « شايو » كى تكتشف تحت الأنقاض إما البترول وإما الذهب . والمهم فى نظرهم أن يصدروا الأسهم التى تجذب الناس وتجذب بينهم مسيو جوجو الطيب القلب الذى خدع أكثر من مرة ومع ذلك ظل شديد الثقة بالأسهم .

وقررت « أوريلى » مجنونة ذلك الحى أن تقاوم هذا العمل ، وسعت بالاتفاق مع ثلاث من أمثالها من نساء الأحياء الأخرى كى يقضين على هذه الجريمة . ونشبت الحرب بين الأغنياء بما لهم من مال ونفوذ وأخذوا يفسدون الرجال والشبان ، وبين هؤلاء النسوة الضعيفات المجنونات اللاتى ينتصرن فى آخر الأمر على هؤلاء الزعماء الجشعين ويقضين عليهم قضاء مبرما .

وليس من حاجة لمن عرف جيرودو فى مسرحياته أن نصف مهارته الفنية وقوته الأدبية فى مثل هذه الموضوعات .

جائزة الموسيقى دبوسى

أعلنت سيدة أمريكية اسمها مسز بليجندلر من أهل نيويورك أنها رصدت مبلغ ألف دولار لجائزة توهب فى سبتمبر سنة ١٩٤٦ لأحسن عازف على البيانو يقوم بعزف برنامج معين من مؤلفات كلود دبوسى الموسيقار الفرنسى الشهير .

وهى لا تميز جنسية أوسنا أو دينا أو تعليما ، بل الباب مفتوح للجميع . وستقام حفلات مبدئية فى عدة من مدن الولايات المتحدة وكندا والمكسيك فى مايو القادم ، ثم يتقدم المتفوقون للمباراة الأخيرة بسان فرانسسكو فى سبتمبر .

وهكذا نرى هذه السيدة الأمريكية تقدر ذكرى هذا الموسيقار الفرنسى العظيم المجدد لمجرد حبها للفن .

ظهر حديثا

العقيدة والشريعة فى الاسلام تأليف المستشرق العظيم اجناس جرلدتسيهر
ترجمة الأساتذة محمد يوسف موسى — عبد العزيز عبد الحق — على حسن عبد القادر
(دار الكاتب المصرى)

هذا العنوان وحده يوحى بأشياء كثيرة قد لايتسع لها هذا العرض الموجز . فهذا علم من أعلام المستشرقين الذين عاشوا فى القرن التاسع عشر وفى هذا القرن ، يضع كتاباً فى الاسلام يدرس فيه عقائده وشرائعه درساً تعمقه أحسن التعمق وأدقه ، وبسطه أكمل البسط وأجله ، وتوخى فيه الانصاف ما استطاع إلى الانصاف سبيلا ، كما توخى فيه الارتفاع عن النزعات والأهواء ما أتاحت له طبيعته الانسانية أن يرتفع عن النزعات والاهواء . وحرص فيه على ألا يقول شيئاً حتى يرده إلى أصله الذى استنبطه منه ، متفهما نصوص القدماء بقدر ما استطاع أن يتفهمها . فهو إذن يعرض دراسة علمية للعقيدة الاسلامية ، والشريعة الاسلامية ، ولما أصابهما من تطور على اختلاف العصور ، وتفاوت الظروف . وهو قد يخطىء هنا وهناك وقد يقصر عن فهم هذا النص أو ذاك ، وقد يرضى المسلمين حيناً ، وقد يسخطهم حيناً آخر . ولكن الشىء المؤكد هو أنه لم يتعمد تعصباً ، ولم يتكلف تشويها للنصوص ، ولا تحريفاً لها عن مواضعها ، ولا تغييراً للحقائق ، ولا التحكم فيها بالشهوة والهوى ، وإنما أصاب حين أصاب لأنه اجتهد فأتيح له التوفيق ، وأخطأ حين أخطأ لأنه اجتهد فلم يتح له التوفيق . والناس جميعاً يصيبون ويخطئون ، لأن وسائلهم إلى البحث مهما تكن متقنة دقيقة ، فهى لم تبلغ حد الكمال فى الدقة والاتقان .

والكتاب بعد هذا كله نموذج متقن من نماذج البحث العلمى الدقيق فى تاريخ الديانات ، والمذاهب والآراء . فيه تعمق واستقصاء للتفصيلات ، وفيه بعد ذلك استخراج لخلاصة الحقائق العامة من هذه التفصيلات . وينبغى أن نذكر أن هذا المستشرق العظيم قد كان مجرى الجنس يهودى الدين ، وأن كتابه هذا لم يكتب للمسلمين ، وإنما أعد ليكون طائفة من المحاضرات تلقى فى جامعة أمريكية ، ثم أعيد النظر فيه ، وأخرج على أنه كتاب يتجه إلى إلى المثقفين عامة ، وإلى المختصين فى الدراسات الدينية خاصة من الأوربيين والأمريكيين . فاذا قرأناه فانما يقرؤه المثقفون منا ليستفيدوا وينتفعوا ، وليروا كيف يتحدث العلماء المستشرقون المنصفون ، أو المحاولون للانصاف ، عنا وعما ورثناه من عقيدة ، وما تأثرنا به من شريعة فى حياتنا العامة والخاصة . ويقرؤه المتخصصون منا قراءة العلماء لما يكتبه العلماء ، يعرفون حيناً ، وينكرون حيناً آخر ، وينتفعون دائماً .

وقد قسم جولدتسيهر كتابه ستة أقسام : خصص القسم الاول منها لمحمد صلى الله عليه وسلم ، والقسم الثانى لتطور الفقه الاسلامى ، والقسم الثالث لنمو العقيدة الاسلامية وتطورها ، والقسم الرابع للزهد والتصوف فى الاسلام ، والقسم الخامس للفرق الاسلامية ، والقسم السادس

فى الحركات الدينية الأخيرة عند المسلمين . وظاهر من سرد هذه العنوانات أن الكتاب قد درس الحياة العقلية الاسلامية درساً دقيقاً مفصلا ، وحاول أن يصور العنصرين الأساسيين الذين تأتلف منهما فروع الحياة الانسانية مهما تكن ، وهما عنصر الثبات والاستقرار ، وعنصر التطور والتجدد .

وما من شك فى أن الذين يقرءون هذا الكتاب من المثقفين العرب لن يجدوا فى قراءته لذة ومتعة فحسب ، ولكنهم سيجنون من هذه القراءة ثمرات لا يستطيع كثير منهم أن يجنيها من قراءة كتبنا القديمة التى بعد العهد بينها وبين عقلنا الحديث .

فى نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية خدمة عظيمة للثقافة عامة وللثقافة الاسلامية خاصة . فاذا أضفت إليه أن الكتاب لم ينقل إلى اللغة العربية فحسب ، وإنما أضيفت إليه تعليقات قومت منه ما اعوج ، وأصلحت مواضع الخطأ فيه ، وردت أمور الخلاف بين المؤلف والمسلمين إلى نصابها ، عرفت أن نقل هذا الكتاب ليس خدمة للثقافة وحدها بل هو خدمة للاسلام أيضاً ؛ وليس فى ذلك شىء من الغرابة .

فالذين أهدوا إلى اللغة العربية هذه الهدية القيمة ثلاثة من علماء الاسلام تخرجوا من الأزهر الشريف وأتقنوا علوم اللغة والدين ، ثم سافروا إلى أوربا فدرسوا فيها وأتقنوا الدرس ، ثم عادوا إلى وطنهم ، وقد وصلوا قديم الشرق بحديث الغرب ، وكونوا لأنفسهم هذا المزاج المعتدل الخصب الذى لا تقوم نهضة إلا عليه ، ولم ينحرفوا عما ألفوا من الدرس ولكنهم استقبلوا درس اللغة والدين بعقل جديد ، قد استكمل وسائله للدرس المنتج والبحث الممتع .

وهم من أجل ذلك قد قدروا هذا الكتاب للأسباب التى قدمتها ، وأقبلوا على نقله إلى اللغة العربية وعلى تبيين وجه الحق فيما أشكل على المؤلف . فمن الحق أن نحمد لهم هذا العمل الخطير وأن نبتهج فى دخائل نفوسنا وأعماق ضمائرنا ؛ لأن الأزهر الشريف قد تحرر من ركوده القديم ، واستشعر حقه وواجبه ، ونهض بالواجب قبل أن يطالب بالحق ، وأخذ الممتازون من أبنائه يؤدون واجبهم للثقافة الدينية كأحسن ما يؤدى الواجب : ينقلون رأى الأوربيين فى قديمنا وحديثنا ، ويقومون هذا الرأى ويلائمون بينه وبين طبائعنا وأمزجتنا ومثلنا العليا بالضبط ، كما كان الأعلام من فقهاء المسلمين ومتكلميهم وفلاسفتهم يصنعون فى العصور الاسلامية الأولى .

ومهما أثنى على الأساتذة المترجمين بما وفقوا له من دقة النقل ويسر الاسلوب وحسن التعبير فلن أؤدى إليهم حقهم من الثناء حين أذكر جهداً عظيما بذلوه موفقين كل التوفيق ولعله ألا يكون أقل مشقة ولا أثقل حملا من جهد الترجمة . فقد اعتمد المؤلف على نصوص كثيرة فى كتب متفرقة منها القريب ومنها البعيد ، وفى طبعات متفاوتة منها الشرقى ومنها الغربى ، وقد حرص المترجمون على ألا يترجموا هذه النصوص من الألمانية والفرنسية وعلى ألا يكتفوا بالاشارة إليها ، ولكنهم استقصوها فى مظانها حتى وجدوها ، فساروا مع المؤلف فى طريقه العلمى سيراً دقيقاً لا تخلف فيه ، وعرفوا كيف فكر ، وكيف قدر ، وكيف وجد النص وكيف فهمه ، وكيف استخرج منه نتائجه التى انتهى إليها .

فليتقبل الأساتذة الأجلاء محمد يوسف موسى وعبد العزيز عبد الحق وعلى حسن عبدالقادر أصدق التهنئة بما بذلوا من جهد ، وما أصابوا من توفيق . وما أشك فى أن جمهور المثقفين سيهدون إليهم من التهنئة مثل ما أهدى ، وسيعترفون لهم بمثل ما أعترف لهم به من الجميل .

الحب الأول تأليف الكاتب الروسى العظيم إيڤان ترجنيف . ترجمة الأستاذ محمود عبد المنعم مراد (دار الكاتب المصرى)

من المشكلات التى نواجهها الآن ، كما واجهها العرب فى العصر العباسى الأول ، ترجمة بعض الآثار الأدبية والعلمية التى لا يمكن الاستغناء عنها فى أمة تقدر الثقافة وتريد أن تشارك فى الحضارة إذا كانت هذه الآثار قد كتبت فى بعض اللغات التى لم تتعود درسها ولم يشع العلم بها فى مصر .

فقد واجه العرب هذه المشكلة حين أرادوا أن يترجموا ثقافات الأمم الأجنبية فى القرن الثانى والثالث للهجرة ؛ فقد كانت هذه الثقافات الأجنبية فى لغات منها ما كان قريباً من العرب يسيراً عليهم ، ومنها ما كان بعيداً عنهم عسيراً عليهم . فقد كانت اللغة الفارسية قريبة منهم تعرب أصحابها وتعلمها بعض العرب فكان النقل منها وإليها يسيراً لا مشقة فيه . ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة إلى لغات الهند وإلى اللغة اليونانية . فإذا نقلت آثار الفرس إلى اللغة العربية نقلا مباشراً فقد نقلت آثار الهند نقلا غير مباشر ، ترجمت إلى الفارسية أول الأمر فيما يظهر ثم نقلت منها إلى العربية . ونقلت آثار اليونان إلى العربية نقلا غير مباشر أيضاً ، بل كان فى نقلها كثير من التعقيد . فهى قد نقلت أول الأمر نقلا من الدرجة الثالثة ، إن صح هذا التعبير ، لم تترجم الكتب اليونانية ترجمة مباشرة أو غير مباشرة ، وإنما أذيعت فى العرب آراء ومذاهب يونانية عرفها أصحابها من طرق مختلفة ، أذاع الفرس شيئاً من هذه الآراء والمذاهب ، وأذاع السريان والنصارى واليهود بوجه عام شيئاً آخر من هذه الآراء المذاهب . ثم عرف العرب الترجمة غير المباشرة ، فترجمت الآثار اليونانية عن تراجم سريانية ، ولم تترجم الآثار اليونانية عن لغتها الأولى إلا فى عصر متأخر ، كما لم تعرف آثار الهند معرفة مباشرة إلا فى وقت متأخر جداً .

وقد كان للعرب من الأعذار فى العصور القديمة ما ليس لنا ؛ فهم لم يعرفوا فى عصورهم الأولى التعليم الالزامى ولا التعليم العام المنظم ولا التعليم الاجبارى للغات الأجنبية ، وهم لم يتصلوا بالأمم الأجنبية اتصالا دقيقاً منظماً على نحو ما نتصل نحن الآن بالأمم الأجنبية . وهم لم يملكوا من وسائل التعلم والتعليم شيئاً يقاس إلى ما نملك نحن الآن . فإذا اضطروا إلى أن يكتفوا أول الأمر بالترجمة غير المباشرة فلهم عذرهم . ومن الحق أن نعرف لهم هذا التفوق علينا فى حب المعرفة والحرص على تحصيلها . ونحن الآن نواجه نفس المشكلة بالقياس إلى أكثر اللغات الأجنبية وإن كنا لا نواجهها بالقياس إلى لغتين أو ثلاث . فنحن ننقل نقلا مباشراً عن الفرنسية والانجليزية وقد أخذنا ننقل نقلا مباشراً عن الألمانية منذ وقت قصير ، وأخذنا نحاول كذلك النقل عن اللغة الفارسية ، ولكننا لا نستطيع إلى الآن أن نترجم مباشرة عن الروسية ولا نكاد نترجم عن الايطالية ، فأما اللغات الأوربية الأخرى فنكاد لا نعرف عنها إلا ما يحدثنا به الانجليز أو الفرنسيون . ليس فينا من ينقل مباشرة عن لغات أوربا الشمالية ولا عن اللغة الأسبانية . ومع ذلك ففى كل هذه اللغات حياة عقلية لا تقل قوة وخصباً وتأثيراً فى الحضارة الانسانية العامة عن اللغتين الفرنسية والانجليزية .

ومن الطبيعى أن نسرع الى الاتصال بهاتين اللغتين من لغات أوربا الغربية لأن ظروف التاريخ والجغرافيا والسياسة تقتضى ذلك ولكن من الطبيعى أن نحزم أمرنا ونحرص على

الاتصال باللغات الحية الأخرى لأن ظروف الحضارة والثقافة تقتضى ذلك أيضاً . وقد كانت الحضارة والثقافة لغة واحدة فى العصر القديم هى اليونانية فى الشرق واللاتينية فى الغرب، ثم ظلت للحضارة والثقافة لغة واحدة فى العصور الوسطى هى العربية فى الشرق واللاتينية فى الغرب. أما فى العصر الحديث فقد نامت العربية حيناً ثم استيقظت ، وأصبحت اللغة اللاتينية وسيلة من وسائل الدرس لا لغة حية يمكن الاعتماد عليها . وهمت اللغة الفرنسية أن تكون لغة الحضارة والثقافة فى أول العصر الحديث ، ولكنها لم تستطع أن تقهر لغات الأمم الأوربية الأخرى المتوثبة ، فزاحمتها الانجليزية والاسبانية. ولم يكد القرن التاسع عشر يتقدم حتى أصبحت اللغات الأوربية كلها ألسنة للحضارة والثقافة والعلم . فطبيعة الأشياء تقتضى إذن أن توجد فى مصر مدرسة أو مدارس للغات الحية الكبرى على الأقل ، وأن تتسع مدارسنا الثانوية لأكثر من اللغتين الانجليزية والفرنسية . والمهم هو أننا أخذنا نشعر منذ حين بضرورة النقل عن الألمانية ثم بضرورة النقل عن الروسية ، فعمدنا إلى الترجمة غير المباشرة : قرأنا آثار الألمان والروسيين فى الانجليزية والفرنسية ثم نقلناهما عن هاتين اللغتين . وأعود فأكرر أن هذا شىء أقل مايوصف به أنه لا يلائم طموحنا إلى الرقى الصحيح . ولكن شيئاً خير من لاشىء ، كما يقال ، وعلى هذا النحو نستقبل كتباً كثيرة أنشأها الأدباء الروسيون الممتازون وينقلها لنا الشباب المصريون نقلا غير مباشر من اللغتين الانجليزية والفرنسية .

والكتاب الذى نتحدث الآن عن ترجمته من هذه الكتب أنشأه الكاتب الروسى العظيم ترجنيف وترجمه الأستاذ محمود عبد المنعم مراد إلى العربية ترجمة غير مباشرة . والشىء الذى لا شك فيه هو أن هذه الترجمة إذا لم تصور أثر الكاتب الروسى العظيم تصويراً دقيقاً فانها تعطينا منه صورة مقاربة فيها كثير جدا من الجمال والروعة يأتيان قبل كل شىء من هذه البيئة الجديدة التى لم نتعود أن نراها فيما نقرأ من آثار الفرنسيين والانجليز، بل من آثار من الألمانيين والايطاليين . فللحياة الروسية طابعها الخاص الذى يرد الشعور الانسانى والتفكير الانسانى أيضاً إلى أصول من هذه السذاجة الشرقية المحببة إلى النفوس . وقد يكون من الأوليات أن نقول إن الرجل المصرى يرى نفسه فى الأدب الروسى أكثر مما يراها فى الأدب الأوربى ؛ الغربى لأن حياة الروسيين لم تتعقد بعد كما أن حياتنا نحن مازالت بعيدة عن التعقيد .

و«الحب الأول» قصة صغيرة ساذجة ، يتحدث بها رجل إلى رفيقين من رفاقه ، فيصور لهما كيف نشأ الحب فى قلبه لأول مرة حين كان غلاما فى السابعة عشرة من عمره ، وحين رأى فى الريف فتاة جميلة فى العشرين . وهو يصور ما أحدث جمال هذه الفتاة من فتنة فى قلوب مختلفة يتفاوت أصحابها فى أسنانهم ومراتبهم وطبقتهم الاجتماعية ، كما يصور أن هذا الحب قد وقع فى قلبه هو كما وقع فى قلب أبيه ، وأنه أخذ فى هذه القلوب المختلفة صوراً مختلفة ، ولكن صورة واحدة منها هى التى تفوقت وسيطرت على غيرها من الصور . وهى صورة الحب الذى وقع فى قلب الاب . فالأب هو الذى استطاع أن يستأثر بالفتاة من دون غيره من العاشقين ، مع أنه لم يظهر عشقاً ، ولم يحدث بينه وبين الفتاة صلة ظاهرة . والناحية المؤثرة حقاً فى الكتاب ، هى ناحية التصوير لهذا القلب الناشئ ، الذى يندفع إلى الحب فى غير احتياط ولا تحفظ ، ويلقى فى هذا الاندفاع آلاما وآمالا ، ثم لا تلبث آماله أن تخيب قليلا قليلا حتى تنتهى إلى اليأس ، حين يثق الفتى بأنه كان يحب عشيقة أبيه .

والكتاب يقرأ فى سهولة ويسر ، لأن المترجم اصطنع لغة سهلة يسيرة .

المقامر للكاتب الروسى العظيم فيدور دستويفسكى ، ترجمة الأستاذ شكرى محمد عياد (دار الكاتب المصرى)

والمثقفون جميعا يعرفون الكاتب العالمى العظيم دوستويفسكى أكثر مما يعرفون ترجنيف ، وكثير منهم سمع بقصة « المقامر » أو قرأها ، وكثير منهم يعرف ما بين هذه القصة وبين مؤلفها من صلة . فقد كان دستويفسكى نفسه ممتحناً بداء القمار ، وقد لقى منه فى حياته شراً عظيما .

فلست فى حاجة إذن إلى أن أعرض القصة ولا أن أحللها والقراءة خير من التحليل على كل حال . ولكن ألاحظ أن قصة ترجنيف التى تحدثت عنها آنفاً تقع فى روسيا نفسها على حين تقع قصة المقامر فى ألمانيا وفرنسا .

فاذا كانت القصة الأولى تصور لوناً من حياة الروسيين فى بلادهم ، فالقصة الثانية تصور لوناً من حياة الروسيين خارج بلادهم . وأحب أن ألاحظ أيضا أن القصة الأولى تصور حياة ريفية هادئة تتصل بالحب وتعنف فيها الأهواء عنفاً متئداً ، لأن ترجنيف كان صاحب دعة وهدوء وشعور قوى ووجدان شديد التأثر . فأما قصة دستويفسكى فانها لا تعرف دعة ولا هدوءا وإنما تصور حركة متصلة لا تريح ولا تستريح ، كما تصور عنفاً شديداً يملك على القارئ نفسه ويستأثر بحاجته إلى الاستطلاع .

ولست أدرى أين قرأت فى قصص ديستويفسكى عنصراً شيطانياً ، فهذا العنصر الشيطانى يظهر ظهوراً قوياً فى قصة المقامر . والقصة آخر الأمر موعظة كلها ، سيجد الذين يقرأونها لذة فنية ، وعبرة خلقية نافعة .

شبح كانترفيل للكاتب الانجليزى أوسكار وايلد ترجمة الأستاذ لويس عوض (دار الكاتب المصرى)

وهذه قصة انجليزية صغيرة ، توشك أن تكون حكاية طويلة ، قد كتبها أوسكار وايلد فى أسلوبه الفكاهى الساخر ، الذى يمزج بين التفاؤل والتشاؤم ، وبين الابتسام والعبوس وهى تصور الاختلاف بين استمساك الانجليز بما ورثوا من الأساطير ، واستمساك الأمريكيين بما يستحدثون من الجديد . فقد اشترى غنى أمريكى قصراً لبعض الانجليز المحافظين ، ونبه البائع هذا الأمريكى إلى أن فى قصره شبحاً يظهر أثناء الليل ، فينغص على النائمين نومهم ويعرضهم لألوان من الخوف ، قد تجر عليهم شراً عظيما . ولكن الأمريكى لا يحفل بالشبح لأن الأمريكيين لا يؤمنون بهذه السخافات . على أنه لا يكاد يستقر فى القصر حتى يظهر له الشبح بالفعل ، فيعامله كما تعامله الأسرة كلها على الطريقة الأمريكية ، لا يخافون منه ، وإنما يستهزئون به ويملئون بذلك قلبه حزناً وغماً . ولكن فتاة من أبناء الأسرة ترق له وتعطف عليه ، وما تزال ترفق به وتواسيه ، حتى ترده إلى الهدوء والأمن وإلى التوبة والندم على ما قدم من خطيئة ، فيموت ، وقد أهدى إلى الفتاة جواهر ثمينة .

وليس المهم فى القصة هذه الأنباء التى تروى عن الشبح ، وإنما المهم هذه الموازنة الظريفة الساخرة بين العقل الانجليزى المحافظ ، والعقل الأمريكى المجدد . ويخيل إلى أن الأستاذ لويس عوض قد تعجل الترجمة ، وأن دار الكاتب المصرى قد تعجلت الطبع ، فوقعت فى القصة على قصرها ، أغلاط مؤلمة فى النحو العربى ما كان ينبغى أن تفوت المترجم ، وما كان ينبغى بنوع خاص أن تفوت المصحح ، والأستاذ لويس عوض جامعى ، وتخصصه فى الانجليزية لا يعفيه من تبعات الخطأ فى اللغة العربية . فعسى أن يصطنع الأناة فيما يترجم ، ولعل دار « الكاتب المصرى » أن تصطنع الأناة فى تصحيح ما تطبع وتذيع فى الناس .

طه حسين

تاريخ النقائض فى الشعر العربى للأستاذ أحمد الشايب (مكتبة النهضة بالقاهرة)

أخرج لنا الأستاذ الشايب منذ قريب كتاب « تاريخ الشعر السياسى إلى منتصف القرن الثانى » حاول فيه وصف هذا الفن الأدبى فى أطواره المتعاقبة منذ نشأته فى الجاهلية إلى نحو منتصف القرن الثانى للهجرة ، وقد ذهب فى تفسير الشعر السياسى فى كتابه ذاك مذهبين متقابلين يسيران جنباً إلى جنب ، أحدهما قريب يقف عند فنونه المعروفة : نسيباً ، ووصفاً ، ومدحاً ، وهجاء ، وحماسة وفخراً ، من حيث يتجه الشعر فى أى ألوانه هذه إلى شخص ، أو قبيلة ، أو حزب ، أو أمة ... ، والثانى ينظر إلى هذا الشعر من حيث الغاية أو الهدف الذى أنشئ فى سبيله أيا كان هذا الهدف : كتأييد حزب سياسى ، أو تمجيد قبيلة ، أو مدافعة شعب أجنبى ، أو انتصار لمذهب حكومى ، أو غير ذلك من الأهداف .

وقد اتخذ المؤلف فيما أنشأ من فصول ذلك الكتاب نهجا عاما يقوم على أصلين ، أحدهما سياسى يساير التكوين الطبيعى للجماعات العربية منذ كانت ، ويصف أطوارها وطابعها السياسى فى كل طور ؛ والثانى فنى يقوم على الخواص الأدبية للشعر السياسى نفسه فى كل طور من تلك الأطوار ، وعلى المشخصات الذاتية لكل شاعر من شعراء ذلك الفن ، وعلى العوامل المكانية أو الجماعية أو الشخصية التى كان لها أثرها فى توجيهه الفنى .

ولقد كان هذا الكتاب بمنهجه وموضوعه ومذهب مؤلفه فى البحث محاولة جديدة فى دراسة الأدب العربى حقيقة بعناية الباحثين ، ولعلها أن تكون مقدمة لمباحث أخرى فى هذا الباب الذى مهد الأستاذ الشايب إليه طرائق البحث وذلل مراكبه !

وهذا كتاب جديد ، فى موضوع جديد ، يخرج به الأستاذ الشايب إلى قراء العربية قبل أن تمضى بضعة أشهر على كتابه الأول !

و « النقائض » فى الشعر العربى هى اسم معروف لتلك القصائد الطوال التى يناقض بها الشعراء بعضهم بعضا هاجين أو مفاخرين ، وأشهرها « النقائض » التى دارت بين جرير والفرزدق والأخطل فى العصر الأموى ، والتى أوشكت لشهرتها أن تستأثر بهذا الاسم حتى

لا يكاد الناس يعرفون عن « النقائض » إلا أنها تلك الأهاجي والمفاخرات التي كانت بين جرير وصاحبيه الآخرين وحسب!

على أن الأستاذ الشايب في بحثه هذا الطريف لم يقصر حديثه على نقائض هؤلاء الشعراء الثلاثة وحدهم ؛ إذ بدا له أن هذا الفن الذي ظهر قويا رائعا في زمن الأمويين لا بد أن تكون له مقدمات وسوابق قبل عصر الأمويين عبدت طرقه وهيأت وسائله وتطورت به حتى بلغ ذلك المبلغ القوي الرائع . ومن هذه النقطة بدأ الأستاذ الشايب بحثه فرجع إلى ماضي الشعر العربي في الجاهلية وصدر الاسلام دارساً منقبا ، باحثا عن هذا الفن أين بدأ وكيف تطور ، فظفر بحلقتين في تلك السلسلة في عصرين ممتازين في تاريخ الشعر العربي ، هما عصر الجاهلية وعصر البعثة المحمدية ، فتكون منهما ومن العصر الأموي تاريخ كامل للنقائض أخذ الأستاذ في بحثه ودرسه على منهاج علمي صحيح فانتهى من بحثه ودرسه إلى هذه الفصول التي نشرها في ذلك الكتاب !

فهو إذن كتاب جديد في موضوع جديد كذلك ، قد بذل له المؤلف جهداً وأنفق زمانا ، فهو حقيق بأن يلقى من عناية الباحثين وطلاب الأدب كفاء ما بذل المؤلف من جهده وما أنفق من زمنه في موضوع لعله ليس من المبالغة أن أقول إنه نصف الأدب العربي في عصوره الثلاثة المتقدمة !

المسئولية والجزاء للدكتور على عبد الواحد وافى (مطبعة عيسى البابى الحلبي بالقاهرة)

هذه هي الحلقة السابعة من سلسلة مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية ، وهي جمعية يشترك فيها طائفة من أعلام الباحثين في الفلسفة والاجتماع في مصر ، وهدفها استئناف النهضة العلمية في الشرق وتبسيط مسائل الفلسفة حتى تصير في متناول كل قارئ وإن لم يكن له اختصاص بالفلسفة ومباحثها المعقدة .

والدكتور على عبد الواحد وافى مؤلف هذا الكتاب هو أستاذ الاجتماع بكلية الآداب ، وهو رئيس هذه الجمعية . وإنه لعمل حقيق بالتنويه أن يحاول أستاذ الاجتماع في الجامعة ألا يقتصر جهده في هذا الفن الخاص من فنون المعرفة على طلابه في الجامعة ، فيؤلف ، أو يرأس هذه الجمعية ، وينشر هذا الكتاب ؛ هو عمل حقيق بالتنويه لأنه مظهر من مظاهر الايمان بالعلم ، وهو كذلك مظهر من مظاهر الديمقراطية في هذا العلم وإن كان لموضوعه مظهر الأرستقراطية !

وكل فرد في الجماعة لا بد له أن يعرف ما عليه من « مسئولية » في الجماعة التي يعيش بينها ، وما ينتظره من « جزاء » يكافئ ما يحمل من تلك المسئولية ، سواء أكانت هذه المسئولية وذلك الجزاء مما تشرعه الأديان ، أو مما تفرضه القوانين ، أو مما تعارف عليه الناس ؛ فلا جرم أن يكون حقاً على كل فرد في الجماعة أن يلتمس أسباب المعرفة في باب المسئولية والجزاء ؛ وهذا هو المعنى الذي قصد إليه الدكتور وافى بكتابه هذا الذي أخرجه لقرائه على الوجه الذي أراده ليتحقق به النفع العام ، وأحسب قد وفق لتحقيق ما أراد

نساء عاشقات للأستاذ صلاح المنجد (مطبعة الترقى بدمشق)

وهو الحلقة الثانية من سلسلة منشورات أصدقاء الكتاب التى يصدرها فى دمشق طائفة من الادباء وأهل البحث والنظر

فى هذا الكتاب يتناول الأستاذ المنجد طائفة من قصص الحب فى الأدب الفرنسى لمدام دلافييت ، وروسو ، وستاندال ، وفلوبير ، فيدرس شخصياتها النسائية دراسة يربط بها بين الحياة الخاصة التى كان يحياها مؤلفو هذه القصص وما كان للمرأة فى هذه الحياة من أثر وبين النساء العاشقات الذين أبدعوا تصويرهن فى هذه الآثار الأدبية الخالدة ؛ ثم يأخذ فى تحليل عواطف هؤلاء العاشقات أو المعشوقات على أنهن شخصيات حية كان لها وجود حقيق ؛ إن لم يكن فى الحقيقة والواقع ففى أنفس أولئك المؤلفين الذين حاولوا أن يصوروا — حين صوروهن — شخوصاً حية ، أو نماذج لشخوص حية كان لها فى حياتهم أثر وتوجيه . . .

ولست أجحد مقدار ما وفق له الأستاذ المنجد فى تحليل ما تناوله من القصص وتصوير مؤلفيها وشخصياتها ، فقد بلغ فى ذلك مبلغاً يهنأ عليه . ولكن ألم يكن أجدر به أن يبدأ فينفق جهده هذا فى ترجمة هذه القصص كلها أو بعضها إلى العربية قبل أن يفكر فى إخراج هذه الدراسات التى تشبه أن تكون حاشية أو تعليقاً جيداً على كتاب ليس بين يدى القارئ متنه ؟

وماذا يفيد القارئ من الشرح المدروس والتعليق الجيد على هامش كتاب ليس بين يديه متنه ؟

صاحب المزمار — أنس الوجود — من الريف قصة ، وخواطر أدبية طريفة بقلم ممدوح مصطفى عبد الرازق

المثل المصرى يقول : « ابن الوز عوام ! » وهو مثل لا يصدق كثيراً ، ولكنه هنا فى موضع الاستدلال الصادق ؛ فهذا فتى لأبيه ، وفيه على مستقبله بشائر !

أما الفتى فهو التلميذ الناشئ « ممدوح » وأما أبوه فهو شيخ الأزهر الحالى ، ووزير الأوقاف السابق ، وأستاذ الفلسفة فى جامعة فؤاد الأول قبل ذلك ، والأديب البارع من قبل ومن بعد ، وهو مصطفى عبد الرازق :

وحسب القارئ أن يطلع على هذه « الورقات » التى أخرجها مؤلفها الصغير فى « مجلدين » وأن يعرف من ذلك المؤلف ومن أبوه ، ليعرف أن هنا « بذرة أديب صغير » نسأل الله أن يحوطه برعايته حتى يصير فى يوم قريب « أديبا كبيرا » طويل الباع فسيح الذراع !

محمد سعيد العريان

في مجلات الشرق

أغلاط الإفرنج

في الجزء الاول من المجلد الحادي والعشرين من مجلة «المجمع العلمي العربي» بدمشق بحث طيب بهذا العنوان ، للأستاذ محمد كرد علي ، أورد فيه طائفة غير قليلة من أغلاط الافرنج في بعض ما يعالجون درسه من الشئون الشرقية والاسلامية ، سواء أكان هذا الغلط لفظياً ، أو فكريا ، وبعد أن صحح ما أورد من تلك الأغلاط قال في خاتمة مقاله :

« وبعد فكثيراً ما وددت لو قام بعض أرباب الكفاية منا فنشروا في القاهرة أو دمشق أو بغداد مجلة تعنى برد ما ينشر من هذا القبيل في الكتب والمجلات الافرنجية تدفع به هذه الأباطيل المقصودة عن تاريخنا ومقدساتنا وتنق العلم من هذا الزؤان والزغل ، فعصرنا عصر دعاية ، ومن لا يدعو لما يهمه لا يهتم له أحد ويظل التباين بينه وبين من يريد أن يكون معهم على وئام متأصلا . »

واجب كل عربي !

في العدد الاول من المجلد العاشر لمجلة «الكلية» التي يصدرها فريق من طلاب الجامعات في بيروت ، كلمة بعنوان « هل من متخلف عن تأدية الواجب ؟ » جاء فيها :

« لن نكون أمة محترمة ما لم يشعر كل منا بمشاكلنا الاجتماعية ويسعى لحلها . لن نكون أمة محترمة ، ولن نعلو إلى رتبة الأمم الراقية ما دام في البلاد أطفال يموتون من الأمراض وقلة الغذاء ، وأيتام مشردون لا أنيس لهم ولا معين يفتشون في فضاء الله عن مأوى يلجأون إليه ، ما دامت الأمية تسيطر على السواد الأعظم من الشعب والملاريا تصارع الفلاح المسكين ، والسجون تجمع بين الصغير والكبير والجاني وسارق الرغيف .

« فاذا أردنا أن نكون أمة محترمة فعلينا أن ننهض بمجتمعنا ونرفعه إلى مستوى أعلى بكثير من الذي هو فيه اليوم ، فالى كل من آمن بالقضية العربية أقول : اخدم المجتمع وانخرط في جيوش مكافحة الأمراض والأمية ومنظمات الترفيه عن العامل والسجين والمتشرد . »

أدباؤنا المعاصرون

في العدد الثالث من مجلة « الوادي » التي تصدر في بغداد مقال للأستاذ رفائيل بطي تناول فيه خطبة الدكتور طه حسين بك التي قدم بها زميله في مجمع فؤاد الاول للغة العربية

معالى عبد الحميد بدوى باشا ، والتى نشرتها مجلة « الكاتب المصرى » فى عدد مضى ، ثم انتهى من مقاله هذا إلى قوله :

« ولكنى أؤاخذ رئيس تحرير الكاتب المصرى على تقصيره فى حق مجلته وقرائه إذ لم يفتح باباً جديداً فيها فيعرف فى كل جزء زميلا له من رجال الفكر والأدب العرب المحدثين من مصريين وغيرهم بالطريقة التى عرف بها معالى بدوى باشا فى خطابه فى الأكاديمى العربى . وعلى توالى الأيام تضم المكتبة العربية سفراً فذاً فى تحليل أدبائنا المعاصرين بقلم عميدهم طه حسين . »

الفنانون يكرهون الحياة

فى عدد شباط (فبراير) من مجلة « الأديب » التى تصدر فى بيروت مقال عنوانه « الأخلاق عند الأدباء » بقلم عبد اللطيف شرارة يحاول فيه تعليل بعض الظواهر الشاذة فى أدباء السوء ، فيقول :

« كل ما يختلف به رجل الفن عن غيره هو بالضبط أنه لا يحب الحياة ، هذه المشكلة التى فرضت عليه فرضاً دون أن يكون له فى الأمر حق الاختيار أو المشورة على الأقل ! فكأنه يولد — حين يولد — وفى جبلته الأصيلة هذا النفور من حياته ، فلا يلبث أن يعبر عن فطرته بعد أن يكبر وينمو بحب الأنغام إن كان موسيقياً ، ومطالعة الكتب إن كان أديباً ، ونحت الأحجار إن كان مثالا ، وتزويق الألوان إن كان رساماً ، وهلم جرا . ولا هم له أن يعيش بمقدار ما يصرف همه فى وسائل فنه وأساليبه ونماذجه وإخراجه ، وهو فى جميع حالاته منصرف عن الحياة إلى حياة أخرى لا نعرفها إلا حين يصورها لنا بما أوتى من براعة خاصة واتجاه خاص ! »

وحدة الثقافة العربية

وفى العدد نفسه من مجلة « الأديب » رسالة للأستاذ عبد الله برى من مهاجره فى ديورن ميشغن بالولايات المتحدة ، عنوانها « الوحدة الثقافية قبل الوحدة السياسية » يقول فيها :

« نحن فى بلاد العرب بحاجة إلى وحدة ثقافية قبل الوحدة السياسية . والشباب العربى إجمالا بحاجة إلى العلم لا إلى السياسة ، والبلاد المستقلة فى بلاد العرب تحتاج أيضاً إلى نمو نشاط ثقافى قبل حاجتها إلى التوحيد والاستقلال — الاستقلال بمعناه الكامل — الذى يقوم على العلم والفن لا على الجهل والادعاء ، والذى إذا قام على الثقافة رفع اسم الشعب وعزز اقتصادياته ومقدراته ، وأفاد فى نموها وانتشارها فى جميع الوجوه الاجتماعية المعروفة . »

الباب الضيق

تأليف

اندريه جيد

تعريب نزيه الحكيم

مع رسالة من أندريه جيد الى المترجم

ورد طه حسين الى أندريه جيد

*

قصة الحب النقي الممتاز الذى يرتفع عن خطوب الحياة اليومية ، ويرفع أصحابه عن هذه الخطوب ؛ ومايزال يرتفع ويرفع أصحابه حتى يبلغ بنفسه وبهم نوعاً من التصوف يمتزج بالحب الالهى امتزاجاً .

١٤٦ صفحة

الثمن ١٨ قرشاً (البريد ١٢ مليما)



صورة دوريان جراي

تأليف

أوسكار وايلد

تعريب لويس عوض

طبعة مزينة بصور مختارة من فيلم

« صورة دوريان جراي »

انتاج « مترو جولدوين ماير »



٣٠٠ صفحة

الثمن ٣٠ قرشاً (البريد ٢٤ مليما)



مِن حَولنا

قصص مصرية

تأليف

محمد سعيد العريان

جيل من الناس فى أفراحه وآلامه ، يرى كل قارئ فى مرآته صورة من نفسه ، أو صورة من حوله ، فى إطار قصصى رائع فى بيانه وفى فنه .



٢٦٠ صفحه

الثمن ٢٥ قرشاً (البريد ٢٠ مليما)





حكايات فارسية

بقلم

يحيى الخشاب

كتاب يحمل إلى قراء العربية عبيراً رقيقاً حسن الموقع فى النفس من هذه الحياة الفارسية الممتازة بما فيها من رقة وفطنة وفكاهة .

١٩٦ صفحه

الثمن ٢٠ قرشاً (البريد ١٦ مليما)



ظهر حديثاً

قصتان

من الادب الروسى الرفيع

المقامر

تأليف

فيدور دستويفسكى

تعريب شكرى محمد عياد

١٦٩ صفحة

الثمن ١٨ قرشاً (البريد ١٦ مليما)

*

الحب الأول

تأليف

إيفان ترجنيف

تعريب محمود عبد المنعم مراد

١٠٤ صفحة

الثمن ١٥ قرشاً (البريد ١٢ مليما)



تحت الطبع

مدرسة الزوجات

تأليف

أندريه جيد

تعريب صبرى فهمى

تباع كتب

دار الكاتب المصرى

فى المكتبات الشهيرة

وإن أردتم أن تصلكم كتبنا رأساً بالبريد فارسلوا إلى الدار ثمن ما تختارون منها مع إضافة أجرة البريد المحددة .



ليون دوديه

كليمنصو
وحياته العاصفة

تعريب حسن محمود



طبعة مزينة بالصور



تحت الطبع

الكاتب المصرى

مجلة ادبية شهرية

تصدرها دار الكاتب المصرى

شركة مساهمة مصرية

وتطبع بمطبعتها

رئيس التحرير

طه حسين

سكرتير التحرير

حسن محمود

ادارة الكاتب المصرى

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة

الاشتراك

يدفع مقدماً باسم « الكاتب المصرى »

١٠٠ قرش فى السنة لمصر والسودان

١٢٠ قرشاً فى السنة للخارج أو مايعادلها

مجلة الكاتب المصرى تعنى بكل مايرد اليها من المقالات والرسائل ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

الثمن بمصر : ١٠ قروش

مطبعة الكاتب المصرى شركة مساهمة مصرية